

كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

كسوة الكعبة المشرفة

وفنون الحجاج



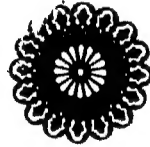
لا إله إلا الله

ابراهيم حلمي

إبراهيم حلمي

كسوة الكعبة المشرفة

وفنون الحجاج



■ المشرف على التحرير : جمال الفيضاني



● العدد ٣٢٠ ●

الإهداء

أشرف الآن بعد أن خرجت هذه الأوراق الى
رحاب النور بأن أقول للأستاذ (صفوت كمال)
الأستاذ بالمعهد العالى للفنون الشعبية ، ومدير
تحرير مجلة الفنون الشعبية : « أستاذى
العزیز .. شكرا » - لاهتمامك بى وقت أن كنت أنا
طالب دراسات عليا بالمعهد أتلقى منك ، ومحررا
بالمجلة من بعد أستزيد وأستنير بضياء أفكارك .
ابراهيم حلمى



مكونات كسوة الكعبة المشرفة

وفنون زركشتها(*)

منذ أعوام سحيقة ، ومنذ أن عرف الإنسان الله ،
وأدرك الطريق إلى هداة وتطهر قلبه بنور رباني مشرق ،
سعى من تيسر له من بني جنسه إلى زيارة بيت الله
الحرام ، من أجل أن يغتسل من الذنوب والأوزار
والأدران ، ويعود فائزاً بنعيم الصفح والتوبة
والغفران .

ومنذ أن هل دين الاسلام ، وهو خاتم الرسالات السماوية ، بآركانه الخمس ،
حف الإنسان المسلم الركن الأخير منه - وهو الحج - بكل مظاهر الاجلال والعناية
والاهتمام في حياته .

وكان أبرز دليل على ذلك هو عنايته الخاصة ببيت الله الحرام ، وسعيه
واهتمامه بكساء هذا البيت العتيق ، الذي كان أول بيت وضع للناس مباركاً .
ولقد مرت الأيام ، وبعبروها في ساحة الزمن ، كانت تتفتق مدارك الإنسان
المسلم ، وتتركز في ابداعات فنية قيّمة ، خصّ بها كساء بيت ربه المعظم ، حتى
وصلت إلى أعلا مراتب الابداع في الفنون ، فكان في الختام جملة ما نشاهده الآن
فوق جدران بيت الله الحرام من كساء جميل الصنع ، فائق الاتقان ، حلو الصورة
يجعلنا نشيد بقدرات وملكات من أبدع هذا ، وسبحان من ألهم العقول والأذهان
لكي تبدع عن طريقها أصابع الفنان .. !

مكونات كسوة الكعبة المشرفة :

من واقع آخر وثيقة مصرية كتبت وحررت كإشهاد شرعى لكسوة الكعبة
الشريفة في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية نستطيع أن نقف على
مكونات وتفاصيل هذه الكسوة المصرية ، ونجدها على النحو الآتي :

١ - ثمانية أحزمة^(١) وأربعة كردشيات^(٢) مزرّكشة جميعها بالمخيش^(٣) الفضة
الأبيض والمخيش الفضة الملبس بالذهب البندقى^(٤) على حرير أطلس أسود
واخضر ، وهذه الأحزمة وما يتبعها من رنوكه^(٥) عددها أربعة ، وكذلك
الكردشيات سالفة الذكر مركبة جميعها على ثمانية أحمال من الحرير الأسود
الكمخ^(٦) المكتوب بالدالة المعروفة ، وهذه الأحمال الثمانية مبطنه بالبقية
البيضاء وعروضها متماسكة بواسطة اشربة من البوار القطن الأبيض ، وتتكون
هذه الإحمال من اثنين وخمسين ثوبا من قملش الكمخ المذكور ، يحتوى كل ثوب
على ١٤,٨٠ مترا طول و٠,٩٣ مترا عرض^(٧) .

٢ - ستارة باب بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع ، وهى مزركشة ايضا بالمخيش سالف الذكر بنوعيه على حرير اطلس اسود واخضر واحمر ومبطنه بالبفتة البيضاء ومبطنه كذلك بالاطلس الحريري الاصفر ، وبها ثلاثة شرايات^(٨) كبيرة من الحريري الاسود والقصب والمخيش والكتنير^(٩) وستة ازرار فضة مطلية بالذهب واثنان عشرة شراية صغيرة من القطن الهندي الاحمر والقصب والكتنير الفضة الابيض والاصفر والمخيش العقادي الاصفر^(١٠) ، واثنان عشرة شمسية مزركشة^(١١) على الحريري الاحمر بالمخيش الفضة بنوعيه ومبطنه بالاطلس الاحمر ، والستارة المذكورة مكونة من اربعة اجزاء متصلة ببعضها ، وهى : العتبة^(١٢) والطراز^(١٣) والقائمان الكبير والصغير^(١٤) .

٣ - ستارة باب سطح بيت الله الحرام ، وهو المعروف بباب التوبة داخل البيت الحرام ، وهى من الحريري الاطلس الاسود والاخضر والاحمر ومزركشة بالمخيش بنوعيه ، ومبطنه بالبفتة البيضاء والنوار^(١٥) القطن ، وكذلك الاطلس الحريري الاصفر .

٤ - كبس مفتاح الكعبة المشرفة ، وهو من الاطلس الاخضر الحريري ومزركش بالمخيش الفضة المذكورة بنوعيه ، وله شرايتان من القصب الفضة الاصفر والمخيش العقادي والكتنير الفضة الاصفر ، وثلاثة احبال قطن مجدولة تعرف بالمجاديل^(١٦) ، وواحد واربعون حبلا من القطن تعرف بالعصافير^(١٧) ، وهذه الاحبال لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المطهرة ، واقتان من الحريري الطبيعى الاسود المفتول لاصلاح ما يلزم فى الكسوة الشريفة خلال عام ارسالها ، ويبلغ مقدار المخيش بنوعيه المزركشة به قطع الكسوة الشريفة جميعها ١٢٩٥٩ مثقالا^(١٨) من الفضة النقية وما يخالطها من الذهب البندقى .

ونلاحظ على وثيقة هذه الكسوة المصرية الاخيرة خلال عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ملحوظتين هامتين ، هما :

اولا : ان مكونات هذه الكسوة قد خلت من كسوة مقام سيدنا الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - وستارة باب مقصورته ، حيث كان قد بطل عمل الكسوة لهذا المقام الجليل منذ عام ١٣٥٩ هـ الموافق ١٩٤٠ م ، لأن حكومة المملكة العربية السعودية قد غيرت شكل ما يحيط بالمقام من غطاء ، فحافظته بسياج معدنى ذهبي ، فلم تعد هناك حاجة لكساء هذا المقام الجليل ، فى حين نجد فى اشهادات سابقة لكسوة الكعبة الشريفة وجود كسوة لمقام خليل الرحمن و خليل الانسان سيدنا (ابراهيم) - عليه السلام - وكذلك ستارة لباب مقصورته الشريفة .

فمثلا فى اشهاد كسوة عام ١٣٢٢ هجرية الموافق ١٩٠٥ ميلادية توصف كسوة مقام سيدنا (ابراهيم) بانها مبطنه بالبفتة الابيض المزركشة بالمخيش الابيض والاصفر المطلى بالبندقى الاحمر على الحريري الاسود والاطلس الحريري الاخضر

والأحمر ، وبها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأحمر وعشرة شراريب صغيرة قطن مصبوغ أحمر وقصب وخمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الأحمر بها سجدق قطن^(١٩) شبكة بقطان قطن وأزرة وشراريب من قطن هندي أحمر وأصفر بخرز^(٢٠) وفي نفس الوثيقة نجد وصفا لستارة مقصورة سيدنا (إبراهيم) - عليه السلام - بأنها مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر ، بها خمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الأحمر وعشرة شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر بها عشرة شراريب صغيرة قطن هندي أحمر وقصب مبطنة بالبلغت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر .

ثانيا : ان وثيقة اشهاد الكسوة الشريفة الأخيرة في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية قد خلت من ذكر « ستارة باب المنبر المكي » في حين ان وثائق الاشهادات السابقة كانت تذكرها باعتبارها احدى مكونات كسوة الكعبة الشريفة .

ونعتقد ان اللجنة التي قامت بكتابة وثيقة الاشهاد الشرعى لهذه الكسوة والمكونة من فضيلة الشيخ (احمد هريدى) مفتى مصر وقتها و(عبدالعظيم عبدالهادى القاضى) سكرتير دار الافتاء و(محمد ابراهيم صالح) رئيس دار الكسوة الشريفة ، والمقدم (عبدالرحمن حلمى الزغبى) المنتدب من مكتب الأمن بوزارة الاوقاف لتسليم الكسوة الشريفة بالأقطار الحجازية ، و(حسن عباس زكى) وزير الاقتصاد ورئيس بعثة الحج و(احمد عبدالله طعيمة) وزير الاوقاف ، وآخرين حضروا تسلم هذه الكسوة ، كل هؤلاء سقط منهم سهوا ان « ستارة باب المنبر المكي » هي احدى مكونات كسوة الكعبة المشرفة .

ولقد كنا نظن ان هذه الستارة قد بطل عملها وقتها بدار كسوة الكعبة بالخرنفس بالقاهرة ، وذلك أسوة بما حدث لكسوة مقام سيدنا (إبراهيم) وستارة باب مقصورته ، لكن فحصنا لمفردات كسوة الكعبة الشريفة هذه بالدار المذكورة تأكد لنا انها كانت موجودة ، لأنها لازالت مع بقية قطع الكسوة الأخيرة ويحتفظون بها حتى الآن فى الدار .

وهذه الستارة يصفها (ابراهيم رفعت باشا) قائلا : انها مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع (ستارة باب بيت الله الحرام) ، ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦ ١/٢ اذرع ، وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقالا^(٢١) .

هذه هي مكونات كسوة الكعبة المشرفة ، اما فنون زركشتها فنستطيع ان نرجعها الى عهود قديمة .

واقدم هذه العهود التى تتحدث عن طراز كسوة الكعبة المشرفة هو علم ١٥٩ هجرية .

قال (الفلكي) فى كتاب « أخبار مكة » مؤرخا لها : « .. ورايت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها : بسم الله ، بركة من الله ، مما امر به عبدالله المهدي محمد امير المؤمنين ، اصلحه الله . محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز (تنيس) كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة ، (٢١١) . وهذا التاريخ يرجع بنا الى ايام الدولة العباسية ، حيث كانت مصر تابعة لها بحكم الولاء للخلافة الاسلامية ، وكانت (تنيس) احدى مدن دمياط التى تقوم بصناعة كسوة الكعبة المشرفة ، وفق اصول الصنعة التى تحذفها هى وبلدة اخرى شهيرة بصناعتها لكسوة الكعبة المشرفة ، وتدعى (توتة) ولها هى الاخرى طراز خاص بها وشهير لدى الافاق .

كانت بصمات الذوق المصرى واضحة فوق كساء بيت الله الحرام منذ بواكير الاهتمام به فى عصر النبى ، صلى الله عليه وسلم .

قال (عبدالرازق) عن (ابن جريج) : « اخبرت ان عمرا كان يكسوها القباطى ، واخبرنى غير واحد ان النبى - صلى الله عليه وسلم - كساه القباطى والحبرات ، وابو بكر وعمر وعثمان ، (٢٢) .

كان هذا القباطى قماشاً مصرياً منسوجاً من الكتان المبييض وبه زخارف كتابية على شكل دوائر (٢٣) .

ولم يكن هذا القماش الذى نال شرف ان يستر بيت الله الحرام يعنى بمعناه اللغزى اسم طائفة بعينها ، ولكنه يعنى طريقة فنية تطبيقية اشتهر باقتلاجها القبط من قبل دخول الاسلام ويرعوا فيها فاصيح اسمهم يطلق عليها سواء اكلن صانعاً قبطياً ام مسلماً ، وظل هذا الاسم مستعملاً طوال الفترة التى سالت فيها هذه الطريقة الفنية فى زخرفة المنسوجات الى آخر العصر الفاطمى (٢٤) .

ويخطئ من يظن ان قماش القباطى كان ذا لون واحد ، او من نوع الاقمشة السادة الخالية من الالوان . فهو على الرغم من قدم العهد به إلا انه يعتبر من « المنسوجات الزخرفية » ، وانه اول محاولة للحصول على زخرفة نسيجية مكونة من لونين او اكثر وان وسيلة صنعه تعد من ابسط الوسائل التى اتبعت فى صنع اقمشة مزخرفة النسيج (٢٥) .

وعندما ازدهر استخدام قماش القباطى ، ذى الاسلوب المميز فى الزخرفة المصرية كان يواكب ذلك ازدهار آخر فى فن النسيج ، وهو اسلوب التطريز الذى اظهر براعة الفنسان المصرى ، ماسك الابرة والخيوط ، لينسج فوق سطح المنسوجات ايات واضحة من ابداعاته ، ليؤكد ان « فن التطريز اصيل فى مصر وليس حرفة مستوردة » ، فقد نشأ وظل بها فى سلسلة متصلة الحلقات منذ اقدم عصورها التاريخية الى اوائل العصر الاسلامى على الاقل (٢٦) .

وبتلاحق السنين ، أخذ هذا الفن يوجد لنفسه صورا متعددة ، وقنوات يصب فيها اشكالا فنية فائقة الحس ، فكان فن الزركشة بصفة عامة وفن زركشة كسوة الكعبة المشرفة على وجه الخصوص ، بما له من سمات خاصة تحفها قدسية في داخل نفوس المبدعين لها من المسلمين ، لتضيف صفحات مجيدة منها الى الفن الاسلامي ، تبهج بها العيون والنواظر ، وتشرح بها القلوب والخواطر .

فنون زركشة كسوة الكعبة المشرفة :

شملت فنون زركشة كسوة الكعبة المشرفة ثلاثة أشياء تضاهرت معا لتبرز وتجلو محاسنها على الوجه الاكمل . وهذه الاشياء هي :

- ١ - الحرف بما له من المعنى والشكل .
- ٢ - الزخرف بما له من وحدة الايقاع المنتظم .
- ٣ - اللون بما له من وقار التعبير الهادي .

وإذا دققنا الفحص في أحزمة كسوة الكعبة المشرفة فسنجد أن العناصر الثلاثة السابقة تتناغم معا في وحدة عضوية واحدة .

الكتابات على أحزمة الكعبة المشرفة واسلوب زركشتها :

جاءت الكتابات على أحزمة الكعبة المشرفة الثمانية على النحو الآتي : (٢٨)

● الحزام الأول : طوله ٧,٥٠ مترا ، ويتداخل فيه ١٢٠٩ مثقالا من خيوط المخيش الفضة ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والركع السجود » .

● الحزام الثاني : طوله ٦,٨٠ مترا ، ويتداخل في تشغيله ٨٧٤ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وحب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .

● الحزام الثالث : طوله ٦,٤٠ مترا ، ويتداخل فيه ٩٠١ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فلتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم » .

● الحزام الرابع : طوله ٥,٧٠ مترا ، ويتداخل فيه ٧٨٥ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « ومن دخله كان آمنا . والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين . قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله . والله شهيد على ما تعملون » .

● الحزام الخامس : طوله ٧,٥٠ مترا ، ويتداخل فيه ١٠٣٨ مثقالا من



■ كتابات حزام الكعبة المشرفة عام ١٩٢٥ ميلادية في عهد الملك فؤاد ■

المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ،

● الحزام السادس : طوله ٦,٧٠ مترا ، ويتداخل فيه ٩٤١ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفنهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ،

● الحزام السابع طوله ٦,٣٥ مترا ، ويتداخل فيه ٨٣٤ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله ،

● الحزام الثامن والآخر : به الإهداء وهو : « صنع بالجمهورية العربية المتحدة من الرئيس جمال عبدالناصر سنة ١٩٦١ » .

وبالطبع كانت هذه الكتابات على أحزمة كسوة الكعبة المشرفة التي صنعتها مصر عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية .

ومن فنون الزركشة نلاحظ أن الخط مكتوب بخط الثلث لكل حزام ، وأن هذا الخط مكتوب بخيوط المخيش البارز ، وفوقه وتحت شريطان زخرفيان بأسلوب الزركشة البارزة ، وكل شريط ينحصر بين خطين يحصران توريقا على جانبي فرع نبات يأخذ شكل موجة الماء في شكل الانحناءات .

ويلاحظ أن الفنان مزركش كسوة الكعبة المشرفة يبدأ حصر الكتابة في قوس مفتوح جهة اليسار ، وهذا القوس يعلوه توريق ويتذيله آخر ، في حين ينهى كتابة الحزام بقوس عكس الاتجاه الأول وينفس طريقة حصر القوس الأول ، مع اختلاف الاتجاه ، لكي يعطى نوعا من التماثل في أسلوب الزركشة .

كما يلاحظ أيضا أن بين كل حزامين وضع الفنان مزركش كسوة الكعبة زركشة داخل دائرة ، وهي المسماء باسم (الزُرك) وهذا الزُرك انقسم إلى أربعة أقسام متساوية ، شكلتها أربعة كلمات هي « يا حنان يا منان يا سبحان يا ذيان » وهذه الكلمات الأربعة تشترك جميعها في أول وثلاثي حرفين ، وهما (يا) كما تشترك في الحرفين الآخرين ، وهما (ان) . وهضلا عن الجرس الموسيقي الذي تكونه هذه الكلمات الأربعة وتعطى صفاء النداء ونقاء الابتهال لمن يقرأها فإنها تشكل ما يشبه الوردة عندما يتجمع كل حرف أخير منها مع نظيره في تشكيل قفى رائع . ولقد تصرف الفنان كاتب الزركشة في شكل حرفي النداء وهما (يا) ، وجعلهما في وضع معكوس على شكل (ل) حتى يعطى مساحة فاصلة بين كل كلمتين ، وهذه المساحة ملأها بنقظتي حرف ياء النداء ، وجعل الفنان مزركش كسوة الكعبة المشرفة النقاء هذه الحروف الأربعة على شكل شبكة تملأ قلب الشكل ، ووسطه نقطة في المركز .

الكردشية وزركشتها .

توضع أربعة كردشيات عند أركان الكعبة المشرفة وتحت مستوى أحزمتها ، وكل كردشية عبارة عن دائرة داخل تشكيل مزركش على شكل مربع ، طول ضلعه ٣,٤٠ متر ، وهذه الدائرة تحوى سورة الإخلاص ، مكتوبة بحيث تأخذ شكل الدائرة هي الأخرى ، وعند كتابة العبارة « ولم يكن له كفوا أحد » صادف الخطاط حرفي كاف في كل من « يكن » و« كفوا » وحتى لا يشوه تشكيله الخطي اكتفى بكتابة الحرف الأول في كلمة « يكن » ووضع عند أسفل شرطة كافها كافا صغيرة على شكل (كـ) تعويضا عن الحرف كاف في كلمة « كفوا » .

ولقد كَوَّن الفنان الخطاط تشكيلا مزركشا مشبعا من كل الحروف ذات السيقان في سورة الإخلاص ، وهذا التشكيل الهندسي حوى تشكيلا آخر دائريا عبارة عن أربعة كلمات من دعاء (يا الله) ، وقد جعل الخطاط حرف الف النداء مع حرف الالف في لفظ الجلالة ليشكلا زاوية قائمة شغلت مساحة ربع الدائرة ، وقد تصرف الخطاط في طريقة كتابة حرفي النداء مثلما فعل في الرنوك التي في الأحزمة . وقد حدث تطور في شكل الكردشية ، إذا غيّر الفنان الخطاط والمزركش هذا التكوين المشكّل من الكلمات الأربعة للفظ الجلالة والتي كانت تكتب منذ أزمنة بعيدة عثرنا على نسخة منها أيام الملك قواد الأول عام ١٩٢٥ ، الى دائرة من الحرير الأخضر كُتِبَ في داخلها عبارة « الله جل جلاله » .

كما حدث تطور آخر في ذلك الاطار المزركش الذى كان يحيط بالكردشية الى أربعة زوايا من الزركشة في الأركان متصلة ببعضها ، وهذه الزوايا عبارة عن تشكيل هندسي من الأوراق النباتية المتداخلة ، بحيث تحدد هذه الزوايا اطار الشكل المربع .

وكانت كل كردشية تزركش بما هو زينتته ٤٠٥ متقالا من المخيش بنوعيه الفضى والذهبي^(٢٩)

ستارة باب الكعبة أو (البرقع) :

تعتبر ستارة باب الكعبة المشرفة أكثر قطع الكسوة الشريفة احتفاء بالزخارف النباتية والهندسية والكتابية على السواء^(٣١)

وهذه الستارة متماثلة الزركشة النباتية والهندسية حول محورها الرأسى ، أما زركشة الخط فهي بالطبع لا تخضع لهذا التماثل ، نظرا لوجود آيات قرآنية تأخذ من مساحة مسطحها قدرا هو أكثر من النصف ، لذا يتعذر التماثل .

وإذا ما دققنا النظر في زركشتها النباتية فسنجد انها إطار يحيط هذه الستارة بأوراق وفروع نباتية ، تتقابل على جانبي الفرع ، وتكثر الزخارف والزركشة في الجزء السفلى من الستارة بشكل لافت للنظر ، وهو ما يسمى باسم (القائم الكبير) والذي به فتحة باب الكعبة المعظمة . فالفنان المزركش والمصمم لها أراد



■ كرواشية كسوة الكعبة المشرفة عام
١٩٢٥ ميلادية في عهد الملك فؤاد ■

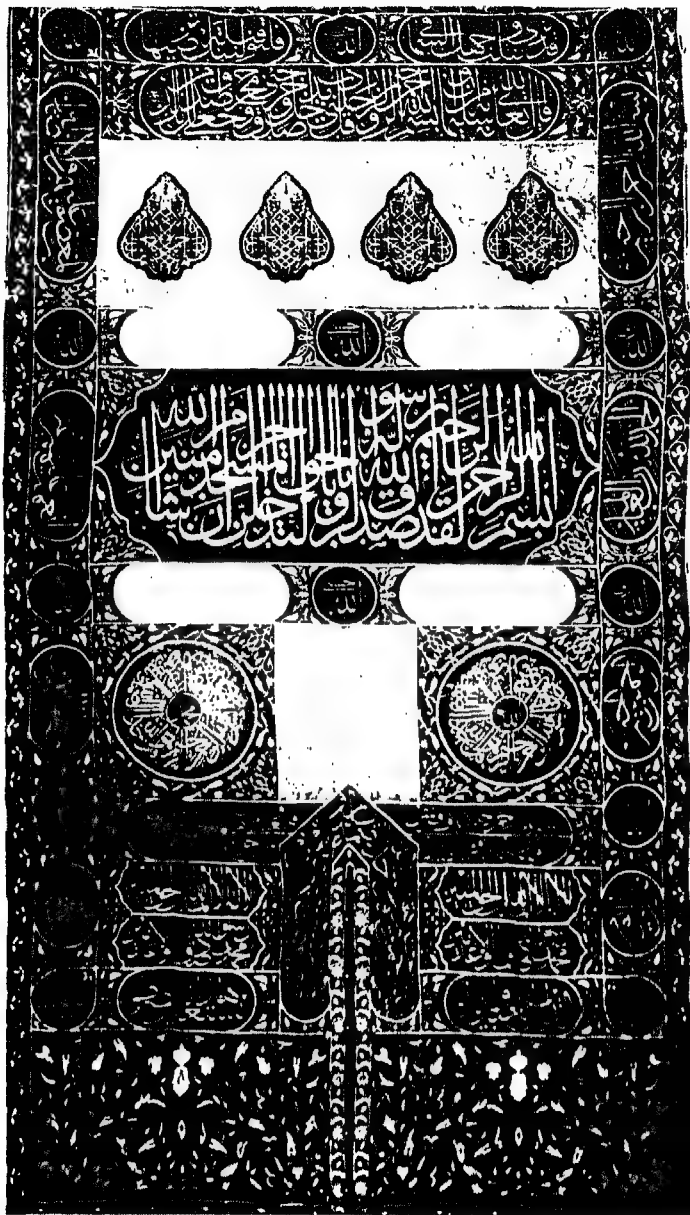
أن يضعها على هذا النحو في الجزء القريب من سطح الأرض ، لكي يبعد باقي الزخارف الكتابية عن مستوى الأرض بأكبر مسافة ممكنة ، لأنها زركشة كتابية آيات قرآنية شريفة .

أما الزركشة الهندسية فلا تخرج عن أن تكون ذات شكل دائرى ، أو بيضاوى ، أو مستطيل ، أو دائرى منبعج ، أو أشكال مزركشة على هيئة القنديل أو ثمرة الكمثرى .

والزركشة الكتابية في ستارة باب الكعبة المشرفة أو البرقع عديدة ، ففي أعلا جزء فيها نجد في ركنيها لفظ الجلالة مقترنا بالربوبية داخل دائرة مكتوب فيها « الله ربى » ثم الآية القرآنية الشريفة : « قد نرى تقلب وجهك في السماء » ، وذلك داخل شكل بيضاوى ، ثم عبارة « الله حسبي » داخل دائرة في المنتصف ، ثم تكملة الآية القرآنية الشريفة : « فلنولينك قبلة ترضاها » في شكل بيضاوى ثان يتماثل من حيث الشكل مع نظيره الأول حول المحور الرأسى المار بالمنتصف . وفي أسفل هذه الآية القرآنية نجد آية قرآنية أخرى في داخل شكل بيضاوى كبير تقول : « قال الله تعالى إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم » وهي الآية رقم (٣٠) من سورة المائدة ، غير أن كاتب الخط لم يكمل السطر بباقي الآية ، وإنما أكمل السطر بآية أخرى قرآنية تقول : « وقل رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا » ، وقام الخطاط بكتابة آخر كلمتين في هذه الآية وهما « سلطانا نصيرا » بخط أصغر من باقي حروف الآية الكريمة ، حتى يتمكن من أن يكمل بهما باقي السطر في حدود المساحة والحيز المتاحين ، في براعة فائقة واتقان لا يوصف ودقة متناهية^(٣١)

ثم أسفل هاتين الآيتين الكريمتين يوجد أربع أشكال كتابية مزركشة ، داخل شكل على هيئة القنديل أو ثمرة الكمثرى ، تحتوى البسملة كل واحدة منها ، في تكوين متماثل الشكل حول كل محور رأسى لأحداها ، في حين تتخلل الزركشة فيما بين هذه الأشكال الأربع القنديلية أو الكمثرية أفقيا ورأسيا بأوراق نباتية ذات فروع .

يلي ذلك شكل بيضاوى يحتوى على الآية القرآنية الكريمة في الجزء الأيمن من الستارة : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وهي مكتوبة في سطرين يفصلهما خط أفقى ، ثم دائرة داخلها عبارة « الله حسبي » ثم تكملة آية الكرسي في الجزء الأيسر من الستارة في شكل بيضاوى متماثل مع الجزء الأيمن : « له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون » ويكمل الفنان الخطاط والمزركش الآية في سطور لاحقة . وعند هذا الحد ينتهى الجزء الأول العلوى ، وهو ما يسمى باسم (العتبة) .



■ ستارة باب الكعبة المشرفة أو ما يسمى بالبرقع عام ١٩٠٩ ميلادية

في عهد السلطان حسين كامل ■

أما الجزء القائل فقد أدخل الفنان الخطاط والمزكش بأكبر خط في التصميم كله الآية الكريمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » .

والى هنا ينتهى الجزء الذى يلى (العتبة) والمسمى باسم (الطراز) . ثم تاتى اسفل ذلك تكملة آية الكرسي ، ثم كريدشيتان داخلهما سورة الاخلاص ، مع اختلاف بسيط عن الكريدشيات التى تعلق منفصلة فى أركان الكعبة . إذ يتوسط اليمنى لفظ « الله جل جلاله » أما اليسرى فيتوسطها « محمد رسول الله » . وينتهى عند ذلك الجزء المسمى بالقائم الصغير . أما القائم الكبير فهو بقية الجزء السفلى من الستارة ، وهو الذى يحتوى على فتحة باب الكعبة ، والتى زركشت على جانبيها بسورة الاخلاص ، وفى الجزء الأيمن من الفتحة واليسر سورة قريش ، وتحتها « لا إله إلا الله الملك الحق المبين » فى كل من الجزء الأيمن واليسر وتحتها « محمد رسول الله صلوق الوعد الأمين » .

وتلمح فى زركشة الستارة الكتابية فاتحة الكتاب ، وهى مكتوبة فى مجموعة من الاشكال البيضاوية ، على الاطار الخارجى لها ، فى حين يتوسط نهاية الزركشة الكتابية مستطيل كتب بداخله : « أمر يصنع هذه الستارة صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول بن اسماعيل باشا بن الحاج ابراهيم باشا بن الحاج محمد على باشا ، وان كانت هذه الأسماء قد تغيرت كثيرا ، واستبدلت باسم الملك فاروق الأول ، ثم الرئيس جمال عبدالناصر ، والذى توقف ارسال الكسوة المشرفة فى عهده ، ثم الرئيس أنور السادات فيما بعد ، والذى كانت لديه الفية فى اعادة ارسال الكسوة المصرية للكعبة المشرفة ، ولكن لم تمكنه الظروف من ذلك ، بعد ان تم تغيير الاسم بالفعل من على آخر كسوة^(٣٢)

ستارة باب سطح بيت الله الحرام أو باب التوبة :

على يمين الداخل من زاوية الركن الشمالى للكعبة المشرفة يوجد باب يصعد منه على مدرج الى اعلا الكعبة ، يقال له « باب التوبة » . وهذا الباب عليه ستارة من الحرير المزركش بما هو زنته ١٠٢٤,٦٦ مثقالا من خيوط المخيش بنوعيه .

ومكتوب على هذه الستارة « بسم الله الرحمن الرحيم وإذا جاءك الذين « وذلك فى السطر الأول العلوى منها . أما السطر الثانى فمكتوب فيه التكملة « يؤمنون بإياتنا فقل سلام عليكم كتب ريكم » ، وفى الثالث مكتوب « على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة » وفى السطر الرابع « ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » .

أما السطر الخامس ، فمكتوب بخط اصغر « صدق الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم وصدق رسوله البشير النذير » .

وفي نصف الستارة السفلى فمكتوب الإهداء على ثلاث سطور ، وهي « أمر بتجديد هذه الستارة الشريفة » ، « صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول » ، « ابن اسماعيل باشا ابن الحاج إبراهيم باشا » . وفي الستار القديمة كان يكتب الإهداء في السطر الخامس من الجزء العلوى ، وهذا ما لاحظناه على ستارة باب التوبة التى أمر بصنعها السلطان (محمد خان الخامس)^(٣٣) . ويلاحظ على هذا الجزء السفلى من هذه الستارة انه متماثل فى الزركشة النباتية والهندسية حول المحورين الأفقى والرأسى المارين بالمنصفين ، والزركشة فيه غزيرة . أما الإطار الخارجى للستارة فهو مزركش بعدد ١٤ وردة ، كل واحدة منها داخل دائرتين فى حين يفصل بين كل وردتين تكوين زخرفى متماثل حول محوريه الأفقى والرأسى ، ويختلف هذا التكوين فى منتصف الإطار العلوى والسفلى لكسر حدة التماثل فى أسلوب زركشة الستارة .

أما من حيث الألوان ، ففضلا عن لون الستارة الأسود ، يستخدم فنان الزركشة بعض قطع من الحرير الأخضر فى نصف الستارة العلوى ، أمعانا فى اظهار الآيات المؤكدة لمعنى الإيمان والتوبة ، وهو المعنى الذى أضفى على اسم هذه الستارة . ويختلف أسلوب زركشة إطار هذه الستارة عن أسلوب زركشة إطار ستارة باب الكعبة المشرفة ، كما يختلف عن أسلوب زركشة ستارة باب المنبر المكى ، إذ أن أسلوب زركشة إطار هاتين الستارتين واحد فى استخدام الفرع النباتى والأوراق على جانبيه ، ولكن الفنان المزركش لستارة باب التوبة عمد الى الزركشة بالدوائر وبالتكوين ذى الوحدة المتكررة بلا فروع نباتية .

وحيث أن هذا الأسلوب موجود فى ستارة السلطان (محمد خان الخامس) فواضح ان البصمات العثمانية واضحة على الأسلوب الفنى فى زركشة مثل هذه الستارة ، وان كانت الايدى المزركشة لها مصرية .. !

ستارة باب المنبر المكى :

هذه الستارة وصفها اللواء / إبراهيم رفعت باشا فى رحلته للأراضى الحجازية عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية فقال انها : « مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع ، ومقابل ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦ ١/٢ اذرع ، وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقالا »^(٣٤) (الذراع = ٧٥ سنتيمترا)

وأسلوب زركشة هذه الستارة لم يختلف كثيرا خلال هذا القرن سوى فى اختصار الآيات القرآنية الشريفة التى تكتب عليها .

ففى أحد نماذجها التى نشرها اللواء (إبراهيم رفعت باشا) نجد الآيات القرآنية الشريفة الآتية :

في السطر الأول العلوى : « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله .
وفي السطر الثانى الذى يليه : « وملائكته يصلون على النبى يا أيها .
وفي السطر الثالث الذى يليه : « الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .
وفي السطر الرابع الذى يليه : « الاهداء من الخديو عباس حلمى باشا خديو
مصر » .

وتنتهى الكتابة عند منتصف الستارة بالتمام ، بحيث يشغل منتصفها السفلى
زركشة فنية وهندسية ، حيث يتدلى قنديل أو مشكاة من مركز ثقلها معلق بثلاث
خيوط .

هذه الزركشة كانت في عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية ، أما نفس
الستارة في عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية أيام الملك فؤاد الأول ملك
مصر فقد تم تغيير الآيات القرآنية فيها الى :

السطر الأول في منتصفه : « قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز » .
وفي السطر الثانى الذى يليه : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم
الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » .

وفي السطر الثالث الذى يليه : « وذرؤا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .
فإذا قضيت الصلاة » .

وفي السطر الرابع الذى يليه : « فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله
واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . صدق الله العظيم » . وعبارة الختام بخط
صغير .

أما السطر الخامس والآخر في الكتابة فكتب فيه : « أمر بصنع هذه الستارة
لمنبر بيت الله الحرام صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول نصره الله وذلك
سنة ١٣٤٤ » ..

إن اختيار هذه الآية التي تدعو الى صلاة الجمعة لوضعها على ستارة باب المنبر
المكى مقترن بأهمية المنبر في أداء شعائر صلاة الجمعة ، حيث تشكل خطبة خطيب
المنبر الركن الأساسى فيها .

ولقد عمد الفنان المركزى لهذه الستارة الى ترك الجزء السفلى منها باستثناء
وضع القنديل أو المشكاة لاعطاء أكبر قدر ممكن لظهور مدى سواد الحرير الذى
يمثل لفيفا من الظلام ، فيحدث التضاد بين هذا الظلام وتعلق القنديل أو المشكاة
به .

كسوة مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام :

يكتسب مقام الخليل (ابراهيم) عليه السلام قدسية خاصة عند كافة المسلمين . فقول : انه هو الحجر الذى وقف عليه الخليل - عليه السلام - حين بنى الكعبة ، وهذا يروى عن (ابن عباس) - رضى الله عنهما - و(سعيد بن جبير) ، وغيرهما ، وقول : وقف عليه حين اذن للناس بالحج ، وقول : وقف عليه حين غسلت زوجة ابنه اسماعيل رأسه لما جاء يسأل عن ولده اسماعيل^(٣٥) وروى (ابن بطوطة) أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقام فقرا : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ، وركع خلفه ركعتين^(٣٦)

وكان الخليفة (المهدي) العباسي هو أول من حلّ هذا المقام بحلية ذهبية من أعلاه وأسفله عام ١٦١ هجرية . وقد قال القاضي (عز الدين بن جماعة) : حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ٧٥٣ هجرية مقدار ارتفاع المقام عن الأرض ، فكان $\frac{7}{8}$ الذراع ، وأعلى المقام مربع من كل جهة $\frac{2}{3}$ الذراع ، وموضع غوص القدمين ملبّس بالفضة ، وعمقه من فوق الفضة سبعة قراريط ونصف قراريط من ذراع القماش المستعمل في مصر^(٣٧)

(الذراع = ٧٥ سنتيمترا)

وكانت مصر ترسل كسوة مقام سيدنا الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - مع كسوة الكعبة المشرفة كل عام حتى أربعينيات هذا القرن حيث تغير شكل المقام جملة وتفصيلا - كما سبق أن قلنا - وأحيط بسياج ذهبي .

وهذه الكسوة مؤلفة من خمسة قطع ، أربعة منها راسية والخامسة هي سقفها ، وارتفاعها ٣,٣٤ مترا ، وعرضها ١,٨٨ مترا عند القاع و١,١٢ مترا عند القمة وعلى كل قطعة منها ما وزنه من ٦١٠ الى ٦١٤ مثقالا من المخيش بنوعيه ، أما السقف فعليه ما وزنه من المخيش ١٣٩ مثقالا .

ولابرار جمال هذه الكسوة فقد استخدم الحرير الأسود والأطلس الحريري الأحمر والأخضر ، هذا فضلا عن الكتابات التي جاءت بها على النحو الآتي كما في الجدول رقم (١) :

الزكوة الكتابية التي كانت على كسوة مقام الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - سنة ١٣٤٤ هجرية
الوافق ١٩٢٥ ميلادية

الوجه الاول	الوجه الثاني	الوجه الثالث	الوجه الرابع
بسم الله الرحمن الرحيم) وإذ مطية للناس وإنما واتخذوا من عهدنا ان ابراهيم واسماعيل ان للطائفتين العاكفين والركع جعلنا البيت	مقام ابراهيم مصلي	ظهورا يثني	السجود
(بسم الله الرحمن الرحيم) وإذ قال ابراهيم رب اني كيف تحيي الموتى	قال اولم تؤمن قال بلى ولكن إنيك ثم اجعل على كل جبل منهن	الله ربنا وخالقنا المميز الرحيم	واعلم ان الله عزيز حكيم صدق
(بسم الله الرحمن الرحيم) إن أول بيت وضع للناس للذي	بيكة مباركا وهدي للعالمين فيه دخله كان أمنا وله على الناس	١- إنيه سبيلا . إن الله غني عن	المعالمين
الله جل جلاله . محمد صلى الله عليه وسلم	أبو بكر رضي الله عنه . عمر عثمان رضي الله عنه	حسن رضي الله عنه . حسين رضي الله عنه	
(بسم الله الرحمن الرحيم) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم	(بسم الله الرحمن الرحيم) هو (بسم الله الرحمن الرحيم)	امر بتجديد هذه الكسوة الشريفة صاحب الجلالة تلك مصر فؤاد الاول بن اسماعيل	بشاشا ابن ابراهيم باشا
بن هو أهدى سبيلا	وكفي بأه شهيذا	إنيك أنت السميع العليم	بن الحاج محمد علي

جدول رقم (١)

سنة ١٣٤٤ هـ



■ كسوة مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام عام ١٩٢٥ ميلادية في عهد
الملك فؤاد ■

وهذه الكسوة التي صنعتها مصر في عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية إذا ما قورنت بنظيرتها التي عملت في عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية والتي أمر بصناعتها السلطان العثماني (محمد خان الخامس) سنجد تغييرا طفيفا في مكان الآية الأخيرة من الوجه الثالث ، فكتب بدلا منها (السلطان محمد خان الخامس بن السلطان الغازي عبدالمجيد خان بن السلطان محمود خان بن السلطان عبدالحميد خان) ويستكمل بقية الاسم في نهاية الوجه الرابع (ابن السلطان أحمد خان خلد الله خلافته وأيد بالعدل سلطنته الى انتهاء الزمان ونهاية الدوران سنة ١٣٢٧ هـ (٣٨)

ونلاحظ على اسلوب زركشة كسوة الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - انه على الرغم من كثرة وتنوع الآيات القرآنية المستخدمة في زركشتها إلا انها داخل تقسيمات هندسية تتكرر على كل الجوانب ، كما يصغر الخط في الجزء السفلي منها ليفسح مكانا كبيرا للزركشة النباتية على اوجه هذه الكسوة الأربعة .

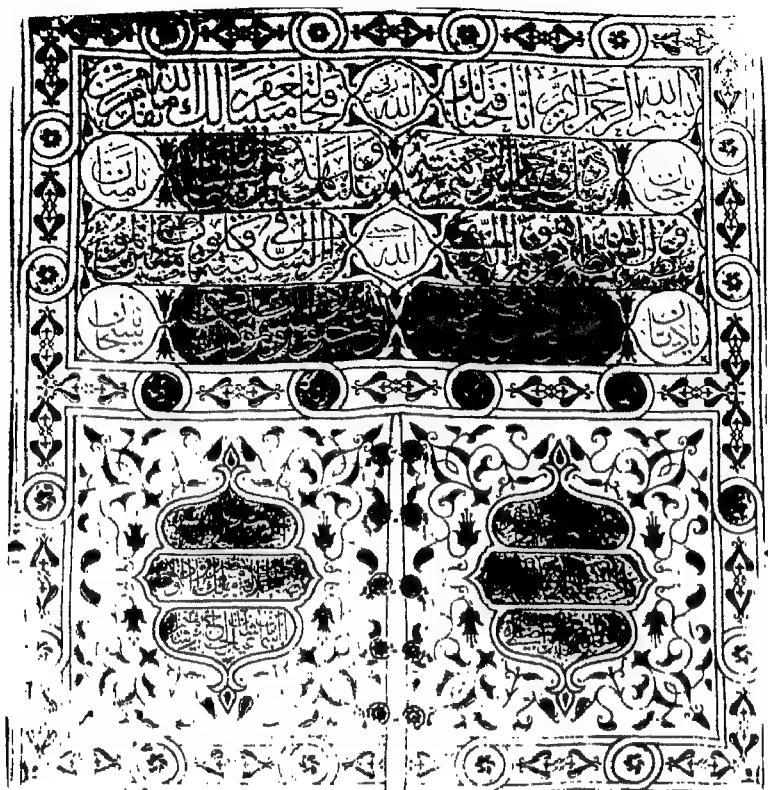
ستارة باب مقصورة سيدنا (ابراهيم) عليه السلام :

هذه الستارة مركبة من قطعتين طول كل منها ٥,٧٠ مترا ، ومن وصلة للقطعتين ، وهي كانت تصنع من المواد التي كانت تصنع منها ستارة باب الكعبة أو البرقع ، ويزن ما كان على القطعة الأولى من المخيش $\frac{1}{4}$ ٩١٥ مثقالا ، وما كان على القطعة الثانية $\frac{1}{4}$ ٩٠٦ مثقالا ، وما كان على الوصلة ٤٨ مثقالا ، فالجملة كان ١٨٧٠ مثقالا ، وكان عليها خمسة أزرار فضة وعشر شمسيات وعشر شرايات صغيرة (٣٩)

وقد جاء زركشتها الكتابية على النحو الآتي :

السطر الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك » ، ثم دائرة داخلها « الله ربى » ، ثم تكملة الآية « فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من »
السطر الثاني : يبدأ بدائرة داخلها دعاء « يا حنان » ، ثم تكملة الآية : « ذنبك وما تأخر ويتم نعمته » ، ثم يفصل الفنان المزرکش والخطاط الآية بما يشبه شكل المقص ، ثم يكمل : « عليك ويهديك صراطا مستقيما » ، ثم دائرة داخلها دعاء « يامنن »

السطر الثالث : يكمل الخطاط الآية : « وينصرك الله نصرا عزيزا . هو الذى »
ثم نجد عبارة « الله حسبى » داخل ما يشبه الدائرة ، ثم : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » ، السطر الرابع : دائرة في داخلها دعاء « يا دينن » ثم تكملة الآية : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » ثم فاصل كما في السطر الثاني ، ثم يكمل الآية : « وه جنود السموات والأرض » ، ثم يكمل الخطاط البار بقية الآية بخط صغير فوق حرف الضاد في الكلمة الأخيرة حيث يضع عليها كلمة « وكن » ، ثم يضع فوق حرف الراء في الكلمة الأخيرة « الأرض » عبارة « الله عليما حكيم » ، ثم ينهى السطر بدعاء داخل دائرة « يا سبحان »



■ ستارة باب مقصورة سيدنا ابراهيم عليه السلام عام ١٩٢٥
■ ميلادية في عهد الملك فؤاد

والكتابة في الجزء السفلي تنقسم الى قسمين : يمين ويسار ،
ففي اليمين نجد في السطر الخامس : « بسم الله الرحمن الرحيم » ،
وفي السطر السادس : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا »
وفي السطر السابع : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »
أما جزء اليسار فنجد في السطر الخامس : « أمر بتجديد هذه الستارة
الشريفة »

وفي السطر السادس : « صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول » ،
وفي السطر السابع : « بن اسماعيل باشا بن الحاج إبراهيم باشا » ولم يكمل
الخطاط بقية الاسم على غرار باقي صور الهداءات السابقة لعدم كفاية المساحة .
وقد عمد المصمم الى الاكثار من الزركشة في الجزء السفلي بالأوراق النباتية والورود
داخل الدوائر على محيط الستارة الخارجي ، فضلا عن الزركشة بالأزهار الفضية في
شريط المنتصف .

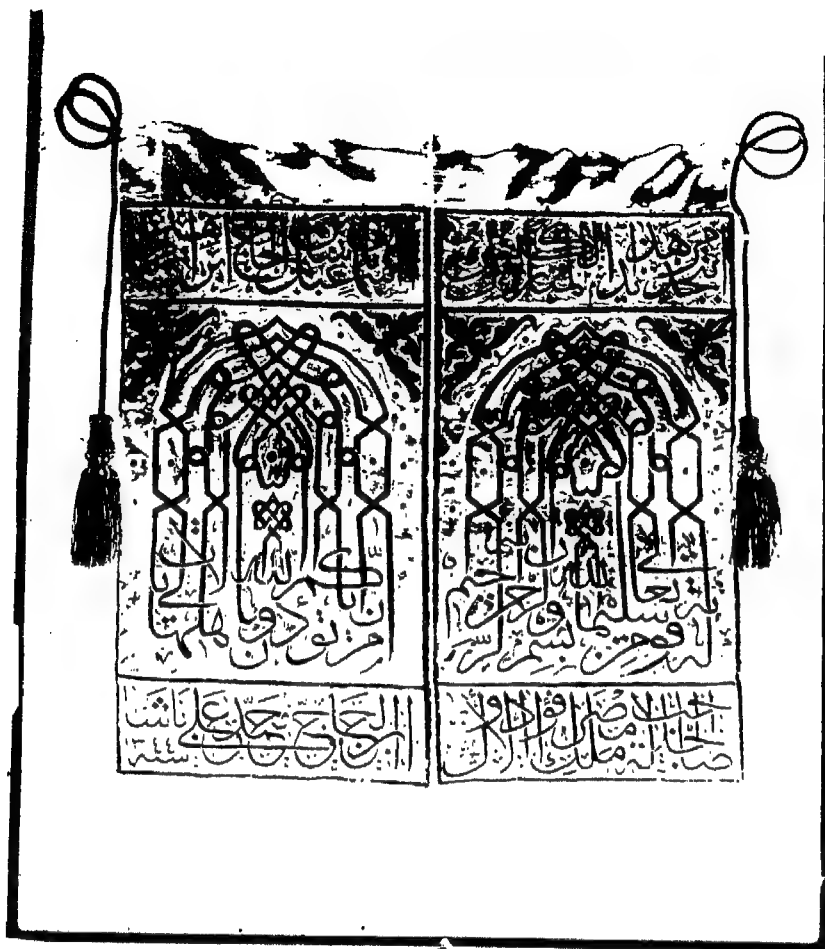
كيس مفتاح الكعبة المشرفة :

عند فتح باب الكعبة المشرفة كانت تقام مراسم معينة وسط ابتهاج حجاج بيت
الله الحرام ، من ذلك ما رواه الرحالة الأندلسي (ابن جبير) في عام ٥٧٩ هجرية .
قال وهو يصف كيفية فتح باب البيت الحرام : « .. فيضعد زعيم الشيبين اليه ،
ويبيده مفتاح القفل المبارك ، ومعه من السدنة من يمسك في يده سترا أسود ، يفتح
يديه به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبين المذكور ، فإذا فتح القفل قبل
العتبة ، ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه ، وأقام قدر ما يركع ركعتين ، ثم
يدخل الشيبينون ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس
بالدخول . وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم ، يقف الناس مستقبلين اياه
بأبصار خاشعة ، وأيد مبسوطة الى الله ضارعة . وإذا انفتح الباب كبر الناس ،
وعلا ضجيجهم ، ونادوا بالسنة مستهلة : « اللهم افتح لنا أبواب رحمتك
ومغفرتك يا أرحم الراحمين . ثم دخلوا بسلام آمنين »^(٤١)

ولأجل أهمية فتح باب بيت الله الحرام ، بما يحدثه في نفوس المسلمين الطائفين
والعاكفين والركع السجود من غبطة وانشراح وابتهاج الى غفار الذنوب ، حرصت
مصر على ارسال كيس لمفتاح البيت العتيق مع كل كسوة للكعبة المشرفة كانت
ترسلها .

ويصف اللواء (إبراهيم رفعت باشا) هذا الكيس فيقول : « هذا الكيس من
الأطلس الساسي^(٤٢) الأخضر الذي مقاسه ذراع وثمان (١ ١/٨ ذراع) وموضوع
عليه مخيش فضة ملبّس بالذهب البندقى الأصفر الذي زنته ٤٥ مثقالا ، وكنتر
ششخانة^(٤٣) أبيض وترتر^(٤٤) »

فضة أبيض مثقالين ، وهو مبطن بالأطلس الساسي الأخضر ، ومركّب عليه



■ كيس مفتاح الكعبة المشرفة عام ١٩٢٥ ميلادية في عهد
الملك فؤاد ■

قبطانين بشراطين مصنوعتين من قصب ومخيش عقادى اصفر وكثير
ششخانة^(٤٤)

والكيس الموجود الآن بدار كسوة الكعبة المشرفة بالخرنفس مقلسه ٤٢ × ٥٥
سنتيمترا ، ومكتوب بالمخيش على أحد وجهيه الآية القرآنية الكريمة : « إن الله
يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وعلى الوجه الآخر مكتوب الآية القرآنية
الكريمة : « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » ، ومكتوب في اطار علوى
وسفلى خارجى عليه الاهداء : « صنع بالجمهورية العربية المتحدة في عهد الرئيس
(جمال عبدالناصر) ، ثم استبدل الاسم باسم الرئيس الراحل (انور
السادات) »^(٤٥)

والآية القرآنية الكريمة التى تكتب على كيس مفتاح الكعبة لها قصة . فقد رُدَّ
النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مفتاح الكعبة الى (عثمان بن طلحة) بعد
أن اخذه من (عمر بن الخطاب) وقال : « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة الى
يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم » ، ثم فُزلت الآية القرآنية الكريمة على الرسول
المصطفى الأمين . ومن ثم بقيت سدانة الكعبة من بعده في بنى شيبه الى اليوم^(٤٦)
ومن واقع مشاهدة صورتى كيس مفتاح باب الكعبة المشرفة في
عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية أيام الخديو (عباس حلمى الثانى)
وعام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية أيام الملك فؤاد الاول ، ومشاهدة آخر
كيس للكعبة المشرفة صنعته مصر عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ،
نستطيع ان نقرر ان زركشة هذا الكيس لم تختلف في كثير رغم اختلاف السنين ،
وكل ما حدث ان تم تبديل أسماء الحكام فقط ، مع بعض التغيرات الطفيفة في
الزركشة مثل استخدام شكل الوردية في زركشة الكيس أيام الخديو (عباس حلمى
الثانى) في حين تغير ذلك الى استخدام نقط مكانها في أيام الملك فؤاد وما تلاها من
سنين حتى آخر كيس في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية .

كسوة الكعبة الداخلية :

برغم الاهتمام الحائل من المؤرخين بكسوة الكعبة المشرفة الخارجية ، وبمن قام
بعملها على مدى التاريخ ، وحتى رصد الوانها وتغييراتها إلا ان كسوة الكعبة
الداخلية لم يتبعها احد من المهتمين ، ولا نعرف حتى الآن من هو اول من كسى
الكعبة المشرفة من الداخل .

واقدم تاريخ وقفنا عليه لكسوة الكعبة الداخلية ذكره الرحالة الاندلسي
(ابن جبير) أثناء تاديته لفريضة الحج خلال عام ٥٧٩ هجرية . قال
(ابن جبير) : « وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون »^(٤٧)
وفي عام ٦٥٩ هـ - قام ملك اليمن (المظفر يوسف بن المنصور) بكساء بيت الله
الحرام من الداخل والخارج بعد ان قُتل خليفة بغداد (المستعصم بالله)

العباسي^(٤٨) ولم يصف لنا أحد شكل هذه الكسوة اليمينية الداخلية للكعبة المشرفة ، ولم نستطع الوقوف على تفاصيلها ، كالشكل ، واللون ، وأسلوب الزركشة ، والكتابات التي عليها .

وأول كسوة للكعبة المشرفة من الداخل وجدنا لها بعض التفاصيل - فيما بين أيدينا من المصادر - هي الكسوة التي أرسلتها مصر إيام سلطنة (الناصر حسن ابن قلاوون) في عام ٧٦١ هجرية .

فيل عن هذه الكسوة المصرية أنها كانت تستر بطن الكعبة المشرفة ، ابتداء من سقفها حتى أرضها ، ولكن يبدو أن أحدا من سدنة الكعبة المشرفة كان يقطع منها بضعة أجزاء ليغرقها على من كانوا مغرمين بالقتاء قطع منها .

قال (الحافظ أبو الطيب الفاسي) (٧٧٥ - ٨٣٢) هجرية وهو ويصفها : « ويلغنى أنها كانت أطول من هذا بحيث تصل إلى الأرض ، وهي الآن سائرة بمقدار النصف الأعلى وسقفها ، وهي حرير أسود ، وفيها جامات^(٤٩) مزركشة بالذهب ،^(٥٠) »

وبالوقوف برهة عند هذا الأسلوب الفني في زركشة كسوة الكعبة المشرفة من الداخل نجد أنه أسلوب قديم ، وهو الاعتماد على وضع « الجامات » ، أو ما يسمى الآن بالكرديشات المزركشة بالخزاف ، سواء أكانت كتابية أو غير كتابية .

وإذا كان نفس المؤلف قد قال في نفس كتابه : « وفي سنة عشر وثمانمائة حدثت في جانب الكسوة الشرقي من الكعبة جامات منقوشة بالحرير الأبيض »^(٥١) فليس معنى ذلك أن بداية التفكير في وضع الجامات على كساء بيت الله الحرام قد بدأ في عام ٨١٠ هجرية ، كما قال المؤلف ، وإنما الصحيح الذي يستقيم مع المنطق والتاريخ هو أن هذا العلم المتأخر كان بداية لهذا النوع من الزركشة بالجامات للكسوة الخارجية التي صنعتها مصر - إذا صح التقدير ، ولم يغفل ذكر البداية الحقيقية المؤرخون - في حين كانت كسوة الباطن للكعبة المشرفة تحمل نفس هذا الأسلوب الفني من الزركشة بالجامات المزركشة أو ما يسمى الآن بالكرديشات ذات الزركشة المذهبة والمفضضة منذ عام ٧٦١ هجرية على الأقل .

والآكاف ، يستحدث ، شيء وقبل ذلك بنحو نصف قرن من الزمان كان موجودا على الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة^{١١٩}

ولم نعرف لون هذه الكسوة الداخلية ، لأنه لم يشر أحد من المؤرخين إلى ذلك ، وإنما أشار المؤرخون إلى لون كسوة الكعبة الداخلية التي عملتها مصر سنة ٨٢٥ هجرية ، إيام سلطنة السلطان المملوكي (الأشرف برسباي) وقالوا أنها كانت من الحرير الأحمر^(٥٢)

وظلت مصر تصنع كسوة الكعبة المشرفة من الداخل ، حتى عام ١١١٨ هجرية الموافق ١٧٠٦ م - حيث استأثرت بها الدولة العثمانية وحدها بعد أن شاركت مصر بضع سنين - عملها بحكم تبعية مصر لها بعد الغزو العثماني عام ٩٢٢ هجرية - الموافق ١٥١٧ ميلادية .

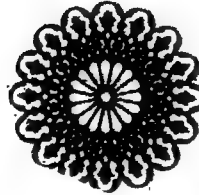


■ كسوة الكعبة المشرفة من الداخل التي ترجع الى عهد السلطان
العثماني عبدالعزيز خان ■

كانت زركشة كسوة الكعبة التي صنعتها تركيا إمام السلطان العثماني (سليمان القانوني) عام ٩٧٤ هجرية الموافق ١٥٦٦ ميلادية تأخذ شكل الزجراج العريض وداخله عبارة « لا إله إلا الله » ، وظهرت فيها وحدة زخرفية على شكل شجرة او وردة ذات ثلاث مستويات ، ثم تغير الشكل في القرن الحادي عشر الهجري الى زجراجين متكررين ، أولهما عريض كُتِبَ عليه : « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » ، ومتكررة في الشريط الواحد ، ثم يلي ذلك زجراج أقل في السمك ، كُتِبَ عليه : « اللهم صل وسلم على أشرف جميع الأنبياء والمرسلين » ، ثم يلي ذلك زجراج أقل في السمك مكتوب فيه : « ورضى الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي » ، وعلى الصحابة إجمعين . أما الشريط العريض من الزجراج الكبير ، فهو بنفس السمك الكبير ، ولكن تغيرت فيه الكتابة الى : « محمد حبيب الله ولا سواه » وكانت كسوة الكعبة المشرقة من الداخل حمراء اللون في عهد السلطان (عبدالعزيز خان) العثماني ، وكانت بنفس التقسيم ذي الزجراج ، وظهرت فيها بعض الزركشة بأشكال فنية ، مثل كلمة « يا حنَّان » في داخل شكل زخرفي في أعلا الزجراج الأصغر ، وكلمة « يا منَّان » في شكل معكوس للشكل الأول وتحت الزجراج الأصغر التالية للزجراج الكبير الأوسط .

وفي هذا الزجراج ظهرت عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » متكررة ، أما الزجراج الصغير العلوي فمكتوب فيه الآية القرآنية الشريفة : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » ، قول وجهك شطر المسجد الحرام . وتتكرر هذه الآية القرآنية بامتداد الزجراج ، أما الزجراج السفلي فمكتوب فيه : « سبحان الله العظيم » ، سبحان الله وبحمده ، وهكذا تتكرر هذه العبارات متبادلة بامتداد الزجراج نفسه .

□ □ □



الهوامش والمراجع

- (*) في الفارسية زركش الثوب المذهب أو الثوب تطرّز حواشيه بخيوط الذهب - ص ١٢٢ - «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»
- (١) الحزام : هو الشريط الذي عليه كتابة مزركشة ومزخرفة على الكسوة الشريفة .
- (٢) الكردشية : زخارف كتابية في شكل دائري له تكونه الخاص .
- (٣) المخيش : نوع من الخيوط السلكية الرفيعة والتي تم سحبها من الفضة الخالصة ، أو الملبسة بالذهب .
- (٤) البندقي : عيار ٩٩ ٪ وهو أنقى أنواع الذهب .
- (٥) رونكه وهي كلمة فارسية بمعنى اللون والصيغة ، وهي في الاصطلاح التاريخي بمعنى الشعارو (الأما) والبندرة - أنظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل» للدكتور/ أحمد السعيد سليمان - ص ١١٥ .
- (٦) الكمخ : الكتابة .
- (٧) هذه التفاصيل بياناتها من دار الكسوة بالخرنفش بالقاهرة .
- (٨) شُرَابَات : جمع شراية ، وهي مجموعة خيوط قصيرة مجمعة في شكل كروي وذات أطراف متفرقة من هذه الخيوط .
- (٩) الكنتير : نوع من خيوط المخيش .
- (١٠) المخيش العقادي الأصغر : نوع من الخوط ذي طلاء ذهبي بالذهب .
- (١١) شمسة مزركشة : هي شكل دائري شبه الشمس بأشعتها مزخرفة .
- (١٢) العتبة : هي الجزء العلوي من البرقع أو الجزء العلوي من ستارة باب الكعبة .
- (١٣) الطراز : هو الجزء الأوسط من البرقع أو الجزء الأوسط من ستارة باب الكعبة .
- (١٤) اللقائم الصغير : هو أيضا جزء أوسط ويلى الطراز ، أما اللقائم الكبير فهو الجزء السفلي من البرقع .
- (١٥) النوار : شريط منسوج من القطن يوضع على ملتقى العرضين .
- (١٦) المجاديل : هي أحبال لتعليق الكسوة في سملح الكعبة بعد أن يتم خياطتها بالجزء العلوي من الكسوة الشريفة ، وهي سميكة نوعا .
- (١٧) العصافير : هي أحبال من النوع الرفيع بغرض ربط الكسوة الشريفة في حلق التحاس المثبت في محيط الكعبة المشرفة العلوي .
- (١٨) المنقل يعادل ٤,٧٥ جرام .
- (١٩) سقق قطن : صغيرة من النسيج في أطرافها كرات .
- (٢٠) هذه التفاصيل بياناتها من دار الكسوة بالخرنفش بالقاهرة .
- (٢١) اللولبة / إبراهيم رفعت باشا «مرآة الحرمين» - ص ٢٩٦ ج ١ - دار المعرفة ببيروت - بدون تاريخ .
- (٢٢) المقریزی - «خطط المقریزی» - ص ٣٣٨ ج ١ - دار التحرير ١٩٦٧ .
- (٢٣) محمد صالح الشيبی «أعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام» ص ١٩٦ تحقيق اسماعيل أحمد اسماعيل حافظ - مطبوعات نادي مكة الثقافي ١٩٨٤ .
- (٢٤) د سعاد ماهر «النسيج الاسلامي» ص ٣٤ مطابع دار الشعب ١٩٧٧ .
- (٢٥) المرجع السابق - ص ٣٥ .
- (٢٦) المرجع السابق - ص ٣٦ .

- (٢٧) المرجع السابق - ص ٢٣ .
- (٢٨) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » ص ٨٥ - مقالة بمجلة الفنون الشعبية عدد (٢٩) اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩ - الهيئة العامة للكتاب .
- (٢٩) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٩٣ - ١ .
- (٣٠) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » ص ٨٥ .
- (٣١) بيدو غريباً من الخطاط عدم اكمال سورة المائدة وهو ذلك الحوار الذى دار بين الملكة (بلقيس) ورجال بلاطها ، وفيما نعتقد - وهذا مجرد ظن بلا سند - ان التكملة كانت موجودة فيما سبق من كسوى ، وغير ان احد سلاطين الدولة العثمانية ، وهو السلطان (سليمان بن سليم الأول) قام بهذا التغيير في عهده ، تيمنا بان الآية الاولى تحوى اسم (سليمان) والثانية تحمل دعاء بان يهب الله له (سلطاناً نصيراً) .
- (٣٢) شاهدنا بانفسنا هذا التغيير في الاسم على نفس الكسوة عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية والتي عادت من الحجاز في عهد الرئيس جمال عبدالناصر ، وقد لاحظنا على نفس الكسوة اسم الرئيس الراحل عبدالناصر ، وقد لاحظنا على نفس الكسوة اسم الرئيس الراحل انور السادات .
- (٣٣) قارن بين ستارة باب التوبة في عهد الملك فؤاد الأول سنة ١٩٣٠ وتلك الستارة للسلطان محمد خان الخامس - ص ٥٧٧ - ١ « مرآة الحرمين » لابراهيم رفعت باشا ، وهى شكل رقم ١٠٤ .
- (٣٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ٢٩٦ - ١ .
- (٣٥) الحافظ أبو الطيب القاسي « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ص ٢٠٢ - ١ .
- مكتبة النهضة الحديثة بمكة ودار احياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبي ١٩٥٦ .
- (٣٦) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٣ - ٣ - دار التحرير للطبع والنشر - كتاب التحرير رقم ١٦٨ .
- (٣٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٤٣ - ١ .
- (٣٨) المرجع السابق - ص ٢٤٧ - ١ ، ص ٥٧١ - ١ .
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٢٩٥ - ١ .
- (٤٠) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٧٩ - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بدون تاريخ .
- (٤١) السلسي : حرير جيد ينسب الى بلاد ساسان يارض العجم .
- (٤٢) كنتير ششخانة : هو خيوط من المخش ملفوفة في بعضها .
- (٤٣) الترتل : دوائر ملفوفة من وسطها .
- (٤٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ٢٩٦ - ١ .
- (٤٥) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » مجلة الفنون الشعبية - العدد (٢٩) ص ٨٨ .
- (٤٦) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٩٩ - ١ .
- (٤٧) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٧٢ .
- (٤٨) المقرئى « الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ص ٨٤ - تحقيق د . جمال الدين النشال - مكتبة الخانجي ١٩٥٥ ، عبدالملك بن حسين العصايمى المكي

« سبط التجووم العوائى فى انباء الاوائل والتوائى » ص ٢٢٢ ح ٤ - المكتبة السلفية بالروضة بالقاهرة - ١٣٨٠ هجرية .

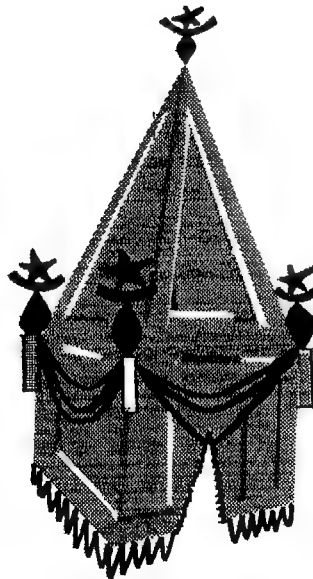
(٤٩) الجملة : كلمة فارسية بمعنى الرداء . انظر « تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى » من الدخيل ، للدكتور احمد السعيد سليمان - ص ٥٩ ، والمقصود بكلمة جملة هنا هى وضع قطع من القماش المزركش فوق كسوة الكتبة المشرفة ، على غرار الكردشيات السابق وصفها .

(٥٠) الحافظ أبى الطيب القاسم ، شفاء الغرام ، ص ١٢٣ ح ١ .

(٥١) المرجع السابق - ص ١٢٣ ح ١ .

(٥٢) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ٢٩٩ ح ١ .

□ □ □





مشوار كسوة الكعبة المشرفة عبر التاريخ

كسوة الكعبة المشرفة في الجاهلية :

قال الراوى في سيرة الملك (سيف بن ذى يزن) :
 « وبعد أن أظهر الوزير (يثرب) إيمانه للملك صار عنده
 أعز من أخوانه ، وزادت مرتبته .. وأقبل الليل بالظلام ،
 وطلبت العين حفظها من المنام ، وانصرف كل واحد منهم
 إلى مضاريبه والخيام ، فنام الملك في فراشه ، وغرق في
 منامه ، فرأى في ليلة هاتفا يقول له : ياذا يزن بقى عليك
 حلوة اسلامك وهو أن تكسو البيت الشريف فانت في بركته وبركة الطائفين به من
 مشرق الأرض إلى مغاربها . فلما أفاق من منامه ولذيد أحلامه طلب الوزير
 (يثرب) إليه فلما حضر بين يديه قص القصة التي جرت عليه فقال له الوزير :
 ياملك الزمان أفعل ما أمرت به فأجابه إلى ذلك وأمر بكسوة البيت خصفا وهى نوع
 من الثياب الغليظة - وولى النهار ، وأقبل الليل بالاعتكار ، ونام الملك ، فأتاه
 الهاتف وقال له : اكس البيت غير هذا فلما أفاق أمر بإحضار الوزير ، فلما حضر
 قص عليه الرؤيا فقال له الوزير : ياملك الزمان . أنت ملك الأرض في طولها وعرضها
 وهذا لا يليق به ولا يليق بمقامك ، فأمر الملك بالحرير ، وأمر الصنائع أن يشتغلوا
 في الكسوة وكساه وأتم أمره ثم نام تلك الليلة فأتاه الهاتف ثالث مرة ، وقال له
 اكس البيت غير ذلك ، فلما أفاق من منامه أمر بإحضار الوزير وقص عليه ما رأى
 فقال له الوزير : ياملك الزمان أفعل ما أمرت به فأمر بزرقة الكسوة بالخز
 والفضة والذهب ، ففعلوا ما أمر به الملك ، ورتب هذا على الملوك من بعده^(١)
 هكذا استطاع الأديب الشعبي المصرى أن يرصد ظاهرة الاحتفاء بكسوة الكعبة
 المشرفة في واحدة من أهم سيره الشعبية العربية ، ألا وهى سيرة الملك (سيف
 ابن ذى يزن) بل واستطاع كذلك أن يرصد ذلك التدرج في نوعية الكسوة المشرفة
 الذى حدث لها ، وذلك وفق ما رأى خياله في أحد أشكال إبداعات تعبيراته
 الشعبية .
 وتقول أحداث هذا السيرة الشعبية أن الملك الحميرى اليمنى (ذا يزن) هم
 يهدم الكعبة المشرفة ونقل حجارتها إلى بلده وإعادة بناء هيكلها باليمن لكي
 يتباهى بذلك بين سائر ملوك الأرض قاطبة ، غير أن الانتقام الإلهى منه جعله
 لا يستطيع أن يتم تنفيذ وسلوس النفس بالهدم ، حيث يردعه كلما هم بالهدم ،
 ويعرض مرارا وتكرارا ، ولم يكن هناك من مخرج من تلك الورطة سوى أن يغض
 الطرف عن هدم الكعبة المشرفة بل على العكس من ذلك ، يأمر بكسوتها على النحو
 الذى رآه في منامه .

وتلخص السيرة الشعبية (سيف بن ذى يزن) تلك الواقعة في ابيات شعرية تقول على لسان الملك (ذى يزن) وهو يبدى بها الندم ، فيقول^(١) :
لقد رمت هدم البيت والركن والحجر

فردنى الجبار بالقهر والقدر
عزمت مرارا مرة بعد مرة
على هدمه بغيا وقد مسنى الضرر

وقد جاعنى من بعد ذلك هاتف .
وقد كنت اسلمت على غم من كفر

وقال اكس هذا البيت ياذا بكسوة
فحللته خذاً وديباجا اشتهر

واقررت ان الله لا رب غيره
وان خليل الله بالحق قد امر

واذا كانت هي هكذا رؤية الفنان الشعبى فيما يخص كسوة الكعبة المشرفة ، في ابداع سيرة شعبية ، فاین هذا كله - والسؤال يفرض نفسه فرضا - من الواقع التاريخى الصحيح لمسيرة الانسان العربى والمسلم مع كساء بيت الله الحرام ؟ في الحقيقة لم يثبت للمؤرخين رأى قاطع واحد عن هو الشخص الذى كان اول من قام بكساء الكعبة المشرفة ، ولا عرف بيقين مؤكد لا يتزعزع متى تم ذلك في زمن من الأزمنة قبل الاسلام .

ولكن للحقيقة فقد انحصرت الآراء في بضعة افراد بالذات دون غيرهم فقالوا بذلك العمل الشرف الرفيع العظيم .

فمن هم هؤلاء ؟

روى (عبد الرازق) عن (ابن جريج) قال (« زعم بعض علمائنا ان اول من كسى الكعبة اسماعيل النبى عليه السلام »)^(٢) .

ويقال انه (عدنان بن أد) او (عدنان بن أد) فقد خاف ان يدرس الحرم فوضع انصابه ، فكان اول من وضعها ، واول من كسى الكعبة^(٣) . وكانت كسوته للكعبة المشرفة من الانطاع ، وهى عبارة عن قطع من الأديم او الجلد ، ولم يذكر أحد من المؤرخين ممن يؤيد ذلك متى تمت هذه الكسوة وإن أشار بعضهم الى نسب (عدنان بن أد) فهو على حد قول البلاذرى - حفيد سيدنا (اسماعيل بن ابراهيم) عليهما السلام - ويليهِ خمسة اجيال كاملة .

وقيل ان اول من كسا الكعبة هو تبع (اسعد أبو كرب) او (معان اسعد الحميرى) وقد روى في ذلك قصة تشبه في كثير من تفاصيلها ما حكاه الحكاء الشعبى في السيرة الشعبية (سيف بن ذى يزن) مع بعض التغيرات في الأشخاص والأحداث ، التى فرضها حكاء السيرة الشعبية ، وفق رؤيته ونسجه الفنى في ابداعه الخاص .

قال (الحافظ أبو الطيب الفاسي) : في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » عن هذا الملك : « لما أقبل تبع وهو (معان أسعد الحميري) ملك اليمن من الشرق ، وجعل المدينة - يثرب - على طريقه لقضاء وطر له بها ، ثم توجه منها الى مكة ، لأنها طريقه لبلده ، فلما كان بين أمج وعسفان ، لقيه نفر من هذيل من بنى لحيان ، فحسنوا له تخريب الكعبة ، وأن يبنى عنده بيتا يصرف اليه الحجيج ، فعزم على ذلك ، فدقت بهم دوابهم ، وغشيتهم ظلمة شديدة وريح ، فدعى أحبارا كانوا معه من أهل الكتاب ، فسألهم فقالوا : هل هممت لهذا البيت بسوء ؟ فأخبرهم بما قال له الهذليون وما أراد أن يفعل ، فقالوا له : ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك من معك ، هذا بيت الله لم يرد أحد بسوء الا هلك . قال : فما الحيلة ؟ قالوا : تنوئ له خيرا ان تعظمه وتكسوه وتنحصر عنده وتحش دوابهم اياما يتحر كل يوم مائة بدنة وكسا البيت »^(٥)

وروى عن (جعفر بن محمد) عن أبيه قال : « لما أقبل (تبع) يريد هدم البيت وصرف وجوه العرب الى اليمن فبات مريضا ، فأقبل وقد سألت عيناه على خديه ، فبعث الى الاحبار والسحرة والكهان والمنجمين ، فقال : ما لي ؟ فقالوا له : لقد بيت ليلتي وما أجد شيئا ، ثم صرت الى ما ترون ، فقالوا : لعلك حدثت نفسك لهذا البيت بسوء ؟ فقال : نعم . قالوا : فحدث نفسك ان تصنع به وباهله خيرا . ففعل وقد رجعت عيناه فارتد بصيرا ، وكسى البيت الخصف »^(٦) .

ويقال ان هذه الكسوة كانت من الخصف والمعافر والملاء والوصليل والعصب والمسوح والانطاع والبرود^(٧) .

ويقال كانت مدة هذه الكسوة للكعبة المشرفة قبل الهجرة النبوية بنحو ٢٢٠ سنة كما حدد ذلك التاريخ (العمري)^(٨) .

وهذه الكسوة التي قلم بها الملك الحميري لم يتفق أحد من المؤرخين على زمنها الحقيقي .

فكلا من (الحافظ أبي الطيب الفاسي) في كتابه (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) نقلا عن (العتبي) و (المسعودي) في كتابه (مروج الذهب) يذكر ان قصة الملك الحميري مع أول كسوة للكعبة المشرفة كانت قبل الاسلام بسبعمائة عام !^(٩)

وان صحت هذه القصة فنحن نرجح ان تكون وقائعها قد حدثت قبل الاسلام بنحو ما بين ٧٨ سنة الى ١٢١ سنة ، وسندنا في تحديد ذلك ما قد ورد في حادثة كساء الملك الحميري المعنى (أسعد أبو كرب) للكعبة المشرفة من بعض الأبيات الشعرية التي تحدد هذا التاريخ قائلا :

ورد الملك تبع وينوه
ورثوهم جدوهم والجدود
جينا من ظفار
ثم سرننا بها مسيرا بعيدا

فاستبحنا بالخيل ملك (قباز)
وابن اقلود جاعنا مصفودا
فكسونا البيت الذى حرم الله
ملاء مقصبا وبرودا
واقمنا به من الشهر عشرا
وجعلنا لبابه اقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا
وسجدنا عند المقام سجدودا
وخرجنا منه إلى حيث كنا
ورفعنا لواءنا معقودا

إذا فتاريخ هذه الكسوة يتفق مع فترة حكم الملك الساساني في فارس (قباز الأول) والذي تولى الحكم سنة ٤٨٨ ميلادية لمدة ثلاث واربعين سنة (١٠) . وقد قيل ان خلفاء الملك الحميري اليمنى (أسعد أبو كرب) قاموا كذلك بكساء بيت الله الحرام بالجلد والاقمشة ثم أخذ الناس يقدمون للكعبة المشرفة هدايا من الكسوى المختلفة فيلبسونها على بعضها ، فكان اذا بلى ثوب وضع عليه ثوب آخر ، وكانت قريش ترافد في كسوة البيت الحرام ، وذلك بان يقدروا بعضا من المال على القبائل بقدر احتمالها في عهد (قصي بن كلاب) حتى جاء (أبو ربيعة بن المغيرة المخزومي) وكان من الأثرياء فقال لقريش (« أنا اكسو الكعبة وحدي سنة ، وجميع قريش سنة » ، وظل يأتي بالحجر الجيدة من الجلد بأرض اليمن ، فيكسو الكعبة ، الى ان مات . فكانت قريش تلقبه بلقب « العدل » ، وذلك لأنه كان يعدل قريشا وحده في كسوة الكعبة المشرفة (١١) .

وروى (الواقدي) عن (النوار بنت مالك) أم (زيد بن ثابت) رضى الله عنهما - انها قالت : رأيت قبل أن الد زيدا على الكعبة مطارف خز اخضر ، واصفر ، وكرار - أى خيش رقيق - واكسية من اكسية الأعراب ، وشقاق شعر . كما روى (البخارى) عن أم المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) - رضى الله عنها - قالت : كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان ، وكان يوما تستر فيه الكعبة .

وقيل عن (ابن جريج) أن الكعبة كانت تكسى يوم عاشوراء اذا ذهب أخرجاج حتى كان بنو هاشم فكانوا يعلقون عليها القميص يوم التروية من الديباج لكى يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فاذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الأزار . وعن (عمر بن الحكم السلمي) قال : نذرت أمى بدنة تنحرها عند البيت ، وجللتها شقتين من شعر ووبر ، فنحرت البدنة ، وسترت الكعبة بالشقتين ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يومئذ بمكة لم يهاجر ، فنظرت الى البيت يومئذ

وعليه كسى شتى من وصائل وانطاع وكرار وخز ونمارق عراقية كل هذا قد رأيت عليه (١٢) .

وتعد (نتيلة بنت جناب) أم (العباس بن عبد المطلب) أول عربية قامت بكساء الكعبة المشرفة في الجاهلية . فيقال إنها ضل (العباس) منها وهو طفل صغير ، أو أخوه (ضرار) أو (خوار) فنذرت إن هي وجدت أنه تكسو الكعبة المشرفة ، فلما عثرت عليه قامت بكساء الكعبة وفاء بنذرهما (١٣) .

وروى (الفكهى) عن (جسره) ، قال : أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة في الجاهلية - وهي جمال تحمل العطر والحريز - فيها نمط من ديباج فارسيل به إلى الكعبة ، فنيط عليها - أى وضع عليها - فعلى هذا هو أول من كسا الكعبة الديباج (١٤) .

مما سبق يتبين لنا أن كسوة الكعبة المشرفة عبر التاريخ العربى لها مشوارها الحافل والهام ، الذى لا يمكن إغفاله بأى حال من الأحوال ، على الرغم من الدجى الدامس لالغاف الظلام في الجاهلية ، وقبل شروق نور فجر الاسلام على يد نبىه المصطفى الكريم صلوات الله عليه وسلامه .

فقد كان الاهتمام بكساء بيت الله الحرام يعد مفخرة إنسانية يتطلع إليها هؤلاء البشر ، ممن كانوا يطوفون بالبيت العتيق ، طلبا للغفران ، بصرف النظر عن كون الرسالة المحمدية لم يأت وقتها أو أن مبعثها ، أو كانت الرؤوس الضالة تسجد أمام جلايد أصنام شتى ، لا هى تنفع ، ولا هى تضر ، ولا هى حتى تملك من أمرها شيئا .

ففى أغوار تلك النفوس الطيبة كان غالبا ما يكمن ويستقر فى الوعى أن هذا البناء الشامخ ما هو إلا بيت الله المحرم ، ولذا وجب كسوته على من وجد فى طاقته القدرة ويستطيع أن يفعل .

أما وقد انبجج نور البعثة المحمدية ، فقد انتقلت كسوة الكعبة المشرفة من مرحلة هامة وحافلة إلى مرحلة أخرى أهم وأحفل ، وشتان ما بين المرحلتين ، مثلما هو شتان ما بين شيء فى الظلام ، وآخر فى روعة النور .. !

كسوة الكعبة المشرفة فى صدر الاسلام :

روى (البخارى) عن (عروة) يوم فتح مكة فى رمضان أن قال الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة » (١٥) .

وقد كان من الطبيعى ألا يشارك الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون فى كساء بيت الله الحرام قبل الفتح ، ذلك أن المشركين من قريش حالوا دون ذلك ، إلى أن تم فتح مكة فأبقى صلى الله عليه وسلم على كسوة الكعبة ، ولم يستبدلها ، حتى احترقت على يد امرأة كانت تريد تبخيرها ، فكساها الرسول صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية (١٦) .

وبعد النبي صلى الله عليه وسلم كساها خليفته (أبو بكر الصديق) ، ثم كساها (عمر ابن الخطاب) بالقماش المصرى المعروف باسم (القباطى) ، وكان يكتب إلى مصر لتحك له الكسوة فيها .

وكان (عمر بن الخطاب) ينزع الكسوة القديمة كل سنة ، ويفرقها على الحجاج لكي يستظلوا بها بعد وضعها على نوع من الأشجار بمكة اسمه السمر^(١٧) .

وقال (ابن اسحق) : بلغنى أن البيت لم يكس في عهدى (أبى بكر) ، ولا (عمر) ، بمعنى أنه لم يجدد له كسوة^(١٨) .

وقيل أنه في عهد (عمر بن الخطاب) وجد شيئا من الكسوة القديمة على حائض ، فأمر بحفر حفرة ، وألقى فيها الكسوة القديمة ، وأهل التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له أم المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) : إن ثياب الكعبة إذا نزع عنها لا يضرها من لبسها من حائض ، ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل ، فكان ما أشارت به (عائشة) رضى الله عنها^(١٩) .

وكان ذو النورين (عثمان بن عفان) أول من وضع من الخلفاء كسوتين على الكعبة المشرفة ، إحداهما فوق الأخرى ، وكانت إحداهما من البرود اليمانية^(٢٠) وكساها (عبدالله بن عمر بن الخطاب) ما كان يجلب به بدنه من قماش القباطى المصرى والحبرات والأنماط^(٢١) .

ويقال أن (ابن عمر) كان يكسو بدنه إذا أراد أن يحرم القباطى والحبر ، وفى رواية الأنماط ، فإذا كان يوم عرفة لبسها إياها ، وإذا كان يوم النحر نزعها ، ثم أرسل بها إلى (شيبه بن عثمان الحجبي) فطاطها على الكعبة قبل أن تكسى^(٢٢) .

في عهد بنى أمية :

كان (معاوية بن أبى سفيان) يكسو الكعبة المشرفة بكسوتين في العام . وكانت الكسوة الأولى من الديباج في يوم عاشوراء ، وأما الثانية فكانت من القماش المصرى (القباطى) في اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان^(٢٣) .

ويقال أن (شيبه بن عثمان الحجبي) قد كتب إلى (معاوية بن أبى سفيان) في أمر تراكم أكسية الكعبة فوق بعضها البعض ، فقال : لو طرح عنها ما عليها من كسى الجاهلية ، فخفف عنها حتى لا يكون مما مشه المشركون شيء لتجاستهم ؟ فأمره أن يجرد الكعبة المشرفة مما عليها من كساو ، ويخلفها بالطيب ، ويلبسها ما جهزه إليها من ديباج وقباطى وحبرة . ففعل ، وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة ، وكان (ابن عباس) - رضى الله عنهما - حاضرا في المسجد الحرام وهم يجردونها فما انكر ذلك ولا كرهه^(٢٤) .

ثم كساها (يزيد بن معاوية بن أبى سفيان) الديباج الخسروانى ، كذلك فعل

(ابن الزبير) ، فقد كان يبعث إلى أخيه (مصعب) ليرسل إليه الكسوة كل سنة . وربما كساها به كذلك (الحجاج بن يوسف الثقفي) ، ولعله فعل ذلك تكفيرا عما اتاه من رميها بالمنجنيق في قتله (ابن الزبير) وهو معتصم بها . وكساها بالديباج أيضا الخليفة (عبد الملك بن مروان) . فقد كان يبعث به من الشام ، فيمر به وعلى المدينة ، فينشئ يوما في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم على الأساطين في مؤخر المسجد ، ثم يطوى ويبعث به إلى مكة .^(٢٥) وقد كساها الخليفة (هشام بن عبد الملك) ديباجا من النوع الغليظ . وقال (الماوردي) : وكساها بنو أمية في بعض أيامهم الحل التي كانت على أهل (نجران) في جزيتهم ، والديباج من فوقها .

في عهد الدولة العباسية :

لم يهتم خلفاء الدولة العباسية في بداية عهد التأسيس بكساء بيت الله الحرام ، نظرا لكثرة القلاقل ، بل كان منهم من يريد أن يبني في بغداد نموذجا لصرف الأنظار إليه أطلقوا عليه (القبة الخضراء) ، وذلك في عهد الخليفة العباسي الثاني (أبو جعفر المنصور) ، وكان ما قاساه هذا الخليفة من عواقب إهماله الحرمين عبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنه (المهدي) أمر الخلافة من بعده قام بكساء الكعبة المشرفة كسوة جديدة .^(٢٦)

هذه الكسوة ذكرها (المقرئ) في خططه ، نقلا عن (الفاكهي) في كتابه (أخبار مكة) ، حيث أخبرنا أنها كانت في عام ١٥٩ هـ ، في حين ذكرها (النويري) في كتابه (نهاية الأرب) بأنها كانت في عام ١٦٠ هـ .

فعند (المقرئ) قال نقلا عن (الفاكهي) الذي قاله : ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع في طراز (تنيس) كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عاملة سنة تسع وخمسين ومائة »^(٢٧) .

أما عند (النويري) فقد ذكر ضمن أحداث عام ١٦٠ هجرية أنه : حج (المهدي) في هذه السنة بالناس ، وفيها نزع المهدي كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة ، وكان سبب نزعها أن حجة الكعبة ذكروا له أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم ، لكثرة ما عليها من الكسوة فنزعها ، وكانت كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين ، وما قبلها من عمل اليمن .^(٢٨)

وكانت هناك كسوة أخرى صنعها الخليفة العباسي (المهدي) في عام ١٦٢ هجرية أتى بها من مصر ..

قال (المقرئ) عن هذه الكسوة نقلا عن (الفاكهي) قال : « ورأيت كسوة من كسا المهدي مكتوبا عليها بسم الله ، بركة من الله لعبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، مما أمر به اسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس ، على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة »^(٢٩) .

ورأى (الفلكي) كسوتين من اكسية الخليفة العباسي (هارون الرشيد) في عامي ١٩٠ ، ١٩١ هجرية .

قال عن الأولى : ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد ، من قباطى مصر ، مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هارون أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز ثونة سنة تسعين ومائة (٣٠) »

أما عن الثانية فقال (الفلكي) : رأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر ، مكتوبا عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبدالله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطا ، كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة (٣١) »

وقال (الفلكي) : « ورأيت كسوة مما يلي الركن الغربى - يعنى من الكعبة - مكتوبا عليها : « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بإمر الفضل بن سهل ذى الرياستين ومطهر بن الحسين ، ستة سبع وتسعين ومائة (٣٢) »

وفي عهد الخليفة العباسي (المأمون بن هارون الرشيد) أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات كل سنة ، فتكسى الديباج الأحمر يوم التروية ، وتكسى القباطى أول رجب ، وتكسى الديباج الأبيض في عيد رمضان (٣٣) .

ثم استمر الأمر على ذلك ، ثم اقتصر إلى أن الأزار الذى تكسى به الكعبة في عاشوراء ، ويلصق بالديباج الأحمر الذى تكسى به يوم التروية لا يفى إلى تمام السنة ، وأنه يحتاج إلى أن يجدد لها إزار على عيد رمضان ، مع قميص الديباج الأبيض الذى تكسى به في العيد ، فأمر أن تكسى إزارا آخر باخر عيد رمضان (٣٤) .

وفي خلال القلاقل التى نشبت في هذا العصر نجد أن (أبا السرايا السرى بن منصور الشيبانى) قد بعث (الحسين ابن الحسن الأفطس) إلى مكة في سنة تسع وتسعين ومائة لما ظهر أمره ، فدخل مكة ، فلما كان في المحرم من هذه السنة نزع الحسين كسوة الكعبة ، وكساها كسوة أخرى كان قد أنفذها (أبو السرايا) من الكوفة من القرن (٣٥) .

وفي عهد (المأمون) شاهد (الفلكي) كسوة للكعبة المشرفة ، قال عنها : ورأيت شقة من قباطى مصر في وسطها ، إلا أنهم كتبوا في لركان البيت بخط دقيق اسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومئتين . » (٣٦) .

وفي سنة ٢٤٠ هـ رفع إلى الخليفة العباسي (جعفر المتوكل على الله) أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل هلال رجب من مس التمس وتمسحهم بالكعبة ، فزادها إزارين مع الأزار الأول ، فأزال قميصها الديباج الأحمر واسبله حتى بلغ الأرض ، ثم جعل الأزار فوقه ، في كل شهرين إزار .

ثم نظر الحجة فإذا الأزار الثاني لا يحتاج إليه ، فوضع في تابوت الكعبة ، وكتبوا إلى (المتوكل) أنه يكفي إزار واحد مع ما أذيل من قميصها ، فصار بيعت بإزار واحد ، فتكسى به بعد ثلاثة أشهر ، ويكون الذيل ثلاثة أشهر . ثم في سنة ٢٤٣ هجرية أمر (المتوكل) بإزالة القميص القباطي حتى بلغ الشاذوران الذي تحت الكعبة .

قال (الماوردي) : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباج ، وقد عدت الكساوى التي كست بها الكعبة من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٢٤٤ فإذا هي ١٧٠ ثوبا^(٣٧) ومن أكثر أكسية الكعبة المشرفة في العصر العباسي وصفا وإسهابا عند من شاهدها كانت تلك الكسوة التي وصفها الرحالة العربي الأندلسي (ابن جبير) خلال حجه في عام ٥٧٩ هجرية ، حيث تناولها بالوصف البقوي في ثلاث مواضع من كتاباته عن رحلاته الشهيرة .

لقد وصفها في المرة الأولى ، فقال : « وظاهر الكعبة كلها ، من الأربعة جوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة » الآية ، وإسم الامام الناصر لدين الله في سعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها . قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي تمطره أشكال محاريب رائقة ، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالدعاء للناصر العباسي المذكور الأمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا ، وفي الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر ، وفي الصفحين الصغيرين ستة عشر ، وله خمسة مضوى ، وعليها زجاج عراقي بديع النقش ، أحدها في وسط السقف ، ومع كل ركن مضوى . والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة ، وإحداها من ذهب »^(٣٨) ووصفها في المرة الثانية ، فقال : « وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه ، وهي أربع وثلاثون شقة في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع ، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضا ، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمانى أيضا . قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب » .

وقد احاط بها من أسفلها تكيف مبني بالجص ، في ارتفاعه أزيد من شبر ، وفي سعته شبران أو أزيد قليلا ، في داخله خشب غير ظاهر ، وقد سمعت فيه أوتاد حديد في رؤوسها حلقات حديد ظاهرة ، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مقلول ، واستدار بالجوانب الأربعة ، بعد أن وضع في أذيل الستور شبه حجز السراويلات ، وأدخل فيها ذلك المرس ، وخيط عليه بخيوط من القطن المقلولة الوثيقة ، ومجتمع الستور في الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة ، ثم منها إلى أعلاها تتصل بعري من حديد تدخل بعضها في بعض » .

« واستدار أيضا بأعلاها ، على جوانب السطح ، تكيف ثان ، وقعت فيه أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة ، فجاءت الكسوة المباركة مخططة الأعلى والأسفل ، وثيقة الأزرار ، لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها . فسبحان من خلدها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه »^(٣٩)

وفي المرة الأخيرة وصف (ابن جبير) كسوة الكعبة المشرفة ، فقال : « وفي يوم السبت ، يوم النحر المذكور ، سيقّت كسوة الكعبة المقدسة ، من محلة الأمير العراقي إلى مكة ، على أربعة جمال . تقدمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السوداوية ، والرايات على رأسه ، والطبول تهر. وراءه . »

« فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان يوم الثلاثاء ، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنا ، في أعلاها رسم أحمر واسع ، مكتوب فيه في الصفح الموجه إلى المقام الكريم - حيث الباب المكرم - وهو وجهها المبارك ، بعد البسمة : « إن أول بيت وضع للناس ، الآية ، وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صفار بيض ، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضا . »

« فكملت كسوتها ، وشمرت أذيالها الكريمة ، صونا لها من أيدى الأعاجم وشدة اجتذابها ، وقوة تهافتها عليها وانكبابها ، فلاح للناظرين منها أجمل منظر ، كأنها عروس جلّيت في السندس الأخضر . أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها ، حريص على المثول بفنائها ، بمنه »^(٤٠)

وعند أفول نجم الدولة العباسية كانت ستائر كسوة الكعبة المشرفة وهي تصارع تقلبات الأجواء من حولها بمثابة قراءة في عالم الغيب لتاريخ دولة تلفظ النفس الأخير من عمرها .

قال (ابن إياس) عن تلك الفترة التي انحصرت ما بين عامي ٦٤٨ و ٦٥٥ هجرية . إبان سلطنة الملك المعز (عز الدين أيبك التركمانى) على مصر يؤيد ذلك الاعتقاد في عالم قراءة التواريخ الغيبية للدول ، ما نصه :

« ومن الحوادث في أيام الملك المعز (عز الدين أيبك) ، أن في أوائل دولته ، جاءت الأخبار من مكة ، أن في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، قام بمكة أرياح عاصفة عظيمة ، فزقت أستار الكعبة الشريفة ، فما سكن الريح إلا والكعبة عريانة ، وزال عنها الكسوة السوداء ، ومكثت واحد وعشرين يوما ليس عليها كسوة ، وكان هذا حالا لزوال دولة بنى العباس ، فما عن قريب حتى جاء هولاكو ، وأخرب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وزالت دولة بنى العباس من بغداد »^(٤١)

ومع انتهاء دولة بنى العباس انتهى تقريبا دورها الحضارى في كساء الكعبة

المشرقة ، وبدأت دول أخرى تنافسها هذا الشرف العظيم ، من المشرق ومن المغرب ، وخاصة مصر التي ظهرت قوتها تبرغ إلى الوجود وتنفصل عن التبعية للدولة العباسية ، ويصبح لها الكيان المستقل المنفرد .

ولقد كان لعصر الدولة العباسية تأثيره الكبير والبعيد في تحديد وتطوير شكل كسوة الكعبة المشرفة ، سواء من ناحية النسيج أو من ناحية اللون والذي تغير كثيرا فيما قبل مجيء دولة بني العباس .

وهذا الدور الذي لعبه العباسيون في تطوير صناعة النسيج أنتج أنواعا متعددة من المنسوجات التي تم نسجها في دور الطراز الخاصة ، وكذلك دور الطراز العامة في مدينة السلام ، وغيرها من مراكز النسيج الخاصة بدولة بني العباس ، وكذلك كان لدور الطراز في بغداد أهمية كبرى في ذلك ..

وبأخر كسوة عباسية للخليفة الناصر تحددت الألوان لكساء بيت الله الحرام في اللون الأسود ، واستمر ذلك من بعد ، إلى أن انقرضت الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هجرية ، وظهرت قوى جديدة ودول أخرى ورثت دورها ، فقامت به على النحو الذي سنراه .

كسوة الكعبة المشرفة في عهد الدولة الفاطمية (٤٢)

على الرغم من أن أمر كساء الكعبة المشرفة لم يقم به الإمام (علي بن أبي طالب) ، نظرا للقلاقل العديدة التي عرضت لفترة خلافته ولم تمكنه من أداء ذلك ، إلا أن الدولة الفاطمية المتشعبة للإمام (علي بن أبي طالب) وآله حظيت في فترات عدة بالاهتمام بكساء بيت الله الحرام .

فقد حكى (المؤيد) صاحب حماه في تاريخه أن الفاطميين في عهد خليفتهم الثاني (العزيز بالله بن المعز لدين الله) ، في إمارة (أبي الحسن جعفر) من المسلمين على مكة في سنة ٣٨١ هجرية قد كسوا الكعبة المشرفة بكسوة بيضاء اللون (٤٣)

وقال (المسبجى) في حوادث سنة ٣٨٤ هجرية : وفي ذى القعدة ورد (يحيى بن اليمان) من تنيس ودمياط والفرا بهديته ، وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال ، وخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظل وكسوتان للكعبة (٤٤)

وقال (ابن أبياس) ضمن حوادث سنة ٣٨٧ هجرية في عهد (الحاكم بأمر الله) الفاطمي : « إن جماعة من العربان وثبوا على كسوة الكعبة وانتهبوها جميعا ، فكسيت الكعبة في تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من الغرائب ، فإن الكعبة ما كسيت شنفاص قط إلا في زمن الحاكم (٤٥)

ولم يذكر لنا (ابن أبياس) عن هؤلاء العربان شيئا عن كونهم من المصريين أو من غير المصريين ، وإن كان قد أثبت لنا في التاريخ أثرا حميدا قام به الخليفة الفاطمي .

ولم تكن هذه الكسوة هي الكسوة الوحيدة التي أرسلها هذا الخليفة الفاطمي لكساء بيت الله الحرام ، فقد ذكر (الحافظ أبو الطيب الفاسي) في كتابه « شفاء الغرام بإخبار البلد الحرام » أن (الحاكم بأمر الله) الفاطمي بعث بكسوة للكعبة المشرفة في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة^(٤٦) وفي سنة ٤٢٣ هجرية بعث الخليفة الفاطمي (الظاهر لأعزاز دين الله) بكسوة للكعبة المشرفة^(٤٧) .

وخلال الفترة التي بين سنتي ٤٣٧ و ٤٤٤ هجرية زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) في رحلاته كل من سوريا وفلسطين والحجاز ، وعابن بنفسه الكسوة التي كانت على الكعبة المشرفة ، ووصفها قائلا : « كانت الكعبة مضاعة بأربع شبابيك موضوعة في الزوايا الأربع ، ومغشاه بزجاج شفاف ، ليمنع المطر من أن يتخلل الكعبة . أما الكسوة فكانت بيضاء عليها شريطان بغير ذراع ، وارتفاع الكسوة بين الشريطين نحو عشرة أذرع ، وفوق وتحت هذان الشريطين توجد أجزاء بنفس السمك والمقاس ، وبهذا الوضع بدت الكعبة كأنها مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أذرع تقريبا وفق تقديري الشخصي ، وعلى وجوه الكسوة الأربع رايت محاريب تم نسجها بالحريز الملون ، وعليها زركشة بالخيوط الذهبية بالقصب . وعلى كل واجهة توجد محاريب مزركشة ، ويبدو أن المحراب الأوسط هو الأكبر ، أما الاثنان الآخران فمقاسهما أقل من الأوسط ، وكان عدد المحاريب المرسومة على الأجناب الأربعة كلها يبلغ اثني عشر محرابا . »^(٤٨)

وفي عهد الدولة الفاطمية وصلت إلى الكعبة المشرفة كسوى لها من جهات أخرى غير بغداد والقاهرة ، مثل صنعاء وبلاد العجم أو مراکش . ففي عام ٤٥٥ ذكر لنا (ابن تغرى بردى) عن كسوة للكعبة المشرفة من اليمن ، فقال : « دخل الصليحي إلى مكة ، واستعمل الجميل مع أهلها ، وأظهر العدل والاحسان ، وطابت قلوب الناس له ، وكسا البيت الحرام بثياب بيض »^(٤٩)

ولم تكن هذه الكسوة اليمنية لتمثل غير اليمن ، بعد أن أزال (الصليحي) قوة وسلطان قبضة الدولة العباسية على اليمن ، وانتمى إلى الحاكم الفاطمي في مصر الخليفة (المستنصر بالله معد) ، وخطب باسمه في المساجد اليمنية ودعا للخليفة الفاطمي في هذه المساجد .

وذكر (ابن الصلابي) ضمن حوادث عام ٤٦٦ هجرية أنه : « ورد إلى مكة إنسان أعجمي يعرف بسلار من جهة جلال الدولة ملكشاه ، ودخل وهو على بغله بمركب ذهب ، وعلى رأسه عملة سوداء ، وبين يديه الطبول والبوقات ، ومعه للبيت كسوة ديباج أصفر ، وعليها اسم محمود بن سبكتكين ، وهي من استعماله ، وكانت مودعة بنيسابور من عهد محمود بن سبكتكين عند إنسان يعرف بابي القاسم الدهقان ، فأخذهما الوزير نظام الملك منه وأنفذهما مع المذكور . »^(٥٠)

وكسا الكعبة المشرفة في نفس العام (أبو النصر الاسترابادى) كسوة بيضاء من عمل الهند ، وكساها الحبرات وغيرها الشيخ (أبو القاسم رامشت) صاحب الرباط بالمغرب وذلك في سنة ٥٣٢ هجرية ، وكانت كسوته بثمانية عشر ألف دينار مصرية على ما قال (ابن الأثير) ، وقيل : بأربعة آلاف دينار ^(٥١) وهناك بعض المصادر الأخرى قد ذكرت أن (أبا القاسم رامشت هذا من تجار الفرس الأثرياء ، وقد قام بكساء الكعبة المشرفة في هذه السنة عندما انقطع إرسال كسوة الكعبة المشرفة بسبب خلافات نشبت بين الملوك السلجوقية ، فأرسل للكعبة الحبرات وكل ما وجد إليه السبيل ، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية ^(٥٢))

وقد ذكر المؤرخون أن الكعبة المشرفة قد عريت من كسوتها سنة ٦٤٢ هجرية لتقطع كسوتها من ريح شديدة ، فأراد الملك (المنصور) وهو صاحب اليمن أن يكسوها ، فقال له شيخ الحرم : لا يكون هذا إلا من جهة الديوان العزيز - يعنى الخليفة العباسى - ولم يكن عند شيخ الحرم شيء ، فلأجل ذلك اقترض ثلاثمائة مثقالا ، واشترى بها ثيابا بيضاء وصبغها بالسواد ، وركب عليها الطراز القديم الذى كان في كسوة الكعبة المشرفة ، وكساها بذلك ^(٥٣) .

وقد أعاد ابنه الملك المظفر (يوسف بن المنصور) طلب أبيه في أن يكسو الكعبة المشرفة في سنة ٦٥٩ هجرية ، وكانت مصر قد كسرت شوكة التتار في هجمتها الشرسة التى محت سلطان الدولة في بغداد . فذهب الملك اليمنى إلى الحجاز ، « فلما قارب مكة خرج عنها الشريفان (إدريس بن قتادة) و (أبو نمنى بن أبى سعد) خوفا منه ، ثم دخل مكة في عساكره وجنوده ملبيا ، خاشعا ، متضرعا ، عارى الرأس والجنب ، حتى قضى حق الطواف ، ثم تقدمت العساكر والجيوش فحصدت في الحجون ، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة ، فوقف عند الصخرات ، وطلعت أعلامه وأعلام صاحب مصر مضمومة ، فقال له الأمير (عز الدين بن الامام) : هلا اطلعت أعلامك قبل أعلام المصريين ؟ فقال : أترانى أخفى أعلام من كسر ملك التتار وعساكره بالأمس وأقدم أعلامى لأجل حضورى وغيبته ؟ لا أفعل هذا أبدا ، وكسا الكعبة الشريفة ، ولم يكسها ملك قبله بعد الخلفاء العباسيين ببغداد ، واستمر يكسوها سنين مع قلوب مصر ، وإنما يجعل كسوته على الكعبة بعد سفر الحاج المصرى من مكة مراعاة لصاحب مصر ، وانفرد بكسوتها في بعض السنين . ^(٥٤) »

ثم جاء عصر انفراد مصر بكسوة الكعبة المشرفة وهو العصر المملوكى .



كسوة الكعبة في عصر سلاطين المماليك: (٥٥)

امتدت فترة الحكم المملوكي نحو ثلاثة قرون إلا ربعا ، وهي فترة - بلا شك - طويلة تقارب فترة حكم الفاطميين لمصر وتزيد عليها بخمس سنين ، لكنها كثيرة وحافلة عنها فيما يخص حوادث التاريخ التي تطوف حول كساء بيت الله الحرام . مع الانقراض الأول لهذا العصر نذكر أن ملك اليمن (المظفر يوسف ابن المنصور) في سنة ٦٥٩ هجرية حج إلى الكعبة المشرفة بحرا ، وكساها من داخلها ، ونثر عليها الذهب والفضة ، وعمل لها بابا وقفلا ، ثم ودع الكعبة المشرفة والدموع ملء عينيه إلى بلاده .^(٥٦)

كانت هذه الكسوة هي الأولى والأخيرة التي يرسلها أحد من غير مصر في عصر سلاطين المماليك .

كانت الرؤوس كلها تتطلع إلى المظفر بكساء بيت الله الحرام ، من اليمن والعراق ، بل ومن بلاد فارس والدولة العثمانية الناشئة في القوة والتكوين ، لكن هذا التطلع يعد شيئا والواقع شيء آخر .

فلم تكن مصر لترضى أن ينال أحد هذا الشرف سواها ، حتى وإن شرعت في وجهها أسنة رماح أو قتلت عضلات ..

في عام ٧٥١ هجرية أراد الملك اليمني (المجاهد) أن ينزع كسوة الكعبة المصرية ويكسوها كسوة من عنده باسمه ، فلما علم بذلك أمير مكة أخبر المصريين ، فقبضوا عليه ، وفي ذلك قال مؤذن الكعبة شعرا :^(٥٧)

يا راقد الليل مسرورا باوله .. إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
فإن أمنت بلبس طالب أوله .. قرب آخر ليل أجج النارا

وتأججت النار بالفعل فوق جبل عرفات في حرب ضروس بين المصريين وأهل اليمن ، ولم تخمد إلا وملك اليمن مصفاً في الحديد المصري ، وأتى به إلى القاهرة مكبلا ..

وحينما عاد أمير الحج المصري إلى القاهرة ذهب لمقابلة السلطان (المنصور حسن بن قلاوون) بالقلعة ليطلع على نتائج الأمور .

يقول (ابن أبيس) شارحا ما تم في هذه الحادثة : .. فلما طلع إلى القلعة ، عرض على السلطان الملك المجاهد ، صاحب اليمن ، فلما عثر بين يدي السلطان أمر بترق قيوده ، وأطلقه ، ورسم له بالعود إلى بلاده ، ثم أن السلطان أرسل معه الأمير قشتمر المنصوري ، أحد الأمراء العشرات ، ليوصله إلى مكة ، فلما خرج من مصر ، ووصل إلى ينبع ، وثب هناك ، ومن معه من جماعته على الأمير قشتمر ، الذي خرج صحبته ، وأراد قتله ، فلما جرى ذلك ، قبض أمير ينبع على الملك المجاهد ، ووضع في الحديد ، وسلمه إلى الأمير قشتمر ، فرجع به إلى القاهرة .

فلما علم السلطان بذلك تغير خاطره على الملك المجاهد ، وأرسله وهو مقيد الى ثغر الاسكندرية ، واحتاط على موجوده « (٥٨) »

وعلى الرغم من واد المصريين لرغبات ملك اليمن في كساء بيت الله الحرام إلا أن تلك الرغبة ظلت حبيسة في صدور حكام اليمن ، يتمنون تلك اللحظة التي تواتيهم لتحقيق رغبتهم وأمنيتهم الغالية .

ولما جاءت هذه اللحظة كان قد مرّ نحو نصف قرن انتظرها اليمنيون بفارغ الصبر ، ففي عام ٩٨٠ هجرية : « كان أمير الحاج المصري بهادر وصحبته أمير مجلس والأمير قره دمرداش الأحمدى ، ولما وصل الحاج الى مكة بلغهم قدوم محمل اليمن وكسوة الكعبة ، جهّز ذلك صاحب اليمن اسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد ، فمنع الأمير قره دمرداش الأحمدى المحمل من الدخول وحجاج اليمن » (٥٩)

وعادت الكسوة اليمنية الى جبال اليمن ، وماتت تطلعات اليمنيين في كساء بيت الله الحرام الى الأبد .

وفي الحقيقة لم تكن آمال اليمنيين تشرئب وحدها في المنطقة العربية . أو الاسلامية ، بل كانت هناك رعوس تحلم بمثل هذا الشرف الرفيع كما قلنا من قبل .

ففي عام ٧١٨ هجرية نست بغداد انها لم تعد عاصمة الخلافة الاسلامية ، ولم تع الخريطة السياسية الجديدة للمنطقة العربية بعد اندحارها أمام التتر وبزوغ نجم عصر جديد سطع في مصر على أيدي المماليك . في هذا العام قدم من العراق محمل الى مكة وكسوة للكعبة العراقية ، فلم يُمكنوا من الكسوة (٦٠)

ولم يذكر لنا رواية التاريخ من هؤلاء الذين لم يمكنوا العراقيين من وضع كسوة الكعبة على جدرانها ، هل هم المصريون أو أهل الحجاز ؟ وإن كان سياق حوادث التاريخ تمكننا من ان نستنتج أن السيوف المصرية كان لها الدور الكبير في توجيه دفعة الأمور وحسم الخلاف !..

نفس الحدث تكرر مرة أخرى في عصر سلاطين المماليك ، ولكن بعد نحو ستين عاما من الحادثة الأولى !..

يقول (ابن اياس) في حوادث شهر ذى الحجة ٨٧٧ هجرية : « وفيه وصل مبشر الحاج - وهو الرسول الذى يسبق مجيء قافلة الحج للأطمئنان على أحوال الحجاج - واخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل الى المدينة الشريفة ، كان أمير ركبهم شخصا يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن دحية ، فضيقوا على قضاة المدينة ، وأمروهم بأن يخطبوا في المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل ، خدام الحرمين الشريفين ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج اليهم الشريف

محمد بن بركات ولاقاهم من بطن مرو ، قبل أن يدخلوا الى مكة وقبض على رستم امير ركب الحمل العراقي ، وقبض على القاضي الذي صحبته ، وعلى جماعة من اعيانهم ، وادعاهم في الحديد ليعث بهم الى السلطان ، ثم اطلق بقية من كان في ركبهم من الحجاج ولم يتعرض لهم «^(٦١)»

وحينما عاد ركب الحجاج الى القاهرة ، احضروا صحبتهم رستم امير الحاج العراقي ، والقاضي الذي بعث بهما حسن الطويل ، وصحبتهما كسوة للكعبة ، وامر اهل المدينة ومكة ان يخطبا فيهما باسم الملك العادل حسن الطويل ، فرسم السلطان بسجن رستم والقاضي في البرج الذي بالقلعة ، فسجنا «^(٦٢)» ومن بلاد فارس برزت مطامع او مطامح ملكها في كساء بيت الله الحرام ، والظفر بذلك الشرف الرفيع من بين انياب سلاطين العصر المملوكي ، ولم تكن تلك المطامع او المطامح قد حدثت ذات مرة وانتهى الامر ، وانما كانت الامور يصحبها الالاحاح في الطلب والاستئذان دون فرض سياسة القوة الجبرية وانفثال العضلات .

في شهر المحرم سنة ٨٣٨ هجرية كانت قافلة الحج المصري قد عادت الى القاهرة تحمل اخبارا لا تسر عدوا او حبيبا ، فقد غمر مكة السيل العرم ، وحدث بسقف الكعبة المشرفة ثقباً .

في اثناء ذلك وفد الى القاهرة رسول (شاه روخ) ملك العجم بهدية او هدايا للسلطان المملوكي الاشرف برسباي ، منها - كما يروى ابن اياس - « نحوا من ثمانين شقة اطلس مقصَّب ، وائف قطعة من الفيروز والبلخش ، فقوم ذلك بثلاثة آلاف دينار ، وحضر صحبة القاصد - اى الرسول - كسوة للكعبة ، وسال الاذن في قبول ذلك »^(٦٣)

استطاع ملك العجم (شاه روخ) وهو ابن (تيمورلنك) ان ينفذ باب وبثقل الهدايا التي تذهب بالعقول ، ويبدو ان العقول قد ذهب بعضها ، ولم يستطع السلطان (الاشرف برسباي) ان يتخذ قرارا حاسما في مسألة قبول او رفض ان يقوم احد من غير الممالك في مصر بكساء بيت الله الحرام ، وحينما حار عقل السلطان وضرب اخماسا في اسداس طلب المشورة ، على الرغم من تلك الهدايا التي تزغلل العيون ..

قال (ابن اياس) في حوادث شهر صفر سنة ٨٣٨ هجرية : « وفيه رسم السلطان بعقد مجلس في القصر ، فاجتمع به القضاة الاربعة ، وسبب ذلك ان قاصد شاه روخ احضر كسوة للكعبة المشرفة ، وذكر انه نذر بذلك ، فاستفتى السلطان في هذا الامر القضاة الاربعة ، فلما طال بينهم الجدل ، اجاب قاضي القضاة بدر الدين العيني بان نذره لا ينعقد ، واجاب العلامة ابن حجر بان ذلك لا يجوز إلا لمن يكون ناظرا على الحرمين الشريفين ، وطال الكلام في ذلك ، وانفض المجلس على جواب البدر العيني »^(٦٤)

كان رسل او قصائد ملك العجم (شاه روخ بن تيمورلنك) في انتظار رد السلطان ، وكانوا موقنين ان السلطان المملوكي لن يصمد طويلا امام النقائص التي يعث بها ملكهم اليه على سبيل الرشوة المقنعة ، لكنهم صدمتهم ردود السلطان .

يقول (ابن ايس) : « وفيه عاد قصائد شاه روخ اليه ، وكتب له الجواب عن كسوة الكعبة المشرفة التي ارسلها ، بان العادة القديمة جرت بان الكعبة المشرفة لا تكتسى إلا ممن يكون ناكثا على الحرمين الشريفين ، وودّ عليه الجواب بذلك ، والهدية التي ارسلها ، وكسوة الكعبة المشرفة ، ورجع من غير طائل »^(٦٥) اضمر ملك العجم (شاه روخ بن تيمورلنك) الغيظ من جراء رد السلطان المملوكي المصري (الاشرف برسباي) ، فتعدا ، غير انه انتظر الى ما بعد وفاة السلطان المملوكي المصري (الاشرف برسباي) ، وخلع ابنه السلطان (العزيز يوسف) ، وتولية السلطان (الظاهر جقمق) امور السلطنة ، فاعاد الطلب من جديد ، بعد عشر سنوات كاملة دون ياس .

يقول (ابن ايس) في حوادث شهر شعبان سنة ٨٤٨ : « وفيه قدم قاصد من عند شاه روخ بن تيمورلنك ، وصحبته هدية للسلطان ، ومع الهدية كسوة للكعبة ، فامر السلطان بان يخفيها عن الأمراء وأرباب الدولة ، فلما طلع بها مع الهدية ، دخل بها الى البحرة ، فتسلمع بها الأمراء ، فشق عليهم ذلك ، ثم ان طائفة من المماليك الجلبان نزلوا الى الدار التي نزل بها القاصد ، فتهبوا كل ما فيها ، هم والسواد الأعظم من العوام ، ولم يشعر السلطان بشيء من ذلك ، وكان الذي تُهب للقاصد نحو من عشرة الاف دينار »^(٦٦) وصحيح ان ما حدث لرسول ملك العجم (شاه روخ) كان فتنه كبيرة ارتجت لها الأرض ، على حد تعبير ابن ايس ، لكن رد فعل العامة من الناس كان عنيفا تجاه ذلك الرسول ، الذي جاء ينتزع من المصريين شرفا جليلا وعظيما ، وهو اختصاصهم بكساء الكعبة المشرفة .

قال (ابن ايس) في رد فعل العامة من الناس : « وقد حصل للقاصد من العوام غاية البهدة ، من السب والرجم وغير ذلك ، وتشوش السلطان غاية التشوش ، ولولا انه كان دينا لرسم بقتل سائر العوام ، ولكنه دينه رده عن ذلك ، وكان العوام ظالمة في هذه الواقعة ، فإنهم فعلوا شيئا من غير مرسوم السلطان ، وقد اخطأوا في ذلك كل الخطأ »^(٦٧)

إن نظرة (ابن ايس) الى رد فعل العامة كأنما هي نظرة حاكم الى تصرف أحد من رعاياه خرج في تصرفه عن حدود قانونه ، ولكن العامة رأت في ذلك جريمة فعلها ملك العجم فجاء تصرفهم ورد فعلهم أمام رسوله فحدث له « غاية البهدة » كما عبر عن ذلك مؤرخنا ابن ايس .

غير ان السلطان (الظاهر جقمق) لم يكن امام هذه المشكلة يستطيع ان يتخذ

قرئته الحاسم ، فظل يفكر طويلا ، بالرغم من ربود الافعال الغاضبة من حوله ، ومن الشلوع ، ثم تفق ذهنه عن حل وسط ، وهو ان يرسل كسوة الكعبة المشرفة التي بعث بها ملك العجم الى مكة ، ولكن ليكسوها باطنها وليس ظاهرها ، اى ان تظل الكسوة في داخل الكعبة المشرفة لا يراها احد ، كما انه ارسلها الى مكة في السر ، لا من رأى ولا من سمع !..

هذه الكسوة الاعجية ظلت في داخل الكعبة المشرفة مدة ثمان سنوات الى ان اصبر السلطان (الظاهر جقق) امرا بترعها ، واستبدلها باخرى مصرية تحمل اسمه هو . طبعاً لم يتم ذلك سوى بعد وفاة ملك العجم (شاه روخ) بنحو ستين كلمتين .. (٦٨)

كل هذه التصرفات شكلت في العصر المملوكي نوعاً من التلبؤ أو التحريم أمام كل من يفكر في القيام بمحاولة كساء بيت الله الحرام من غير المصريين ، سواء بفرض القوة والاجبار أو بالتفاهم واعمال العال والسليسة ، وبجى الامر حكراً على مصر وحدها لا يشاركها فيه اى شريك . عند مفتتح هذا العصر ، وبمجرد توطيد اركان الدولة المملوكية وفراغها من حروبها مع التتار القادمين الى المنطقة العربية كالجراد قامت مصر بدورها تون تقصير خيال كسوة الكعبة المشرفة . ولكن السلطان (الظاهر بيبرس) اول من ارسل كسوة للكعبة المشرفة من سلاطين العصر المملوكي .

قال البعض ان ذلك تم في عام ٦٦١ هجرية (٦٩) وقال آخرون ان ذلك تم عند قيام السلطان (الظاهر بيبرس) باداء فريضة الحج عام ٦٦٧ هجرية (٧٠) جهز السلطان (الظاهر بيبرس) قافلة الحج بمحملها الشهير ، غير ان الامور لم تمش وفق ما كان ينشد السلطان .

يقول (الجبرتي) واصفاً ذلك : « فلما وصلوا الى مكة منعوهم من دخول المحمل ومن كسوة الكعبة ، فقال امير المحمل لامير مكة : اما تخاف من الملك الظاهر بيبرس ؟ فقال : دعه ياتي على الخيل البلق . فلما رجع امير المحمل واخبر السلطان بما قاله امير مكة ، جمع له في السنة التالية اربعة عشر الف فرس ابلق ، وجهزهم صحبة امير الحاج ، وخرج بعدهم على ثلاث نوق عشريات ، فوافاهم عند دخولهم مكة وقد منعهم التتار وامير مكة ، فحاربوهم فنصرهم الله عليهم ، وقتل ملك التتار وامير مكة ، طعنه السلطان بالرمح وقال له : انا الملك الظاهر ، جئتك على الخيل البلق . فوقع الى الارض ، وركب السلطان فرسه ، ودخل الى مكة ، وكسا البيت ، وعاد الى مصر (٧١)

ومن المؤكد ان هذه الكسوة للكعبة المشرفة تلتها كسوات اخرى بعث بها سلطان مصر المملوكي الظاهر بيبرس ، ولكن كم بلغ عددها ؟ الله اعلم . فقد ذكر صاحب كتاب « سير القوائد المنظمة » انه في سنة ٦٦٨ هجرية : « حج

بالناس أمير يقال له القنيسى ، وجاء بكسوة الكعبة من جهة الظاهر صلح
مصر ،^(٧٢)

ونذكر (ابن اياس) فى حوادث سنة ٦٧٥ هجرية ان هناك كانت توجد كسوة
للكعبة المشرفة طافت فى موكب كبير بالقاهرة ، وذلك قبل ان ترسل فى قافلة الحج
الى مكة المكرمة^(٧٣)

ويبدو من وراء سطور التاريخ ان بعض الرؤوس حاولت ان تتطلع الى ان تنال
شرف كساء بيت الله الحرام ، بعيدا عن مصر ، فى عصر السلطان (المنصور
قلاوون) مما جعل سلطان مصر يرسل الى أمير مكة معاتبا ، لكى يوصد البلب أمام
تلك الرؤوس .

ففى اخبار عام ٦٨١ هجرية نجد ان أمير مكة حلف للسلطان (المنصور
قلاوون) بيمين الولاء والطاعة له ولولده ، والتزامه بتعليق الكسوة المصرية دون
غيرها فى كل موسم^(٧٤)

وفى عصر ابنه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) كانت هناك كسوة مصرية
للكعبة المشرفة ، استطاع الرحالة العربى (ابن بطوطة) ان يرصدها فى رحلته
عام ٧٢٦ هجرية مرتين .

قال فى المرة الأولى : « .. وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها
بالأبيض . وهى تتلألا عليها نورا واشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى الى
الأرض »^(٧٥)

وفى المرة الأخيرة وصفها فى اسهاب ، فقال : « .. وفى يوم النحر بعثت كسوة
الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان
اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبليون (بنى شيبية) فى اسبالها على الكعبة
الشريفة »

« وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز
مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام
والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأن
الله بكل شىء عليم) »

ويستطرد (ابن بطوطة) فى وصفها قائلا : « وفى سائر جهاتها طرز مكتوب
بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت
شمرت أذيالها صونا من أيدى الناس »^(٧٦)

وفى عام ٧٣٨ هجرية وصف (ابن فضل الله العمري) كسوة مصرية للكعبة
المشرفة أيام سلطنة (الناصر محمد بن قلاوون) فقال : « لما حججت فى سنة ٧٣٨
صعدت أنا وامراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة ، حتى كنا على
سطحها ، فرأيت مبلطا بالمرمر والرخام الأبيض ، ومن جوانبه جدر قصار فيها

خلق لمرباط الستور ، تجر فيها الكسوة بجبال ، ثم تربط في تلك الحلق » .
وقال : « وانا أحمد الله إذ بيدى توليت خلع الكسوة العتيقة عنها وتلبسها
الكسوة الجديدة » (٧٧)

ولم يقف المؤرخون كثيرا عند كسوة الكعبة المشرفة التي بعث بها السلطان
المملوكي (الناصر أحمد بن قلاوون) عام ٧٤٢ هجرية ، ربما بسبب اعتقاد
الفنن بين أمراء الممالك بعضهم وبعض . (٧٨) لكن هؤلاء المؤرخين وقفوا كثيرا
عندما أوقف السلطان (الصالح اسماعيل بن قلاوون) ضيعة كاملة بالشرقية
(هي الآن تتبع محافظة القليوبية) ، وهذه الضيعة تسمى (بيسوس) ،
وجعلها مرسدة على كسوة الكعبة المشرفة . (٧٩) ويقال ان هذا الوقف كان عبارة
عن ثلاث قرى ، وليس قرية واحدة ، وهذه القرى هي : بيسوس وسندبيس
وابو الغيط ، وهي من قرى القليوبية ، اشتراها من بيت المال ووقفها على كسوتي
الكعبة المشرفة والحجرة النبوية المطهرة بالمدينة المنورة سنة ٧٥٠ هجرية . (٨٠)
وبرغم هذا الوقف المرسود على كسوة الكعبة المشرفة فنجد من خلال التاريخ
انه في عام ٧٧٥ هجرية قد كسيت الكعبة المشرفة كسوة قصيرة فوق كسوة أخرى
بيضاء وسوداء ، فلما كان السادس عشر من ذي الحجة ، وبعد نحو أسبوع
واحد أخرجت الكسوة وكسيت بها الكعبة من داخلها . (٨١)
وفي دولة السلطان (فرج بن برقوق) حدثت عدة تغيرات في زخارف كسوة
الكعبة المشرفة .

قال العلامة (ابن فهد) يصف تلك التغيرات في سنة ٨١٠ هجرية : « وأحدث
في كسوة الجانب الشرقي من الكعبة الشريفة جامات منقوشة بالحرير الأبيض
مكتوب فيها (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) بالبيضا ، ومنع ذلك بعد أربع
سنين متوالية » . (٨٢)

ثم حدث تغير آخر وفي زخارف كسوة الكعبة المشرفة ، « ففي سنة
٨١٤ هجرية جعل وجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ..
(والله العالم ما كان وما يكون) .

وفي سنة ٨١٩ جعلت الجامات المصنوعة من الحرير الأبيض في جميع الكسوة
من تحت وإلى أسفل بعد أن انقطعت ٤ سنين واستمرت الجامات في كسوة الكعبة
خمس سنين متوالية بعد هذه ، ثم أزيلت وغوّض عنها جامات سود في سنة
٨٢٥ هجرية : (٨٣) وحينما طاف موكب المحمل بهذه الكسوة قبل إرسالها إلى مكة
لفتت إليها الأنظار في القاهرة في زمن السلطان (الأشرف سيف الدين برسباي) .
يقول (المقرئ) في وصف ذلك المشهد الذي احتشدت من أجله كثير من
العوام والخواص : « وفي يوم الاثنين سادس عشرة (رجب سنة ٨٢٥ هجرية)
أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة . وقد كثر الاعتناء
بأمره ، وعُملت كسوة الكعبة في غاية الحسن ، بحيث لم يعمل مثلها فيما

أدركناه ، وولى عملها شرف الدين أبو الطيب محمد بن تاج الدين عبدالوهاب ابن نصر الله ناظر الكسوة ، لحسن مباشرته وعفته ،^(٨٤) وفي سلطنة السلطان (الأشرف اينال) سنة ٨٦٤ هجرية كانت كسوة الجانب الشرقي بيضاء بجامات صفر .^(٨٥) أما في سنة ٨٦٥ هجرية فكانت كسوة الجانب الشرقي والشامي بيضاء بجامات سود ، وفي الجامات السود بعض ذهب .^(٨٦) وفي عام ٨٩٦ هجرية أرسل السلطان (قايتباي المحمودي) الى مكة كسوة للكعبة المشرفة وكسوة لمقام سيدنا ابراهيم ، وأقام لذلك احتفالا عظيما في شهر رجب ، وكان حاضرا رسول سلطان بني عثمان ذلك الموكب .^(٨٧)

وقبل مجيء الجيوش العثمانية غازية كانت هناك كسوات للكعبة المشرفة كل عام ترسل من القاهرة الى مكة في عادة منتظمة ، وموكب كبير قسطلط عليه كل الأنظار من كل اتجاه .^(٨٨)

وقبل هجوم العثمانيين على مصر أطلقت اشاعة في القاهرة في شوال سنة ٩٢٢ هجرية أن العثمانيين سوف يرسلون الى مكة وصحبته كسوة للكعبة المشرفة ، غير انه لم يثبت صحة ذلك ، لذا سارع السلطان المملوكي (قانصوه الغوري) بإرسال الطواشي (مرهف) من البيبحر وصحبته كسوة الكعبة المشرفة ومستلزماتها الى مكة ، عن طريق ميناء الطور .^(٨٩)

كل ذلك في اللحظات الأخيرة قبلما يهب الأعصار المدمر القادم من الشمال ، فيسقط الورقة الأخيرة في شجرة الحكم المملوكي بعدما جفت وبيست وانطرح أرضا ، وداستها أقدام الغزاة العثمانيين الجدد مع الفزع الأخير لانفاس عام ٩٢٢ هجرية الموافق ١٥١٧ ميلادية .

كسوة الكعبة المشرفة في العصر العثماني :

حينما ودعت مصر عصر سلاطين المماليك ، واستقبلت عصرا جديدا تحت لواء العثمانيين استمرت مسيرتها في كساء بيت الله الحرام ، ولم يمنعها مانع من أداء واجب وشرف وهبها الله به وخصها بهذا التشريف الجليل من ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى .

وفي العام التالي للغزو العثماني ، وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر رمضان عرض ملك الأمراء (خاير بك) كسوة الكعبة المشرفة ، والبرقع ، ومقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وكسوة لضريح النبي - صلى الله عليه وسلم - وعدة ستور ، وكسوة لضريح الخليل ابراهيم بالقدس ، ومحملا ، وقد تناهوا في زكشة برقع كسوة الكعبة المشرفة وملحقاتها على خلاف المعتاد ، وأقيم احتفال كبير بالقلعة من أجل هذه المناسبة .^(٩٠)

ولم يكن هذا الاحتفال هو الأول والأخير بالكسوة ، وإنما جرى احتفال ثلث بتغد أسبوع واحد من الاحتفال الأول .

قال (ابن أبياس) يصف وقائع هذا الاحتفال : « وفي يوم الاثنين تسع عشر شهر رمضان ، فيه خرج (الشهابي أحمد بن الجيعان) نائب كاتب السر ، (عصاح الدين) خاتنار ابن عثمان ، وخرج صاحبتهما كسوة الكعبة الشريفة وهي محزومة محملة على الجمال ، وأشيع انهما يتوجهان من البحر الملح الى جدة ومن جدة الى مكة ، فكلن لهما في القاهرة موكب حفل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صاحبتهما نحو من ألفي عثمانى ، وقدامهم طبلان وزمران ورملة نغف ، وركب قدامهما الأمير (قايتباي) الديوان الكبير وأعيان جماعة من المباشرين . فلما شقوا من القاهرة رجعت لهم ، فخرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الوطوق بالريداية »^(٩١)

كان الصرف على كسوة الكعبة المشرفة يتم من حاصل الأوقاف التي لوقفها السلطان المملوكي (الصالح اسماعيل) غير ان هذه الأوقاف لم تعد تكفي لتكليف عمل كسوة الكعبة المشرفة فخصص السلطان العثماني (سليمان بن سليم الاول) وقفية سنة ٩٤٧ هجرية لوقف فيها عشرة قرى من قرى مصر لينفق من ريعها على كسوة الكعبة المشرفة وكسوة الحرم النبوي الشريف .

وقد قال في هذه الوقفية بعد ديباجة طويلة تدين انه ظل متفكرا في كلام الله سبحانه وتعالى - ونظرا ثواب الحج ، « علما بان تعظيم الكعبة المستورة بالآستار الشريفة العالية وتشريفها في الحج يوجب الجنة » ، ولذا فقد لوقف « جميع القرى الثلاث المسماة (بيسوس) وأبو الغيث وحوض بقص الواقعة بالولاية المصرية التي كان الحاصل منها في السنة الواحدة مبلغ ٨٩٠٠٠ درهم »^(٩٢)

ومنها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة في الولاية الشرقية بالديار المصرية :

- لؤلها : قرية (سلكة) كان تحصل منها في تلك السنة مبلغ ٣٠٤٩٤ درهما .
- وثانها : قرية (سيرو بجنجة) تحصل منها ٧١٨٢٠ درهما .
- وثالثها : قرية (قريش الحجر) تحصل منها ٥١٣٠٤ درهما .
- ورابعها : قرية (منايل وكوم رحان) تحصل منها ٣٧٨٤٠ درهما .
- وخامسها : قرية (بجام) تحصل منها ١٤٩٣٤ درهما .
- وسادسها : قرية (منية النصرى) تحصل منها ٦٠٨٥٨ درهما .
- وسابعها : قرية (بطاليا) تحصل منها ١٠٤٨٤ درهما .

وبذا تكون جميع المبالغ المرصودة في تلك السنة ٣٦٥١٥٢ درهما فضيا ، وقد حدد الواقف لوجه الصرف على النحو الآتي :

١ - أن يصرف مبلغ ٢٧٦٢١٦ درهما للاتفاق على أستار ظاهر الكعبة المشرفة في كل سنة .

٢ - أن يصرف مبلغ ٧٥٠٣٧٠ درهما للاتفاق على كسوة الكعبة المشرفة الداخلية ، والحجرة النبوية المطهرة بالمدينة المنورة ، والمقصورة المعصورة بالحرم الشريف ، والمنبر ومحرابه ، والأستار الأربعة للحرم الشريف ، ومحراب (ابن العباس) وقبره ، وقبر (علي بن أبي طالب) و (الحسين) و (عثمان ابن عفان) و (فاطمة بنت أسد) رضوان الله عليهم أجمعين .

٣ - الفائض ، وهو مبلغ ٥٨٢٦٧٠ درهما يحفظ بغرض سد العجز إذا ما حدث نقص في مياه الغيل أتبعه قلة وعجز في المحاصيل والغلال .

وفي سنة ١٠٠١ هجرية الموافق ١٥٩٢ ميلادية حضر السيد (مسعود بن الشريف حسن) نيلية عن والده بالمسجد الحرام ، وحضر اكابر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من داخلها لورود أمر السلطان (محمد بن مراد) بذلك ليعمل لها كسوة ، فذرت بالذراع الحديد المصرى ، فعملت وأرسلت .^(٩٣)

وفي عام ١٠٣٩ هجرية الموافق ١٦٢٩ ميلادية وقع بالحرم الملكي سيل عظيم حتى وصل ارتفاعه عن الأرض الى منسوب يعلو باب الكعبة المشرفة بذراعتين ، فأحدث ذلك بعض التدايعات استوجب أن يرسل شريف مكة الى جدة لاحتضار خشب يجعل على الكعبة لسترها الى أن يشرعوا في العمارة ، فلما وصل الخشب سترها جميع ما سقط منها ، وجعلوا بابا من الخشب في الجهة الشرقية ، ثم جعل الشريف للكعبة المشرفة ثوبا أخضر والبسه إياها في السابع من شهر شوال .^(٩٤)

وفي علم ١٠٤٠ هجرية الموافق ١٦٣٠ ميلادية أجريت عدة اصلاحات في بيت الله الحرام ، وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان ركب الميزاب . وفي يوم الجمعة غرة رمضان المبارك ألبست الكعبة ثوبها ، وذلك كله من قبل مولانا أمير المؤمنين السلطان (مراد خان بن السلطان أحمد بن السلطان محمد خان) .^(٩٥)

واختصت مصر بكسوة الكعبة المشرفة الخارجية ، في حين انفردت الدولة العثمانية بكسوة الكعبة المشرفة الداخلية ، وبقيت مصر تصنع أقمشة الكسوتين الداخلية والخارجية كلها الى عام ١١١٨ هجرية الموافق ١٧٠٦ ميلادية حيث أمر السلطان (أحمد بن محمد) بحيلة كسوة الكعبة الداخلية التي ترسل من قبل السلطان علم توليه الملك في استامبول ، فصنعت فيها وأرسلت في العام التالي الى مكة المكرمة عن طريق مصر ، فاختصت استامبول من ذلك الوقت بحيلة الكسوة الداخلية .^(٩٦)

واستمر سلاطين الدولة العثمانية في إرسالها الى عهد السلطان (عبدالعزيز ابن السلطان محمود الثاني) ، حيث انقطعت الدولة العثمانية عن إرسال الكسوة الداخلية ، وبقيت الكسوة التي كان أرسلها السلطان المشار اليه علم هجرية ١٢٢٧ .^(٩٧)

وعندما حدثت الهجمة البربرية بقيادة (نابليون بونابرت) على مصر عام ١٢١٣ هجرية الموافق ١٧٩٨ ميلادية كان تعرية الكعبة المشرفة من ثيابها بمناسبة اشعار للمسلمين بما أصاب بلادهم من مهانة ومذلة على يد الفرنسيين وفقا للعادات والتقاليد القديمة عند استفحال الأخطار المحدقة^(٩٨).

وقد ذكر (الجبرتي) ان « رجلا مغربيا يقال له الشيخ (الكيلاني) كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف » ، فلما وردت أخبار الفرنسيين الى الحجاز ، وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم ، وجردوا الكعبة ، وان هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاتفقت جملة من الناس وبذلوا أموالهم وانفسهم ، واجتمع نحو الستمئة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه^(٩٩) .

ولم يكن الاهتمام بكسوة الكعبة المشرفة من قبل الفرنسيين عند احتلالهم مصر إلا ستر تندر في الأطماع الاستعمارية الفرنسية وقت مجيء حملتها في القرن الثامن عشر .

ففي أحداث شهر رمضان عام ١٢١٥ هجرية الموافق ١٨٠٠ ميلادية قال (الجبرتي) انه قد « وقع السؤال والفحص عن كسوة الكعبة التي صنعت على يد (مصطفى اغا) كتخدا الباشا ، وكملت بمباشرة حضرة صاحبنا العمدة القاضل الأديب العاظم الناصر السيد (اسماعيل) الشهير (بالخشاب) ، ووضعت في مكانها المعتاد بالمسجد الحسيني وأهمل أمرها الى حد تاريخه ، وربما تلف بعضها من رطوبة المكان وخرير السقف من المطر ، فقال الوكيل : ان سارى عسكر قصده التوجه بصحبكم يوم الخميس قبل الظهر بنصف ساعة الى المسجد الحسيني ، ويكشف عنها ، فإن وجد بها خللا أصلحه ، ثم يعيدها كما كانت ، وبعد ذلك يشرع في ارسالها الى مكانها بمكة ، وتكسى بها الكعبة على اسم المشيخة الفرنساوية ، فقالوا له شأنكم وما تريدون ، وقرئ في المجلس فرمان بمضمون ذلك^(١٠٠) .

ولم يستطع أحد من المشايخ أن يفتح فمه بكلمة أمام مداينة (المشيخة الفرنساوية) التي أرادت أن تكسو كعبة الاسلام المقدسة باسمها ، بعد أن جاست خلال وداست دماء وعظام الآلاف من المسلمين !!!

قال (الجبرتي) : « ولما كان يوم الخميس رابع عشرة (رمضان) الموعود بذكره توجه الوكيل ومشايخ الديوان الى المشهد الحسيني لانتظار حضور سارى عسكر الفرنسيين بسبب الكشف على الكسوة ، وازدحم الناس زيادة على عاداتهم في الازدحام في رمضان ، فلما حضر ، ونزل عن فرسه عند الباب ، وأراد العبور للمسجد رأى ذلك الازدحام ، فهاب الدخول ، وخاف من العبور ، وسأل ممن معه عن سبب هذا الازدحام ، فقالوا له هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدهمون دائما

على هذه الصورة في المسجد ، ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم ، فركب فرسه ثانياً وكثر راجعاً ، وقال : نأتى في يوم آخر ، وانصرف من حيث جاء وانصرفوا » .^(١٠١)

وبعد ذلك قال (الجبرتي) متتبعا : « ولما كان يوم الخميس رابع عشرة ، تقيد للحضور بسبب الكشف على الكسوة (استوفو) خازن دار الجمهور و(فوريه) وكيل الديوان ، فحضر صحبتهم المشايخ والقاضى والأغا والوالى والمحاسب بعدما أخلى المسجد من الناس ، وأحضروا خدامين الكسوة الأقدمين ، وحلوا رباطاتها ، وكشفوا عليها ، فوجدوا بها بعض خلل ، فأمروا بإصلاحه ، ورسموا لذلك ثلاثة آلاف فضة ، وكذلك رسموا للخدمة الذين يخدمونها ألف نصف فضة ، ولخدمة الضريح ألف نصف ، ثم ركبوا الى منازلهم ، ثم طويت ، ووضعت في مكانها بعد إصلاحها » .^(١٠٢) ويبدو أن الدولة العثمانية قد اشتمت الأحداث في مصر ، من خلال ما كان يجرى لكسوة الكعبة المشرفة من تلف ، أو ربما أرادت أن تقول أمام تراجيديا الأحداث الدموية انها موجودة بقوة سلطانها الدينى على المسلمين ، فكان ما تم من أحداث في عام ١٢١٦ هجرية .

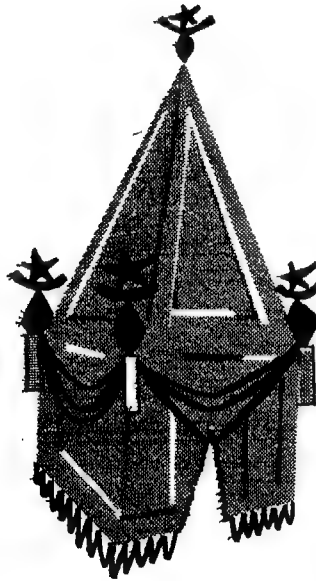
قال (الجبرتي) في أحداث جمادى الآخرة من هذا العام : « وورد الخبر بوصول كسوة للكعبة من حضرة السلطان ، فلما كان يوم الاربعاء حضر واحد أفندى وآخرون وصحبته الكسوة ، فنادوا بمرورها في صباحها يوم الخميس ، فلما أصبح يوم الخميس المذكور ركب الأعيان والمشايخ والأشايخ وعثمان كنخدا المنوه بذكره لامارة الحج ، وجمع من الجاويشية والعساكر والقاضى ، ونقيب الاشراف وأعيان الفقهاء ، وذهبوا الى يولاقي ، وأحضروها ، وهم امامها ، وفردوا قطع الحزام المصنوع من المخيش ثلاث قطع والخمسة مطوية ، وكذلك البرقع ومقام الخليل ، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال ، والكتلة غليظة مجوفة متقبة وباقي الكسوة في ساحير على الجمال ، وعليها أغطية جوخ أخضر ، ففرح الناس بذلك ، وكان يوما مشهودا ، وأخبر من حضر انه عندما وصل الخبر بفتح مصر ، أمر حضرة السلطان بعملها فصنعت في ثلاثين يوما ، وعند فراغها أمرهم بالسير بها ليلا ، وكان الريح مخالفا ، فعندما حلوا المراسى اعتدل الريح بمشيئة الله تعالى ، وحضروا الى الاسكندرية في أحد عشر يوما » .^(١٠٣)

ومع هذا الوجود العثماني الذى كان يلغظ النفس الاخير كان علماء الحملة الفرنسية يتقربون في تراث مصر الحضارى ، ويقفون على كل كبيرة وصغيرة فيه ، وكان من جملة ذلك مخصصات كسوة الكعبة المشرفة وتكاليفها وقتها .

قال (الكونت استيف) الخازن العام للحملة الفرنسية بقيادة (نابليون بونابرت) : « الكسوة هى الاسم الذى يطلق على الطنافس والبسط التى تسلم لأمير الحج كى يكسو بها الكعبة ، ويزين قبر فاطمة بالمدينة ، وكانت هذه تصنع في قلعة القاهرة ، وقد رصد السلطان سليمان مبلغ ٥٢٦,٠٠٠ مدينى لفخفات

صنعها ، وارتفع السلطان مصطفى بهذا الرصيد ، لكي يجعله كافيا ، الى
٧٩٠ ، ٨٠٧ مديني ، (١٠٤)

ولما دخل الامام (سعود) الكبير ابن (عبدالعزيز آل سعود) الى الحجاز
انقطعت مصر عن ارسال الكسوة الخارجية ، فكساها الامام المشار اليه عام
١٢٢١ هجرية من القز الأحمر ، ثم كساها في الأعوام التالية بالديباج ، والقيطان
الأسود ، وجعل إزارها وكسوة بابها من الحرير الأحمر المطرز بالذهب
والفضة . (١٠٥)



كسوة الكعبة المشرفة في عصر محمد علي وعائلته :

عندما تولى (محمد علي) حكم مصر في شهر ربيع الأول عام ١٢٢٠ هجرية الموافق مايو ١٨٠٥ ميلادية كان الفرمان العثماني الذي أعطاه حق الحكم بعد تعيينه من قبل نواب الشعب ينص على أن : « على خزينة مصر القيام بالنفقات السنوية التي تقوم بها عادة للحرمين الشريفين » (١٠٦)

وخرجت أول كسوة للكعبة المشرفة من عصر في شهر ذي القعدة عام ١٢٢٠ هجرية الموافق يناير ١٨٠٦ ميلادية في عصر الوالي الجديد لمصر (محمد علي) ، قال (الجبرتي) : « وفي يوم الاثنين رابع عشرة أخرجوا المحمل والكسوة ، وعين للمسفر بهما من القلزم (مصطفى جلوبيش العنتلي) ، ومعه صراف مصر دفعوا له ربحها وتمتها ، وهذا لم يتفق نظيره » (١٠٧)

وبعد أربعة أيام قطع من هذا التعيين ، وعند انخراط يوم الجمعة ثامن عشر شهر ذي القعدة تحركت الجمال الحاملة لكسوة الكعبة المشرفة تخب الأرض خباً من عند ناحية عنتلي بصحراء المماليك ، ومنها إلى جهة السويس ، لينسفر من القلزم . (١٠٨)

وفي العام التالي ، وفي شهر ذي القعدة أيضاً ذكر (الجبرتي) أنه : « في يوم السبت ثامن ، أداروا كسوة الكعبة والحمل ، وركب معها المتسفر عليها من القلزم ، وهو شخص يقال له (محمود أغا الجزيري) وركب أمامه الأغا والوالي والمحاسب وطلقة الدلاة وكثير من العسكر » (١٠٩)

وحينما حدث الاصطدام بين الوهابيين في الأراضي الحجازية وقلالة الحج المصرية في عام ١٢٢٢ هجرية الموافق ١٨٠٧ ميلادية توقفت مصر عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة مدة ست سنوات حتى تستقر الأمور على أرض الحجاز ، ولم ترسل الكعبة المشرفة كسوة من مصر سوى في شهر شوال ١٢٢٨ هجرية الموافق ١٨١٣ ميلادية على الرغم من عملها كسوة في عام ١٢٢٣ هجرية ولكنها لم ترسلها ، وظلت محفوظة طيلة هذه المدة إلى أن قرر (محمد علي) السفر إلى الأراضي الحجازية بنفسه . قال (الجبرتي) في أحداث شهر شوال عام ١٢٢٨ : « في سابعه يوم السبت ، أداروا كسوة الكعبة وكانت مصنوعة من نحو خمس سنوات ، ومودعة في مكان بلاشهد الحسيني ، فأخرجوها في مستهل الشهر ، وقد توسخت لطول المدة ، فحلوها ، ومسحوها ، وكان عليها اسم السلطان (مصطفى) فقبروه وكتبوا اسم السلطان (محمود) فلجتمع الناس للفرجة عليها ، وكان المباشرة لها الرئيس (حسن المحروقي) فركب في موكبها . » (١١٠)

وفي شهر شوال عام ١٢٢٩ هجرية الموافق ١٨١٤ ميلادية أقيمت زفة شعبية لكسوة الكعبة المشرفة من باب القلعة حتى مسجد الإمام الحسين . قال عنها (الجبرتي) :

« وفي يوم السبت خادى عشرة ، نزلوا بكسوة الكعبة بالطبول والزمور الى المشهد الحسيني ، واجتمع الناس على عادتهم للفرجة . » (١١١)
ونفس الاحتفال حدث في العام التالي ، عام ١٢٢٣ هجرية الموافق ١٨١٨ ميلادية .

ولقد ادرك موكب كسوة الكعبة المشرفة في عصر (محمد علي) الرحالة والمستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) فقال عنه بعد مشاهدته : « عقب العيد السابق ذكره بيومين او ثلاثة تقريبا (عيد الفطر) تحمل الكسوة المرسله سنويا مع قافلة الحجاج الكبرى ، في موكب يسير من القلعة حيث تصنع على نفقة السلطان الى مسجد الحسين ، لتخاط اقسامها معا ، وتبطن استعدادا للحج القريب . والكسوة ديباج اسود غليظ تغطيه نقوش آيات قرآنية الخ ، تنسج بالحرير من اللون نفسه ويعبر كل جانب شريط عريض ، مزين بنقوش مشابهة تشغل بالذهب . وإنى اكتب الآن عن موكب الكسوة ، بعد عودتي من مشاهدته ، في السادس من شهر شوال عام ١٢٤٩ هجرية الموافق ١٥ فبراير ١٨٣٤ ميلادية . » (١١٢) .

وهذا الموكب للكسوة سجله بملاحظات دقيقة فقال : « اخذت مجلسي بعد شروق الشمس في دكان كتبى الباشا ، في شارع المدينة الرئيسى مقابل مدخل سوق خان الخليل تقريبا ، وكان هذا الدكان وكل دكاكين الشارع تقريبا مزدحمة باشخاص جذبتهم الرغبة في مشاهدة الموكب شيوخا وشبانا . والمصريون من كل طبقة ومركز وسن يجدون لذة كبيرة في رؤية المشاهدات العامة . ولكن الشوارع لم تكن مزدحمة الازدحام العادى التى تكون كل منها جانبا من الكسوة قد مرت محمولة بالمكان الذى اتخذت فيه مركزى ، فوضع كل قسم من الحبال التى تربط بها على حمار . ولم تكن الحمير مزينة إطلاقا ، ولا مسرجة بإتقان . » (١١٣)

« بعد هذا قدم حوالى عشرين رجلا في ثياب رثة يحملون على اكتافهم أطرا طويلا من الخشب امتد عليه الحزام - أى الشريط السابق ذكره - وهو قطع أربع تكون حينما تخاط معا إلى الكسوة شريطا متصلا يحيط بالكعبة جميعا إلى ثلثي ارتفاعها تقريبا ، وهو من نمسج الكسوة نفسها . وتشغل النقوش الذهبية خطوط جميلة متسعة . ويحيط بكل ربع حاشية ذهبية ، ويزين كل طرف ، حيث تتصل الحوائش العليا والسفلى ، بالحرير الأخضر والأحمر ، يخاط به ويزركش بالذهب . وكثيرا ما يتقدم أحد حاملى الحزام إلى المشاهدين المحترمين ليسألهم عطية . » (١١٤)

وقال (إدوارد وليم لين) يصف برقع الكعبة : « وكان يحمل بعد ذلك ، مثبتا على ظهر جمل جميل ، البرقع ، وهو الستار الذى يعلق امام باب الكعبة ، ممددا على اطار مرتفع من الخشب . وهو من الديباج الأسود ، المزركش على طريقة الحزام ، بنقوش من القرآن في حروف من الذهب ، ولكنه أكثر فخامة وزينة ، وكان

مبطنًا بالحرير الأخضر . وكان وجه البرقع ممتدا على يمين الاطار ، والحرير الأخضر على اليسار .^(١١٥)

وهذا البرقع قال عنه (ادوارد وليم لين) أن كثيرا ما كان يسميه العامة باسم (برقع سننا فاطمة) ، إذ يقال أن (فاطمة شجر الدر) زوجة السلطان (الصالح ايوب) كانت اول من أرسل برقعا من هذا النوع لتغطية باب الكعبة .^(١١٦) ووصف (إدوارد وليم لين) كسوة مقام سيدنا ابراهيم وكيس مفتاح الكعبة المشرفة في عصر (محمد علي) ، فقال : « وتلا المحمل غطاء اسود آخر ، مستطيل الشكل مزركش بالذهب على الطريقة نفسها ، وهو يوضع على مقام (ابراهيم) ، في مسجد مكة . وركب خلف هذا ضابط تركي يحمل علبة صغيرة من الحرير الأخضر مزركشة بالذهب ، بها مفتاح الكعبة ، فوق منديل مطرز ،^(١١٧)

ووفقا لوثيقة الاشهاد الشرعى لكسوة الكعبة المشرفة في اوائل عصر الخديو (اسماعيل) والتي حررت في شوال عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ابريل ١٨٦٤ ميلادية نستطيع أن نقف على بعض التفاصيل لهذه الكسوة على النحو الآتي :

تضمنت كسوة الكعبة المشرفة وقتها ما يلي^(١١٨) :

- ١ - ثمانية احرمة مزركشة بالمخيش الاصفر والابيض المطلي بالبندقى الاحمر على الحرير الاسود والاطلس الأخضر مبطنة باليفت الابيض والتوار القطن .
- ٢ - ستارة بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الاصفر والابيض المطلي بالبندقى الاحمر على الحرير الاسود والاطلس الأخضر المبطنة باليفت الابيض والاطلس الأخضر ، بها خمسة شراريب حرير اسود وقصب وستة أزرة مفضضة مطلية بالبندقى الاحمر ، وإثنى عشرة شمسية مزركشة بالمخيش الاصفر المطلي بالبندقى الاحمر على الاطلس الأخضر بها اثني عشر شرابة صغيرة حريرا اخضر وقصب .
- ٣ - كسوة مقام سيدنا (ابراهيم) خليل الرحمن المزركشة بالمخيش الاصفر والابيض المطلي بالبندقى الاحمر على الحرير الاسود والاطلس الأخضر بها أربعة شراريب حرير اسود وقصب ، وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الاصفر على الاطلس الأخضر وعشرة شراريب صغيرة حرير اخضر وقصب وخمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الاحمر المبطنة باليفت الابيض ، وبها سجق حرير مزهر .
- ٤ - كيس مفتاح باب بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الاصفر والابيض المطلي بالبندقى الاحمر على الاطلس الأخضر المبطن بالاطلس الأخضر ، به شرابتين قصب وقيطان قصب وحرير اخضر ..

- ٥ - ستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الاصفر والابيض المطلي بالبندقى الاحمر على الحرير الاسود المبطنة باليفت الابيض والاطلس الأخضر .

٦ - ستارة مقام سيدنا (ابراهيم) خليل الرحمن المشار إليه المزركش بالخيشى الأصفر والأبيض المطلي بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود المبططة بالبطى الأبيض والأطلس الأخضر بها خمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الأحمر على الأطلس الأخضر ، بها عشرة شراريب صغيرة حرير أخضر وقصب .
وبالإضافة إلى هذه القطع المذكورة كانت هناك الملحقات الأخرى الآتية :
١ - ثلاثة مجلدات قطن لتعليق الكسوة المشرفة على بيت الله الحرام .
٢ - واحد وأربعون عصفورة قطن مجدولة احتياج الحق .
٣ - غلايتان نحاس مغطلتان ملائتان ماء ورد لغسيل داخل بيت الله الحرام .
وقد قام بتحرير هذا الأشهاد الشرعى لكسوة الكعبة المشرفة قاضى مصر المحروسة السيد (مصطفى نظلمى الدين) مع (حسين فخرى بك) مأمور تشغيل كسوة الكعبة المشرفة .

وبعد أن تولى الخديو (عباس حلمى الثانى) أمرالحكم فى مصر عام ١٣٠٩ هجرية الموافق ١٨٩٢ ميلادية سار على ستة أسلافه فى إرسال كسوة الكعبة المشرفة . وبعد علم واحد ، كتب (عبدالله النديم) فى جريدة (الأستاذ) تحت عنوان « الكسوة الشريفة » بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٣١٠ هجرية الموافقة ٩ مايو ١٨٩٣ ميلادية ما يلى (١١٩)

« احتفل ليلة السبت فى ديوان محافظة مصر احتفالاً جليلاً على يد العلماء والأمراء وأرباب الطرق وكثير من الوجهاء والأعيان سرورا بإنجاز كسوة مقام سيدنا الخليل - عليه الصلاة والسلام - وقد بلغت مصاريفها ١٧٠٠ جنيه ، وفى الصباح انتظم الموكب مركبا من فرق العسكر الخيلة والمشاة والمدفعية ، وكن الوزراء الكرام يقدمهم صاحب الدولة (رياض باشا) نائباً عن الحضرة الخديوية قداجتمعوا فى سقفة المنشية ، يصحبهم لفيف من العلماء الاعلام فى مقدمتهم صاحب السمحة والفضيلة شيخنا الأستاذ الشيخ (الأنبارى) ، وفى مقدمة رجال الطرق وأصحاب الأشاير صاحب السمحة والسيادة السيد (توفيق أفندى البكرى الصديق) ، وسملة قاضى أفندى مصر ، أى أن هؤلاء الاعلام وجدوا مع النظار الكرام بالملابس الرسمية فى مقدمة من وجد معهم من العلماء والأشياخ ، ومن سلة المنشية سار الموكب حتى دخل مسجد الامام (الحسين) رضى الله تعالى عنه ، وقد مرع الناس إلى الشوارع التى مر بها حتى لم يبق فى مصر احد ممن يعملون لرؤية هذا الموكب المنيف إلا وقف له داعياً للحضرة الخديوية الفخيمة بطول العمر ودوام العز والاقبال متفرجا » . ولم تتوقف مصر عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة فيما بعد سوى مرات قليلة ، كانت بسبب الحرب العالمية الأولى ومرة ثانية بسبب أزمة افتعلت بين مصر وحكومة المملكة العربية السعودية تقطعت خلالها الوشائج لفترة عشرة أعوام من عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٦ ميلادية حتى ١٣٥٥ هجرية الموافق ١٩٣٦ ميلادية ، وأخرها أزمة

عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، في عهد الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ، حيث توقف إرسالها تملأ من مصر .

ورغم الخلافات السياسية كانت الأسواق المصرية تهفو إلى كساء بيت الله الحرام ، وكانت لا تتوان في بذل المساعي الحميدة لعودة لواصر الأخوة قوية كما كانت بين مصر والحجاز ، وكان يكفي للتدليل على ذلك ما سطرته « إدارة دار كسوة الكعبة الشريفة » عن مذكرة تسعى من خلالها إلى راب الصدع .

تلك بتاريخ ذي القعدة عام ١٣٤٢ هجرية الموافق يونية ١٩٢٤ ميلادية ، بعد مقدمة وجيزة عن تاريخ كسوة الكعبة المشرفة ودور مصر العتيق فيها . « وقد استمر إرسال الكسوة الشريفة إلى العام الماضي ، حيث أنها أرسلت مع ركب المحمل الشريف ، ونظرا لما حصل بين الدولة المصرية وحكومة الحجاز بشأن البعثة الطبية ، بحيث ترتب على ذلك عودة المحمل الشريف ، وبطبيعة الحال أعيت الكسوة أسوة بباقي المرتبكات التي كانت يرفقه المحمل ، ثم توقف إرسالها حتى يفصل في أمر البعثة الطبية ، مع أن الكسوة الشريفة بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع ، وليست لها علاقة بالمحمل ولا بالمرتبات التي تستلمها حكومة الحجاز ، وذلك للأسباب الآتية :

لولا : الكسوة الشريفة هدية ترسل من الواقف رحمه الله إلى البيت المشرف لا إلى ملك الحجاز ، لو وإلى بلاد العرب وذلك منذ مئات من السنين ، يستلمها وريث بيت النبي المكلف بحجابة البيت العتيق قبل ظهور النبي عليه السلام بـ ١٥٠٠ سنة ، والذي لا ينزاعه فيها منازع ، ولا يشاركه فيها شريك ، لأنه استولى على مفاتيح هذا البيت الحرام في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - بحكم إلهي - بحيث نزلت الآية الشريفة :

(أن الله يامركم أن تؤبوا الأمانات إلى أهلها) وذلك لما أراد الإمام علي - كرم الله وجهه - أن يستولى على مفاتيح الكعبة المكرمة بعد غزو مكة ، وفعلا أخذها من جريث بيت الشيبى ، فلما غزيت تلك الآية بآثار النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمر بربد المفاتيح إلى هذه العائلة ، وصارت حتى يومنا هذا صاحبة التصرف في كل ما يتعلق بالبيت من الهدايا والنفور ، وغير ذلك ، وليس ملك الحجاز ولا لغيره من أشراف مكة حق التدخل في أى شيء يتعلق بهذا البيت .

ثانيا : تشغل الكسوة الشريفة وبعد إتمام تشغيلها تحرر بها حجة شرعية بتسليمها إلى مندوب خاص يستلمها من دار التشغيل ، ثم تصير في عهده حتى يجرى تسليمها إلى الشيخ الشيبى دون سواء ، كمنطوق الحجة الشرعية ، وذلك بلحقتل شرعى بمكة ، وبعد الاستلام يحرر الشيخ الشيبى إشهادا شرعيا باستلامه الكسوة وأدواتها كاملة يقدمه المندوب إلى إدارة الكسوة بعد عودته من البلاد العربية ، وليس ملك الحجاز ولا حكومته دخل في هذا التسليم .

ثالثا : إذا ظهر للشيخ الشيبى أى ملاحظات فى تشغيل الكسوة أو نقص فى أجزائها أو متعلقاتها يخاطب الدولة المصرية بشأنه مباشرة بدون وساطة الحكومة العربية كما هو واضح من الأوراق والمكاتبات الرسمية . وذلك لأنه إنما يطالب بحق هو من اختصاصه دون خلافه .

رابعا : ليس من المحتم أن ترسل الكسوة مع راكب المحمل الشريف ، وإنما احتراما لها وتوقيرا على الشيخ الشيبى من استلامها بجدة ، وليتمكن مندوبها من الحج وزيارة بيت الله الحرام فضل إرسالها فى موسم الحج ومع ركب المحمل ، وقد سبق إرسالها بواسطة المندوب مباشرة بدون المحمل بعد الاحتفال بها كالمعتاد رسميا بمصر عند تسفيرها وذلك فى غضون الحرب العظمى .

مما تقدم يتضح أن ما يصرف فى تشغيل الكسوة الشريفة هو ريع وقف ، وأن الذى يستلمها هو وريث بيت الشيخ الشيبى كما مر ذكره ولا دخل مطلقا لأحد أفراد الحكومة العربية فى شأن كسوة البيت ، ولا يتخلف منها إلا إذا أراد الشيخ الشيبى أن يهدى ملك بلاده شيئا منها على سبيل البركة أسوة بمن يهدى إليهم من ملوك الاسلام وكبرائه . ويتضح أيضا أن الكسوة ليست من المرتبات المقررة لأشراف الحجاز ، لأنها خاصة بالكعبة الشريفة .

لذلك ونحن الآن فى عهد أول ملك دستورى هو صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) الذى بنى دستور مملكته على قواعد الدين الحنيف ، وليس بين ممالك الاسلام مملكة أحق بالمحافظة على الدين وشرفه والبيت وكرامته من الدولة المصرية نلتزم من حضرات أعضاء البرلمان ، وحضرات أصحاب الدولة والمعالى رجال حكومة الشعب النظر فى إيجاد أقرب الطرق الموصلة لتنفيذ شروط الواقف ، والمبادرة بإرسال الكسوة الشريفة حتى يكتسبوا رضاء الأمة المصرية والعالم الاسلامى . وإنا لا نرضى بأن يدون فى التاريخ أن كسوة بيت الله الحرام منعت عنه فى عهد جلالته مولانا الملك (فؤاد الأول) وحكومة حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل (سعد زغلول باشا) والله نسال أن يحفظ حياة صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) وحضرة صاحب السمو الملكى ولى عهده الأمير (فاروق) وحضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ورجال حكومته العظام . إنه سميع مجيب .^(١٢٠)

وعلى الرغم من هذه النداءات والتوسلات التى تريد الا يتعكر الماء بين الأشقاء ، فقد حدث ما حدث وتجمد إرسال كسوة الكعبة المشرفة عشرة أعوام ، فليس لكل ما الانسان يريد يجب له ، لأن مشيئة الله فوق كل رغبات البشر ، ولأن الله وحده هو الفعال لما يريد .



الهوامش والمراجع .

- (١) سيرة الملك (سيف بن ذي يزن) - ص ٨ ج ١ - مطبعة الجمهورية العربية بالصناعاتية بالأزهر - بدون تاريخ .
- (٢) المرجع السابق - ص ١٠ ج ١ .
- (٣) الحافظ أبى الطيب القاسى - « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » - ص ١٢١ ج ١ - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبي بالقاهرة ١٩٥٦ : محمد صالح بن زين العابدين الشيبى - « إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » - ص ١٩٣ ، تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ - مطبوعات نادي مكة الثقافي والأدبي ١٩٨٤ .
- (٤) المرجعان السابقان الأول ص ١٢١ ج ١ ، والثاني ص ١٩٤ .
- (٥) المرجع ص ١٨٧ ج ١ .
- (٦) المرجع السابق ص ١٨٧ ج ١ ، والخصف جمع خصفة وهي الثوب الغليظ جدا ، كما وردت القصة عند (أبى العلاء المعرى) في كتابه « رسالة الصائل والشاحج » - ص ٦٦٧ ، تحقيق د. عائشة عبدالرحمن « بنت الشاطئ » ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥١ - دار المعارف طبعة ١٩٨٤ .
- (٧) المعاصر : في الأصل اسم بلد سميت به الثياب المعافرة التي تصنع فيه ، والملاء : جمع ملاءة ، وهي ثوب لين رقيق نسج واحد وقطعة واحدة وتسمى الريطة ، والوصليل : جمع وصللة ، وهي ثوب أحمر مخطط يمانى ، والعصب : يرود يمانية مخططة أى أثواب مخططة واكسية يلتحف بها . وهذه البرود يعصب غزلها ، أى يجمع ويشد ، ثم يصبغ بعضه وينسج مع غير المصبوغ فيأتى موسى ، والمسوح : جمع مسح ، وهو ثوب من الشعر غليظ ، ويقال له البلباس . راجع إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨١ ج ١ دار المعرفة ببيروت بلبتان - بدون تاريخ .
- (٨) د. على حسنى الخربوطلى - « الكعبة على مر العصور » - ص ١١٠ - سلسلة القرا رقم ٢٩١ - دار المعارف بدمشق - الطبعة الثانية .
- (٩) الأول ص ١٨٨ ج ١ والثاني ص ٦٨ ج ١ . والآخر من تحقيق محمد محبى الدين عبدالحميد - المكتبة الإسلامية ببيروت - بدون تاريخ .
- (١٠) اعتمدنا في حساب هذين التاريخين على إثبات مدة حكم الملك الساساني في فارس وهو (قبيل الأول) الذى ذكر اسمه في الأبيات الشعرية ، وهذا الملك تولى الحكم في الفترة التي حددناها وفقا للتاريخ الذى ذكره (جورجى زيدان) في كتابه (العرب قبل الإسلام) - ص ٢٢٢ - دار الهلال ، في حين كانت البعثة المحمدية عام ٦٠٩ ميلادية ، والأشعر المنسوبة للحادثة يمكن الرجوع إليها عند (إبراهيم رفعت باشا) في كتاب « مرآة الحرمين » - ص ٢٨١ ج ١ .
- (١١) أبو الوليد الأزرقي - « أخبار مكة » - ص ٢٥١ ج ١ - دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بدون تاريخ .
- (١٢) المرجع السابق - ص ٢٥٠ ج ١ .
- (١٣) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٤ ج ١ .
- (١٤) محمد صالح بن زين العابدين الشيبى - « إعلام الأنام ... » - ص ١٩٦ .
- (١٥) المرجع السابق - ص ١٩٣ .
- (١٦) مجلة الفيصل - العدد ١٢٦ - أغسطس ١٩٨٧ - دار الفيصل الثقافية بالسعودية .

(١٧) السيد سلبق - « فقه السنة » - ص ٧٦١ ج ٤ - دار الكتاب العربي ببيروت لبنان - بدون تاريخ .

(١٨) محمد صالح بن زين العابدين الشيبى - « إعلام الانام ... » - ص ١٩٥
(١٩) محمد كليب البتكونى - « الرخنة الحجازية » - ص ١٣٩ - مطبعة الجمالية بمصر - الطبعة الثانية (١٣٢٩ هـ - ١٩١٢ م) .

(٢٠) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٥ ج ١ .
(٢١) إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٢ ج ١ .
(٢٢) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٦ ج ١ .
(٢٣) إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٢ ج ١ .
(٢٤) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٨٢ ج ١ .
(٢٥) الأزرقى - « أخبار مكة » - ص ٢٥٥ ج ١ .
(٢٦) جورجى زيدان - « تاريخ التمدن الاسلامى » - ص ٢٥ ج ٢ - دار الهلال بالقاهرة - بدون تاريخ .

(٢٧) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٢٢٨ ج ١ - مكتب التحرير من أغسطس ١٩٦٧ حتى يوليو ١٩٦٨ .

(٢٨) النويزى - « نهاية الأرب فى فنون الأدب » - ص ١١٢ ج ٢٢ تحقيق د . محمد جابر عبدالعل الحينى - الهيئة المصرية العامة للكتاب والمجلس الاعلى للثقافة ١٩٨٤ .
(٢٩) المقرئى - مرجع - سابق - ص ٣٢٨ . وتنيس هى جزيرة قريبة من دمياط اشتهرت بصناعة الملابس المصرية ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة المشرفة ، وكذلك قريتى قوته وشنا .

(٣٠) المرجع السابق - ص ٣٣٩ ج ١ .
(٣١) المرجع السابق - ص ٤٢٢ ج ١ .
(٣٢) المرجع السابق - ص ٣٣٨ ج ١ .
(٣٣) محمد صالح الشيبى - « إعلام الانام ... » - ص ١٩٩ .
(٣٤) المرجع السابق - ص ١٩٩ .
(٣٥) النويزى - « نهاية الأرب » - ص ١٩٧ ج ٢٢ .
(٣٦) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٣٣٨ ج ١ .
(٣٧) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٠ ج ١ .
(٣٨) ابن جبير - « رحلة ابن جبير » - ص ٧٣ - دار الكتاب اللبنانى - مكتبة المدرسة - بدون تاريخ .

(٣٩) المرجع السابق - ص ٧٨ .
(٤٠) المرجع السابق - ص ١٣٣ .
(٤١) ابن بطرس - « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » - ص ٣٩٠ ج ١ ق ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .

(٤٢) بداننا التاريخ لاول كسوة للكعبة للدولة الفاطمية كما هو ثبت تاريخيا فى عهد الخليفة الفاطمى العنقى (العزيز بالله) . وهناك آراء متضاربة حول قيام الخليفة الفاطمى الاول (المعز لدين الله) بكساء الكعبة ، والسبب فى هذا التضارب آراء المفسرين والشراح لبعض حوادث التاريخ ، والتى تختص بكساء الكعبة وما يكتنف ذلك من خلط وتناول .

فقد ذكر الدكتور (على حسنى الخربوطلى) فى كتابه (الكعبة على من العمود) فى صفحة ١١٢ أن : « الخليفة الفاطمى (المعز لدين الله) أمر بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هجرية (٩٧٢ ميلادية) بعمل كسوة للكعبة ليناقس خلفاء بغداد العباسيين .. »

وجاء فى كتاب « الفاطميون فى مصر » لمؤلفه (حسن ابراهيم حسن) تحت عنوان « الكسوة التى عملها المعز للكعبة ، ما نصه : « ويتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة التى أمر المعز بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية . ففي يوم عرفة أمر المعز بنصيب الكسوة التى اتخذها للكعبة على الإيوان الذى جعله لعقد الجلسات الرسمية . »

وجاء فى نفس الكتاب تفسير لتلك « الشمسية » التى عملها المعز بانها كسوة الكعبة ! ونحن نرى أن هذا التفسير غير صحيح لأنه غير مقنع . فهناك فرق كبير بين الشمسية التى عملت للكعبة وكسوة الكعبة نفسها .

ولكى ندرك هذا الفرق بين الشمسية والكسوة يجب أن نعود إلى بعض المؤرخين الذين تناولوا أحداث تلك الفترة فى كتاباتهم مثل (ابن زلائق) و (المقرئى) و (الجوهري) .

فقد قال (ابن زلائق) ما ملخصه : وصل المعز لدين الله إلى قصره بمصر فى رمضان من سنة ٣٦٢ هجرية . وبعدما استقر وقابل الأعيان ، وقبل هداياهم ، نصب فى يوم عرفة الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره . وسعتها ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا ، وأرضها بدياج أحمر ، وبورها ١٢ هلال ذهب ، فى كل هلال الترجة ذهب مشبك ، جوف كل الترجة ٥٠ درة كبار كيقض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمره أخضر قد فسر ، وحشو الكتفة من كبر لم يُر مثله ، وحشو الشمسية المسك المسجوق ، فراها الناس فى القصر ، ومن خارجها لعلو موضعها ، ونصبتها عدة فراشين وجروها لنقل وزنها .

وقد نقل (المقرئى) عن (ابن زلائق) ، وأضاف (المقرئى) فى كتابه (اتعاطى الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) فترة توضح ماهية هذه الشمسية ، فقال : « وأول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين (جعفر المتوكل على الله) ، فبذل بسلسلة من ذهب كانت تتعلق مع الياقوت التى يعنها المأمون ، وصارت تتعلق كل سنة فى وجه الكعبة ، وكان يؤتى بهذه السلسلة فى كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدر والياقوت والجوهر قيمتها شيء كثير فتلقم بها قلند يبعث به من العراق ، فتدفع إلى حجة الكعبة ، وتشهد عليهم بقيدها ، فيعلقونها يوم سانس الثمان ، فتكون على الكعبة ، ثم تنزع يوم الترويه . » (اتعاطى الحنفا ص ٦٩٢ - دار الفكر العربى - ١٩٤٨) فهذه الشمسية - كما يقول (المقرئى) - تتعلق من سلسلة ذهب ، وتوضع فى وجه الكعبة ، فأين كل هذا من كسوة الكعبة المشرفة ؟ !

هل تتعلق كسوة الكعبة المشرفة بسلسلة ؟ .. هل توضع هذه الكسوة المشرفة فى وجه الكعبة أم عليها ؟

إننا لو عدنا إلى ما كتبه (المقرئى) فى مكان آخر فسندرج ضمن ما كتب مؤرخا لأحداث شهر رجب سنة ٧٨٥ هجرية ، حيث يقول : « وفيه دار المحمل بالقاهرة ومصر ، على العادة فى كل سنة ، واستجد له ثوب حريز أصفر بشمسك زركش ، فيها اسم السلطان ، وعملت له رصافيات فضة ، مطية يذهب ، فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك . وفيه عرضت كسوة الكعبة ، وفر استجد فيها أيضا أن عمل طرازها الدائر بأعلامها من قصب . »

(كتاب السلوك للمقرئى - ص ٣٢ - ٣٣ ق ٢) .

ونلاحظ أن نفس العبارات قد جاءت عند (الخطيب الجوهري) مع اختلاف بسيط فى اللفظ

(شمسات) ، حيث استبدلت بلهظة (برمات) مكانها . (نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان - ص ١٧٤ ح ١) .

والذى يستطيع ان يدقق في تعبير (المقرىزى) سيجد ان استخدامه لكلمة (شمسات) مركزية في وصفه كسوة المحمل ذاتها ، وهى كسوة الهودج الذى يتصدر قافلة الحج ، وهى مجموعة دوائر او مربعات كان يكتب فيها اسم السلطان . اما كسوة الكعبة المشرفة فقد استخدم (المقرىزى) اسمها صريحا ، وقد استجد فيها (ايضا) اشياء غير التى استجدت في زركشة كسوة المحمل ، ولعل كلمة (ايضا) عند (المقرىزى) تفصح ان هناك في هذا الاحتفال شيئين مختلفين ، هما كسوة المحمل بشمسائها المزركشة ، وكسوة الكعبة بزخارفها المخصصة . هذا فضلا عن ان ابعاد ومقاسات تلك الشمسة التى تنسب للخليفة الفاطمى (المعز لدين الله) التى مقاسها ١٢ شبرا طولا وعرضا لا تتناسب على الاطلاق مع ابعاد الكعبة المشرفة !! (٤٣) القلقشندي - صبح الاعشى - ص ٢٨١ ح ٤ ، عبدالقادر الانصارى الجزيرى - درر الفوائد المنظمة ، - ص ٢٤٧ .

(٤٤) المقرىزى - خطط المقرىزى ، - ص ٣٣٨ ح ١ .

(٤٥) ابن ايلس - يدائع الزهور ، - ص ٢٠٥ ح ١ .

(٤٦) صفحة ٢٢٤ ح ٢ .

(٤٧) ابن تغرى بردى - د النجوم الزاهرة ، - ص ٢٧٦ ح ٤ - المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٣٥ ، الحافظ ابي الطيب تقي الدين احمد الفاسى - د شفاء الغرام ، - ص ٢٢٥ ح ٢ .

(٤٨) يوسف احمد - المحمل والحج ، - ص ٢٤١ .

(٤٩) ابن تغرى بردى - د النجوم الزاهرة ، - ص ٩٥ ح ٥ ، المقرىزى - د الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء والملوك ، - ص ٦٦ - مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٥ .

(٥٠) ابن تغرى بردى - د النجوم الزاهرة ، - ص ٩٥ ح ٥ .

(٥١) اللواء ابراهيم رفعت باشا - د مرة الحرمين ، - ص ٢٨٣ ح ١ .

(٥٢) النويرى - د نهاية الارب ، - ص ٢٨٤ ح ٢٣ - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٠ .

(٥٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - د درر الفوائد المنظمة ، - ص ٢٧٧ ، المقرىزى - د الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء والملوك ، - ص ٨٠ - مكتبة الخانجي ١٩٥٥ .

(٥٤) المرجع السابق - ص ٢٨٠ .

(٥٥) لم يذكر المؤرخون لاحد من سلاطين الدولة الايوبية - وهى الدولة التى ثلت عصر الفاطميين ، وسبقت عصر سلاطين المماليك - انه قام بكساء بيت الله الحرام . وقد يقال ان الدولة الايوبية انشغلت بامور معاركها التى كانت من اجل تطهير الاراضى الاسلامية من مرائن الاسلام من غزاة الصليبيين عن هذه المهمة الجليلة ، التى تخص كساء كعبة الاسلام المقدسة . ولكننا نشك في ذلك ، وفي رأينا ان الذى انصرف عن ذلك هم المؤرخون انفسهم ، حيث كانت درامية الاحداث التاريخية المخضبة بالدماء وقتها لها من لها من العنف ، بحيث انستهم ان يرصدوا ويدونوا شيئا في كتبهم عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة في العصر الايوبى .

وفي التاريخ نجد ما يشبه الشواهد الظنية على قيام بعض سلاطين العصر الايوبى بكساء بيت الله الحرام .

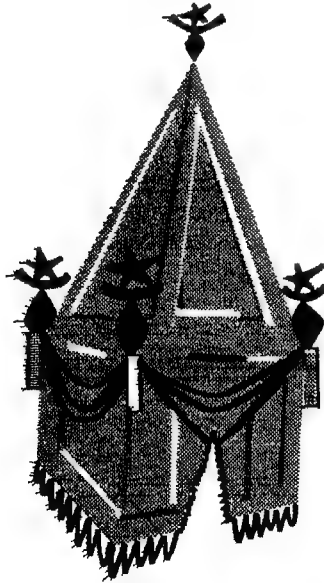
من ذلك ما رواه (ابن ايلس) عن قيام السلطان (الناصر صلاح الدين) الايوبى بإيقافه ببلدين في صعيد مصر هما (نقادة) و (قبالة) ، وذلك للانفاق من ريعهما على الحرمين

- الشرقيين . وكان شيخ الحرم المدني حينما ياتي إلى أحد من سلاطين الدولة الأيوبية يقومون له ويجلسونه إلى جانبهم ، احتراماً وتقديراً وتقديراً له ، بل كان هؤلاء السلاطين - على حد قول (ابن ايلس) - ، يتبركون به ، لقرب عهده من تلك الأملكن الشريفة ، واستمر ذلك إلى أيام السلطان الأشرف « برسيلى » - راجع (ابن ايلس) في كتابه « بدائع الزهور » - ص ٢٤٣-١ .
- (٥٦) العنصرى المحكى - « سبط النجوم العوالى » - ص ٢٢٢-٤ - المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٤هـ .
- (٥٧) اللواء ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٣-١ .
- (٥٨) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٥٣٧-١ .
- (٥٩) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٣١٢ - المطبعة السلفية بالقاهرة - بدون تاريخ .
- (٦٠) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ١٩٠-١٢٢ ق ١ - مطبعة لجنة التاليف والترجمة ١٩٧٠ .
- (٦١) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٨٨-٣ .
- (٦٢) المرجع السابق - ص ٩٠-٣ .
- (٦٣) المرجع السابق - ص ١٥٨-٢ .
- (٦٤) المرجع السابق - ص ١٥٨-٢ .
- (٦٥) المرجع السابق - ص ١٦٠-٢ .
- (٦٦) المرجع السابق - ص ٢٤٤-٢ .
- (٦٧) المرجع السابق - ص ٢٤٥-٢ .
- (٦٨) المرجع السابق - ص ٢٩٦-٢ ، عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٣٣٧ .
- (٦٩) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢٨٠ .
- (٧٠) المقرئى - « الذهب المسبوك » - ص ٩١ .
- (٧١) الجبريتى - « عجائب الآثار » - ص ٣٠-١ - دار الجيل ببيروت - بدون تاريخ .
- (٧٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢٨٣ .
- (٧٣) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٣٣٦-١ ق ٣ .
- (٧٤) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ٧٠٦-١ ق ٣ .
- (٧٥) ابن بطوطة - « رحلة ابن بطوطة » - ص ٣٩٢-٣ - كتاب التحرير رقم ١٦٨ - دار التحرير للطباعة والنشر بالقاهرة .
- (٧٦) المرجع السابق - ص ١١٥ .
- (٧٧) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٤-١ .
- (٧٨) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٣٠٧ .
- (٧٩) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٥٠٥-١ ق ١ .
- (٨٠) اللواء ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٤-١ .
- (٨١) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٥-١ .
- (٨٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٣١٨ .
- (٨٣) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٧-١ .

- (٨٤) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ٦١٤ - ٢ ق ٢ .
- (٨٥) عبدالقاسم الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٢٣٤ .
- (٨٦) المرجع السابق - ص ٢٣٤ .
- (٨٧) عبدالرحمن محمود عبدالقواب - « قاييتباي المحمودى » - ص ٢٠٧ .
- سلسلة الاعلام رقم (٢٠) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ .
- (٨٨) يمكن رصد تلك المؤلفات على النحو الآتى :
- سنة ٩٠٨ هجرية من كتاب « بدائع الزهور » لابن اياس ص ٤٩ - ٤ ، سنة ٩١٠ هجرية ص ٧٢ - ٤ ، سنة ٩١١ هجرية ص ٨٩ - ٤ ، سنة ٩١٥ هجرية .
- ص ١٢٧ - ٤ ، سنة ٩١٨ هجرية من ٢٨٧ - ٤ ، سنة ٩١٩ هجرية من ٢٤٢ - ٤ ، سنة ٩٢٣ هجرية ص ١١٥ - ٥ ، وقد لورينها هنا بان يشاء الرجوع إليها .
- (٨٩) ابن اياس - « بدائع الزهور » - ص ١١٥ - ٥ .
- (٩٠) المرجع السابق - ص ٢١٢ - ٥ ، وقد تكرر ذلك ايضا فى عامى ٩٢٥ و ٩٢٤ هجرية -
- لنظير (ابن اياس) فى « بدائع الزهور » - ص ٢٧٨ - ٥ ، ٣١٦ - ٥ .
- (٩١) المرجع السابق - ص ٢١٣ - ٥ .
- (٩٢) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٥٣ - ١ .
- (٩٣) للعصلى المكي - « صحت النجوم العوالى » - ص ٣٥٦ - ٤ .
- (٩٤) المرجع السابق - ص ٤٢٨ - ٤ .
- (٩٥) محمد صالح الشيبى - « إعلام الانام » - ص ١٦٨ .
- (٩٦) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٥١ - ١ .
- (٩٧) المرجع السابق - ص ٢٥١ .
- (٩٨) للجبريتى - « مظهر القديس » - هامش ص ١٦٦ - ١ - الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٦١ .
- (٩٩) الجبريتى - « عجائب الآثار » - ص ٢٥٠ - ٢ .
- (١٠٠) للجبريتى - المرجع السابق - ص ٤٠٥ - ٢ .
- (١٠١) المرجع السابق - ص ٤٠٦ - ٢ .
- (١٠٢) المرجع السابق - ص ٤٠٨ - ٢ .
- (١٠٣) المرجع السابق - ص ٥٠٢ - ٢ .
- (١٠٤) علماء الحملة الفرنسية - « وصف مصر » - ص ٢٣٦ - ٥ .
- (١٠٥) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦٠ - ١ ، نقلا عن هامش ص ١٧٢ تاريخ مكة الأثرى .
- (١٠٦) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦١ - ١ .
- (١٠٧) الجبريتى - « عجائب الآثار » - ص ٩٩ - ٣ .
- (١٠٨) المرجع السابق - ص ٩٩ - ٣ .
- (١٠٩) المرجع السابق - ص ١٤٠ - ٣ .
- (١١٠) المرجع السابق - ص ٤٠٨ - ٣ .
- (١١١) المرجع السابق - ص ٤٦٧ - ٣ .
- (١١٢) انوار ولیم ابن - « المصريون المحدثون » - ص ٤٠٦ .
- (١١٣) المرجع السابق - ص ٤٠٦ .
- (١١٤) المرجع السابق - ص ٤٠٧ .

- (١٦٥) المرجع السابق - ص ٤٠٨ .
- (١١٦) هذه التي ذكرها ليست معلومة غير دقيقة ، فلم تكن الملكة (شجر الدر ، هي أول من أرسل ستارة باب الكعبة المشرفة والمسماة باسم (البرقع) ، وإنما كان عام ٨١٠ هجرية هو عام إدخال ستارة باب الكعبة الحقيقي ، ولا يمكن بالطبع التأريخ بما جاء على لسان العلامة في عصر (محمد علي) ، أرجع إلى مجلة الفيصل العدد (١٢٦) ، ذو الحجة ١٤٠٧ هجرية الموافق أغسطس ١٩٨٧ - ص ٦٢ .
- (١١٧) إدوارد وليم لين - « المصريون الحديثون » - ص ٢٠٩ .
- (١١٨) من نص وثيقة الأشهاد الشرعي لكسوة عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ١٨٦٤ ميلادية ، وهي منشورة في كتاب « اعلام الأئمة بتاريخ بيت الله الحرام » للشيخ محمد صالح الشيباني - ص ٢٩٨ .
- (١١٩) عبدالله النديم - الأعداد الكاملة لمجلة الاستاذ - ص ٨٩٣ ج ٢ - كتب خاتمة .
- (١٢٠) من لوشيف دان كسوة الكعبة الشريفة .

□ □ □





ديار عمل كسوة الكعبة المشرفة وموظفوها

تقع الآن (دار كسوة الكعبة الشريفة) في حي
الخرنفش بالقاهرة ، عند قرب النقاء شارع بين السورين
وميدان باب الشعرية .

صحيح إن الدار الآن أصبحت هادئة الحركة والعمل
إلا أنها كانت ذات مجد عريق في عمل كسوة الكعبة
المشرفة منذ زمن بعيد .

وفي تاريخ عمل كسوة الكعبة المشرفة أماكن كثيرة صنعت بها ، مثل دمياط
والقلعة ودور الأمراء ، ودار الخرنفش ودار الاسكندرية ومكة المكرمة .
فقد كانت (تنيس) بالقرب من دمياط ذات شهرة كبيرة في عمل كسوة الكعبة
المشرفة ، ومعها (شطا) و (تونه) منذ أوائل العصر العباسي كما ذكرنا من
قبل ، فقلاعن (القريري) في خطه .

وانتقل عمل كسوة الكعبة المشرفة إلى مشهد الإمام (الحسين) - رضى الله عنه
بالقاهرة في العصر المملوكي ، فالقلقشندي - المتوفى سنة ٨٢١ هجرية - يقول
عنها : « ... وهذه الكسوة تنسج بالقاهرة المحروسة بمشهد الحسين من الحرير
الأسود ، مطرزة بكتابة بيضاء في نفس النسيج ، فيها : « إن أول بيت وضع
للناس - الآية » (١) .

ولم يكن المشهد الحسيني هو المكان الوحيد الذي تُنسج فيه وتُغزل كسوة
الكعبة المشرفة ، بل كانت هناك (دار الطراز بثغر الاسكندرية) وعن هذه الدار
قال (القلقشندي) ضمن ما سجل عن عام ٧٤١ هجرية :

« فليباشر هذه الوظيفة التي كانت في سالف الزمان إلى الحكام تضاف ،
وللعلماء الاعلام عليها نظر وإشراف ، ومنها يسدل على املائنا لباس الإنعام ،
وترسل اجناس الاتحاف ، وتسربل الكعبة البيت الحرام في كل عام بجلبابها
المحكم النسيج المعلم الاطراف ، وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزن خزها
بتقريب مشوبة وتحرير محصنة ، وليبين عن حسن التدبير في إبرام حريرها
ونقصه ، وليستجلب رجالها وصناعها ، وليجنب احوالها ضياعها ، وليستجد
اصنافها وانواعها ، وليتفقد اكنافها وبقاعها ؛ حتى يظهر في اعمالها آثار
الصلاح ، وتشكر مباشرته التي هي محمودة الانتباه مسعودة الافتتاح ، والله
يقرن رجاءه بالارياح ، ويؤذن له حيث سلك بإصابة الصواب والفلاح ، بمنه
وكرمه . » (٢)

ولقد أكد لنا وجود دار لعمل كسوة الكعبة المشرفة في نجر الإسكندرية ما ذكره (المقرئى) من أن السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاوون) إبان الفترة الثالثة لسلطنته في عام ٧١٩ هجرية عندما تجهز للحج أمر ناظر الخاص (كريم الدين بن عبد الله بن السديد) بتجهيزه والسفر إلى الإسكندرية لعمل ثياب اطلس برسم الكعبة. (٣)

من هنا نستطيع أن نقف وقفة مع هذه الوظيفة المملوكية ، وهى وظيفة (ناظر الخاص) ، التى كانت تضطلع بمهمة عمل كسوة الكعبة الشريفة إلى جوار الكسوى المملوكية الأخرى والخاصة بثياب السلطان والأمراء والمباشرين ، وأشياء أخرى كثيرة لكنها محددة .

لقد برزت هذه الوظيفة على سطح الأحداث لأول مرة في عام ٧١٤ هجرية في عهد السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاوون) ، إبان سلطنته الثالثة .

قال (ابن إيس) في ذلك : « ... أخلع السلطان على كاتبه القاضى (كريم الدين عبد الكريم بن عبد الله بن السديد) ، واستقر به ناظر الخاص : وهو أول من تلقب بـ ناظر الخاص ، وأول من ولى هذه الوظيفة ، وهى محدثة ، فرع من الوزارة : وموضوع هذه الوظيفة ، أن يكون مباشرها متحدثا فيما هو خاص من أمور المملكة وعلم ، وأقربت إليه النقائص ، والكسوى ، وخلع الأمراء والتجند ، والأصحية ، وخلع عيد الفطر ، وكسوى حرم السلطان ، وما يجرى مجرى ذلك . » (٤)

فلما تولى هذه الوظيفة القاضى (كريم الدين بن السديد) ، عظم أمره ، فكان - كما ذكر (ابن إيس) - يركب في خدمته الأمراء وأعيان الناس عندما كان ينزل من القلعة إلى بيته ، وصار له من الشأن ما أباح له حرية التصرف في خزائن بيت المال بعد أن فوضه السلطان بذلك ، وقال فيه الشعراء شعراً ذا مديح . وقد حج القاضى (كريم الدين بن السديد) مرتين : أولهما مع السلطان نفسه عام ٧١٨ هجرية ، وثانيتهما عام ٧٢١ هجرية مع محمل السلطنة (خوند طغاي) زوجة السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) . (٥)

ظل ناظر الخاص القاضى (كريم الدين بن السديد) يشغل وظيفته ، وعمل كسوة الكعبة المشرفة في الإسكندرية عام ٧١٩ هجرية كما سبق ذكر ذلك (المقرئى) ، إلى أن عزله السلطان في عام ٧٢٢ هجرية ، وعين القاضى (تاج الدين بن عبد الوهاب) بدلا منه . (٦)

وفي عهد السلطان (الظاهر برقوق) خول السلطان من يشغل وظيفة الاستادار المشاركة في تجهيز كسوة الكعبة ، فكان اختصاص الاستادار كاختصاص الوزير وناظر الخاص جميعا (٧)

ولذلك ضرب السلطان (الظاهر برقوق) استاداره (جمال الدين محمود) « علقة صعبة » - كتعبير (ابن إيس) - بسبب تأخر الكسوة في عام ٧٩٧ هجرية عن عودتها . (٨)

قد يتبادر إلى ذهن أحد أن هذه (العلاقة الصعبة) كانت بسبب تأخر (الكسوة) أي كسوة السلطان أو الأمراء والاتباع، إذ أن المعنى يشمل ذلك، لكننا نلمح في الأحداث في شهر صفر من السنة التي تليها وبعد ثلاثة شهور فقط تغييراً جديداً، وتعيين (علاء الدين علي بن الطبلاوي) استداراً خاصاً الخاص، ونظر كسوة الكعبة، عوضاً عن (تجم الدين محمد الطنبدي) وكيل بيت المال.^(٩)

وفي عام ٨٢٤ هجرية عين السلطان المملوكي (الظاهر ططر) في وظيفة «نظر الخزانة والكسوة الشريفة» المملوك (شرف الدين بن تاج الدين بن نصر الله)^(١٠)

وقد مدح (المقريزي) هذا الناظر لما بذله في عمل كسوة الكعبة المشرفة في عام ٨٢٥ هجرية. قال يصف دوران العمل المصري وقتها: «لدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة. وقد كثر الاعتناء بأمره، وعملت كسوة الكعبة في غاية الحسن، بحيث لم يعمل مثلاً فيما ليركناه. وولي عملها (شرف الدين أبو الطيب محمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله) ناظر الكسوة، لحسن معاشرته وعفته».^(١١)

أما في عصر السلطان المملوكي (الأشرف إيتال) فقد أصبح لمنصب ناظر الخاص أهمية كبيرة يقرها ولاية الأمر وسائر الناس من العامة. ففي شوال سنة ٨٥٩ أمر السلطان المملوكي (الأشرف إيتال) بعمل كسوة للحجرة الشريفة، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظر الخاص (الجمالي يوسف) على السلطان، فما كان من السلطان إلا أن أهداه خُلعة هي «كلمية حافظة»^(١٢) لم يكن تقرر ناظر الخاص (الجمالي يوسف) بكسوة من السلطان أو بخُلعة منه جرتديها في مناسبة من المناسبات بذات قيمة تذكر بجوار حب الناس له بسبب براعته في عمله. وليس أدل على ذلك من يوم أن مرض (الجمالي يوسف) فخفقت له مشاعر الناس.

قال (ابن إياس) في حوادث شهر شوال سنة ٨٦٠ هجرية: «وفيهِ حصل للقاضي ناظر الخاص (يوسف) توعك في جسده، فانقطع عن طلوع القلعة أياماً، ثم شفى بعد ذلك وطلع إلى القلعة، فأخلع عليه السلطان كلمة حافظة، ونزل من القلعة في موكب حافل وقُدَّامه أرباب الدولة وأعيان الناس، وزينت له القاهرة من داره إلى القلعة، وقعدت له جوق المغاني على الدكاكين، وتخلَّقت الناس يلازغفران، ووقدوا له الشموع على الدكاكين، وكان له يوم مشهود، وفيه يقول الشهاب المنصوري:^(١٣)

يا جوهر الفرد الذي عن جسمه زال العرض
أجفان من أصيبته تخَلَّتْ عنك المرض
وفي عام ٩٠٨ هجرية أيام سلطنة (الغوري) عين السلطان ناظراً للكسوة

الشريفة هو القاضي (محيي الدين عبد القادر القصري) . وكان يشغل قبل ذلك وظيفة ناظر الجيش .^(١٤)

واحتمى السلطان (الغورى) بناظر الكسوة هذا في كل مناسبة خاصة بعمل الكسوة الشريفة . ففي يوم الاثنين تاسع عشر من شهر رمضان سنة ٩١٢ هجرية ذكر (ابن إيس) أنه : « عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، وهى مزفوفة على رعوس الحماليين ، وشقوا بها القاهرة ، وكان يوماً مشهوداً . وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة ، فالبسه السلطان خلعة لكونه ثار في هذه السنة بالسداد »^(١٥)

وبالطبع شمل هذا السداد ما ناطه به السلطان وكلفه من عمل كسوة الكعبة المشرفة ولوازمها .

كان يعد هذا الاحتفال يوم عيد يفرح به الخاصة والعامة ، وكان من أبرز الشخصيات فرحا بذلك ناظر الكسوة الشريفة ، الذى كان هذا اليوم بالنسبة له كيوم عرسه .

ففى يوم الخميس ثامن شوال : « عرضت كسوة الكعبة على السلطان ومقام (إبراهيم) - عليه السلام - وقد شقوا من القاهرة وهى على رعوس الحماليين مزفوفة ، فلبس القاضي ناظر الجيش (عبد القادر القصري) في ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضا . »^(١٦)

وفي يوم رابع عشر شوال سنة ٩١٩ هجرية ذكر (ابن إيس) خبر وفاة أحد ناظر الكسوة الشريفة ، الذى شغل هذا المنصب أيام السلطان المملوكى (الأشرف قايتباى) ، والذى يعنينا هنا في هذا الخبر وصف ما كان يتمتع به هذا الناظر من مميزات وما كان له من مكانة طيبة بين عليّة الناس .

قال عنه : « كان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف (قايتباى) حين كان خاصكياً إلى أن بقى سلطاناً ، ورأى في أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره ممن سبقه ، وكان بيده مهترّة الطشتخانة الشريفة ونظر الكسوة الشريفة والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى لأرباب الدولة من بابه . ويقال كان متحصلة في كل يوم نحواً من أربعين ديناراً . »^(١٧)

وحينما جاء العصر العثماني وغزت الدولة العثمانية مصر اختار السلطان العثماني (سليم الأول) أبرز رجل في مصر في ذلك الوقت ليكون مشرفاً على شئون الدولة وهو ملك الأمراء (خاير بك) ، وأبقى (خاير بك) هذا القاضي (علای الدين بن الإمام) في نظارة الخاص ، مضافاً لما بيده من وظائف عديدة ، وقيل إنه قرر في نظر الكسوة الشريفة أيضاً وجعله أمير ركب المحمل أيضاً ، وصار بيده خمس وظائف .^(١٨)

كل هذا الاهتمام بعمل كسوة الكعبة المشرفة في العصرين المملوكى والعثماني ، من ناحية الاهتمام بصناعتها والقائمين عليها يثير لدينا تساؤلاً . وهو أين كانت

تصنع كسوة الكعبة المشرفة خلال هذين العصرين ؟
في الحقيقة لقد تأكد لدينا أن دار صناعة وعمل كسوة الكعبة المشرفة كانت في العصر المملوكي بالقلعة .

وقيل إنها عملت بداخل القلعة في (القصر الأبلق) الذي أنشاه السلطان المملوكي (الناصر محمد بن قلاوون) سنة ٧١٣ هجرية .^(١٩)
لقد ذكر (المقرئى) عن هذا القصر في خطه أنه كان به رسوم وعوايد ، تغير كثير منها وبطل معظمها ، وبقيت إلى الآن بقايا من شعار المملكة ، ورسوم السلطنة .

وربما كانت حياة وتطريز كسوة الكعبة المشرفة من العوايد التي أشار إليها (المقرئى) بالبقاء في القلعة في داخل هذا القصر .
لقد كان هذا القصر مكان جلوس السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) لشئون الحكم ، وبه عدة قصور داخلية سماها (المقرئى) في خطه ، قصور جوانية ، - أى داخلية - ويعبر إليها خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه ، ويقال لها خدمة القصر .

لقد وصف (المقرئى) هذا القصر الأبلق وصفا دقيقا ، من حيث مكوناته وأقسامه وزخارفه ، فقال : « وفي هذا القصر تجاه بابيه رحبة يسلك إليها من الرحبة التي تجاه الأيوان . يجلس بالرحبة التي على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر . ويمشى من باب القصر في دهليز مفروشة بالرخام ، قد فرش فوقه أنواع البسط ، إلى قصر عظيم البناء شاهق في الهواء بأبوابين : أعظمهما الشمال ، يطل منه على الأسطبلات السلطانية ، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها إلى نحو النيل ، وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفي الإيوان الثاني القبلي باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب ، ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد إليهما بدرج ، في جميعها شبلييك حديد تشرف على مثل منظر القصر الكبير . وفي هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعة من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مفره إلى موضع ثم إلى آخر ، حتى ينتهي الماء إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان ، فيجرى الماء في دورهم ، وتدور به حملاتهم . وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء . وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ، موزعة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات ، وسقفها كلها مذهب قد موته بالانزورد ، والنور يخرق في جدرانها بطاقت من الزجاجات القبرسي الملون كقطع الجواهر المؤلفة في العقود . وجميع الأراضي قد قرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض ، مما لا يوجد مثله . »^(٢٠)

ولقد عقرنا على مكان عمل وزركشة . كسوة الكعبة المشرفة في العصر العثماني أثناء ولاية (علي باشا) على مصر من خلال كتابة أحد الرحالة الشوام خلال زيارته لها في عام ١١٠٥ هجرية الموافقة ١٥٩٦ ميلادية .
هذا الرحالة هو العالم الفاضل (عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي ، المولود في عام ١٠٥٠ هجرية والمتوفى عام ١١٤٣ هجرية

لقد ذهب في يوم سادس عشر من جمادى الأولى سنة ١١٠٥ هجرية للتفرج على قلعة الجبل ، وبعد أن شاهد أبراجها قال : « ثم دخلنا إلى محل قصر يوسف عليه السلام ورأينا المكان الذي يعملون فيه ثوب الكعبة هناك ، فيحيكونه بسداوات من الحرير ، بعضها فوق بعض ، وناس قاعدون فوق ذلك على دفوف مرتفعة ، وناس قاعدون تحت على كراسي ، فإذا حاكوا حصة من ذلك ظهرت الكتابة فيه ، ورأينا هناك قالبا من الأخشاب المنحوتة كبيرا بمقدار الكعبة ، يفكونه ويشبكونه ببعضه بعضا ، يقيسون عليه كسوة الكعبة على مقدار الكعبة ، دايما يشتغلون في ذلك من السنة إلى السنة . ورأيناهم يحيكون أيضا ثوبا للقبر الذي في داخل حجر إبراهيم - عليه السلام - بقرب الكعبة . ودخلنا إلى مكان آخر ، فرأينا أناسا يحيكون البسط المستطيلة التي تشبه السجادات المتصل بعضها ببعض ، ذات المحاريب الملونة لبسطها في مسجد المدينة وغيره ، فلما وجدنا ذلك تفاؤلنا بحصول الحج الشريف لنا إن شاء الله تعالى . » (٢١)

ويقول (كازانوف) : إن بيت (قصر) يوسف ليس شيئا آخر سوى القصر الأبلق الذي أنشاه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في شعبان سنة ٧١٣ هجرية . (٢٢)

وخلال الفترة التي عاشها (الجبرتي) شهد بنفسه نزول كسوة الكعبة من القلعة والاحتفال بها أمام الناس ، ففي حوادث شهر شوال سنة ١٢٠٠ هجرية ، قال : « وفي يوم السبت ، نزلت الكسوة من القلعة على العادة إلى المشهد الحسيني ، وركب (إبراهيم بك) الكبير و (إبراهيم بك) أمير الحاج إلى قراميدان ، ونزل الباشا كذلك ، وأكد على أمير الحاج في التشهيل ، فاعتذر إليه بتعطيل الأسباب ، فوعده بالمساعدة . » (٢٣)

كما ذكر ذلك في حوادث شهر شوال سنة ١٢٠٢ هجرية ، حيث قال : « وفي يوم السبت ثامنه نزلوا بكسوة الكعبة من القلعة إلى المشهد الحسيني على العادة . » (٢٤)

وفي عام ١٢١٣ هجرية ابتدا عمل كسوة الكعبة المشرفة بأخذ له مكانا آخر غير قلعة الجبل ، قلب ومركز نظام الحكم في مصر ، وانتقل إلى ديار بعض كبار رجال مصر المبرزين ، وكان أولى بذلك أكبر اسم في القاهرة ، وهو الذي يشغل منصب يعادل حاكم القاهرة أو محافظها ، أو ما يسمى باسم الكتخدا .

قال (الجبرتي) في حوادث شهر شوال من هذا العام : « ... وكان نسج

الكسوة بدار (مصطفى كتحدا / المذكورة ، وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة .^(٢٥)

وبخروج عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة من القلعة إلى ديار كبار رجال مصر أعطى هذا اتباعهم الحق في ان يكونوا هم نظار الكسوة الشريفة بالطبع ، لانهم كانوا المشرفين على تنفيذها وزركشتها ، وكان يحق لهم الظهور في احتفال الكسوة الشريفة وهم تحفهم كل مظاهر الابهة والفخامة ، برفقة موسيقية وحفل استعراضى كبير كالعتاد ، وهذا ما حدث في احتفال عام ١٢١٣ هجرية .

ولان هذا العلم كان عام الغزو الفرنسى بقيادة (نابليون بونابرت) على مصر ، ولان (مصطفى كتحدا) هذا قد عُيِّن أميراً للمحمل المصرى ، وفر من وجه جنود الحملة الفرنسية ، فقد ذكر (الجبرتي) انه في يوم الاحد الرابع والعشرين من شوال لرسل جنود الحملة إلى داره عسكرياً قبضوا على رب بيته الذى كان ناظراً على الكسوة ومعه اتباعه في الدار ، وارسلوه من الدار إلى القار ، أى إلى سجن الجيزة .^(٢٦)

وعلى ما يبدو ان كسوة الكعبة المشرفة هذه لم تكن كلمة او جاهزة للسفر إلى الاراضى الحجازية مع قلعة حجاج سنتها ، لذا رُؤى تعيين السيد (إسماعيل الوهبى) المعروف باسم (الخشاب) المنتظر في اتمامها ، فانتقلت إلى بيت (ايوب جلويش) بجوار مشهد السيدة زينب ، وتممها هناك كما ذكر الجبرتي .^(٢٧) وبيت (ايوب جلويش) هذا هو حوش (ايوب بك) الذى كان موجوداً بعد المسجد للزينبى في اتجاه شارع زين العابدين بالسيدة زينب ، وظل موجوداً حتى لوائك الستينات من هذا القرن ، ثم هدم ، وكان ذو فناء واسع نصفه مسقف والنصف الآخر مكشوف ، ومدخله معقود بالحجر ويحتوى على قاعات فسيحة ذات دورين شاهداها بانفسنا وقتها ، وكان يشغله تجار الروبايكيا والادوات القديمة المهمة .

ويذكر لنا (الجبرتي) في حواشي شهر رجب سنة ١٢١٩ هجرية ان عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة انتقل إلى بيت لخر .

قال : « وفي هذا الشهر ، شرعوا في عمل كسوة الكعبة بيد السيد (احمد المحرقى) فغيد بها وكيله بذلك ، وشرعوا في عملها في بيت الملا بحلة المقاصيص ،^(٢٨)

وهذا البيت وصفه كل من (على باشا مبارك) و (المقرئى) ، فقال الاول : إنها دار دخلت في وقف الملا ، وعرفت في وقت (على باشا مبارك) باسم (دار الملا) ، وهذه الدار باقية على أصلها تجاه من يسلك من ناحية باب سر المرستان المنصوري طلبا سوق الصيرفة او المقاصيص ، لانها قاصلة بين السوقين ، فالخارج منها يصير بين ثلاثة مسلك : واحد عن يمينه يتوصل منه إلى المقاصيص والخارجية ، والثانى عن يساره يسلك منه إلى ما بين دكلين الصيارف وإلى حارة

اليهود والثالث امامه يسلك منه إلى المارستان المنصوري ، ويوجد بهذه الدار إلى اليوم مقعد عظيم جدا ، وقاعة ارضية كبيرة ذات إيوانين بينهما درقاعة ، ولها مدخل كبير ، وسقفها مرتفع إلى الغاية ، ويوجد بها أيضا جملة مداخل ومخازن .^(٢٩)

اما (المقرئى) فقد ذكرها في خطه في موضعين : الاول تحت عنوان (رجة بيبرس الحاجب) ، والثاني تحت عنوان (دار بيبرس الحاجب) . فقال عن (رجة بيبرس الحاجب) : هذه الرجة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة . عُرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره بها . وبيبرس هذا هو الذى ينسب إليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب . وبهذه الرجة الآن فندق الأمير الطواشى ، زمام الدور السلطانية . (زين الدين مقل) . وبه صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رجة بيبرس الحاجب .^(٣٠) ثم قال عن (دار بيبرس الحاجب) : هذه الدار بخط حارة العدوية ، وهى الآن من خط باب سر المارستان . عُرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب فيما بين جسر بركة الرطلى والجرف .^(٣١)

وقال : إن هذه الدار كانت من ابهج دور القاهرة واعظمها ، وانتقلت ملكيتها من اولاد (فضل الله) إلى الأمير (تغرى بردى) الذى صارها لحسابه ، ولم تستطع ابنة صاحب الدار أن ترجعها إلى ملكيتها بسبب مخصصات بينها وبين ورثة الأمير (تغرى بردى) هذا .

دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش :

بعدما تولى (محمد على) الحكم في مصر عام ١٢٢٠ هجرية الموافق ١٨٠٥ ميلادية انتقل عمل وزرئية كسوة الكعبة املشرفة إلى القلعة مرة اخرى بحكم رجوع مركز الحكم إلى هناك ، وظل الامر مستمرا كذلك إلى ان انشا دار الخرنفش في عام ١٢٣٣ هجرية .

ولقد ذكر (الجبرتي) في أحداث شهر ذى الحجة من هذه السنة أحداثا كثيرة ، ومنها ، العمارة التى امر بإنشائها الباشا المشار إليه بين السوريين وحارة النصارى المعروفة بخميس العدس ، المتوصل منها إلى جهة الخرنفش ، وذلك بإشارة اكابر نصارى الافرنج وغيرهم ، وهى عمارة عظيمة ابتدؤا فيها من العام الماضى ، واستمروا مدة في صناعة الآلات الاصولية ، التى يصطنع بها اللوازم ، مثل السدالات ، والمخارط للحديد ، والقواديم ، والمناشير ، والتزجلات ، ونحو ذلك ، والفردوا لكل حرفة وصناعة مكانا وصناعا يحتوى المكان على الأنوال والدواليب والآلات الغربية الوضع والتركيب ، لصناعة القطن وأنواع الحرير والأقمشة المقصبات .

وبعد ان تم تجهيز هذه الورشة بالآلات والمعدات بقى تدريب الأيدى العاملة

على تشغيلها . وفي هذا الغرض قال (الجبرتي) ايضا : « وفي اواخر هذا العام ، جمعوا مشايخ الحارات والزمومهم بجمع اربعة الاف غلام من اولاد البلد : ليستغلوا تحت ايدى الصناع ، ويتعلموا ، ويأخذوا اجرة يومية ، ويرجعوا لاهاليهم اواخر النهار ، فمنهم من يكون له القرش والقرشان والثلاثة بحسب الصناعة وما يناسبها ، وربما احتيج إلى نحو العشرة آلاف غلام بعد اتمامها والمحتاج إليه في هذا الوقت القدر المذكور ، وهي كرخانة عظيمة صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال . »^(٣٢)

ومما اُشار (الجبرتي) فرى أن تشغيل هذه الدار كان بغرض صناعة الأقمشة المختلفة ، وضمن هذا عمل كسوة الكعبة المشرفة بها ، إذ أنها من المقصبات التي اُشار إليها .

ودار كسوة الكعبة المشرفة ذكرها (علي باشا مبارك) في خطه تحت عنوان (ورشة الخرنفش) ، ويفهم من كلامه عنها أنها كانت داراً لأحد الأمراء المصريين - وإن لم يذكر لنا من هو - ثم جعلها (محمد علي) ورشة للأغراض السابق ذكرها ، ثم يقول : « ... وهذه الورشة موجودة إلى الآن على ذمة الميرى ، لكنها بطلت كما بطل غيرها من الورش ، وهى اليوم معدة لتشغيل كسوة الكعبة الشريفة ، ادام الله تعظيمها . »^(٣٣)

وقد سُمي (كلوت بك) هذه الدار باسم (فاوريقة) وهو ما نعرفه الآن باسم فابريكا أو مصنع ، وقال عن محتوياتها أنها كانت مائتي عطة ، عشر منها للغزل الغليظ والباقي للغزل الدقيق . وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحد والمائة الثانية مائتين وستة عشر . »^(٣٤)

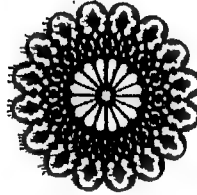
ويضيف (عبد الرحمن الرافعى) نقلاً عن (مانجان) واصفاً المحتويات : « وفي الفابريكة سبعون ماكينة ، وعدد يوازيها من العدد الأخرى لتجهيز القطن قبل غزله ، وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريكة قسم للنسيج به ثلثمائة نول تنسج من خيوط القطن أقمشة مختلفة أنواعها كالبافته والموسلين واليصمة والشاش والباتست . والأقمشة التي تنسج في هذه الفابريكة كانت ترسل لتبييضها في المبيضة التي انشئت لهذه الغاية على شاطئ النيل بين بولاق وشبرا ، ثم تعاد إلى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها ، ويوجد بالفابريكة ورش للحدايد والسباكين والخراطين والنجارين لإصلاح الآلات التي يصيبها العطب »^(٣٥) إذا فدار كسوة الكعبة الشريفة الموجودة الآن هى وريثة تراث عريق ، وهذا التراث تنقل هنا وهناك ، عبر بعض المدن والقرى المصرية التي اشتهرت بها إلى أن استقر في دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش .

كان صناع الكسوة المشرفة وعمال زركشتها من تقاليدهم المرعية أن لا يقوموا بالعمل فيها إلا إذا كانوا جميعاً في تمام الوضوء .

، وفي بداية عملهم اليومى يقومون بترديد جماعى لفاتحة القرآن الكريم - على غرار طريقة إلقاء طلاب الكتاتيب - بصوت جهورى يرج ، ليس فقط أرجاء دار الكسوة الشريفة وحدها بل أرجاء شارع الخريفش كله من أوله إلى آخره ، ثم يطلقون من حولهم البخور ، وبعد ذلك يرددون الآية القرآنية الكريمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٣٦)

ولقد كانت دار الكسوة الشريفة عامرة بعملها وزاخرة بفنييها ممن كانوا يقومون بالزركشة ، ومن واقع كشف بأسماء أسطوات هذه الحرفة نستطيع ان نحدد لهم على النحو الآتى :

□ □ □



بلاد تواريج الاحتلال على الزركسية وتجهيزهم مع مصلحة الحكومة البريطانية منذ عام ١٨٨٢ ميلادية لغزالي ١٢٠٨ هجرية . وهو الاسم كشف المكان المصور عليه

مسلسل	الاسم	تاريخ تولد	تاريخ تقاعد	تاريخ انتهاء	ملاحظات
١	محمد سلام	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٢	احمد حافظ	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٣	مطلق الدين	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩١٢-١٩١١	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٤	حسن احمد	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٥	مطلق درويش	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٦	محمد حسناح	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٧	محمد المستفي	سنة ١٨٨٤	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٨	محمد حسن الديك	سنة ١٨٨٤	سنة ١٩١٢-١٩١١	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٩	علي حسن	سنة ١٨٨٤	سنة ١٩١٢-١٩١١	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٠	حافظ محرم	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١١	محمد احمد الطار	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٢	احمد احمد الحلو	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٣	حسن محمد اللبني	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٤	محمد محمد السوي	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٥	محمد موزوق	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩١٢-١٩١١	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٦	محمد مطلق ربيع	سنة ١٨٩٢	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى الخدمة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٧	ابراهيم الجرجاني	سنة ١٨٩٢	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى العمل مع المصلحة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٨	عريف حسن	سنة ١٨٩٢	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى العمل مع المصلحة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
١٩	محمد علي الرضحي	سنة ١٨٩٧	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى العمل مع المصلحة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	
٢٠	احمد علي	سنة ١٨٩٨	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	عاد الى العمل مع المصلحة في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	

ملاحظات	تاريخ التوقيع	الاسم	سلسلة
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	حسن عزت	٢١
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد ربيع	٢٢
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد فريج	٢٣
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد محمد حسن السبايل	٢٤
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد حسن ندا	٢٥
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد زكي البياضي	٢٦
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	احمد ندا	٢٧
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	حسن مصطفى	٢٨
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد محمد خافي	٢٩
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد محمد حسن ندا	٣٠
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد فاهرس	٣١
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	حسن محمد الطار	٣٢
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	معتلي سامي	٣٣
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	عبد الحليم محمد	٣٤
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	علي محرم	٣٥
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمد حسين الليثي	٣٦
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	علي درويش	٣٧
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمود حسن محرم	٣٨
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	عبد السلام احمد الطور	٣٩
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	محمود علي	٤٠
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	عبد السلام محرم	٤١
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	علي مرزوقي	٤٢
عاد الى العمل مع التمهيد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٣٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٣٣	عبد الجيد حافظ	٤٣

ملاحظات	تاريخ التظلم	تاريخ تهمة	الاسم	مستطيل
عاه الى المصل مع التهمة في ١٩٢٥ ربح المصلحة ١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩٢٠	اسماعيل احمد	٤٤
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٤-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	حسن عبيد	٤٥
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	هل مختار الرقيق	٤٦
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	احمد عبد الله	٤٧
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	عبد الرازق محمد	٤٨
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	محمد احمد ادبي	٤٩
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	يوسف اسماعيل اسميل	٥٠
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	عبد الحميد محمد الجبر كل	٥١
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	محمد احمد عبد الوهاب	٥٢
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	عبدان عبد الحميد	٥٣
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	بنوي محمود	٥٤
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	محمد احمد عابدين	٥٥
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	ابراهيم مسلوله	٥٦
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	مسيد عاتور	٥٧
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	محمد راعي	٥٨
السنة الاولى مع التهمة والثانية مع المصلحة	١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٥-١٩٢٤	محمد نواز	٥٩
عاه الى المصل مع التهمة في ١٩٢٥ ربح المصلحة ١٩٢٣-١٩٢٥	١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩٢٠	اسماعيل احمد	٦٠

نحضر الى يناير سنة ١٩٢٨

ولقد برز في عهد الخديو (إسماعيل) من موظفي تشغيل وزرکشة کسوة الکعبة الشريفة في عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ١٨٦٤ ميلادية كل من :

١ - حسين فخرى جعفر : وكان يشغل منصب مأمور تشغيل الكسوة الشريفة ، وحصل على رتبة البكوية ، وهو ابن رئيس مجلس مدينة طنطا - أي طنطا - وهو الحاصل على رتبة الباشوية .

٢ - حسن محمد الهجين : متعهد تشغيل الكسوة الشريفة .

٣ - محمد محمد الشيخه : رئيس تشغيل الكسوة الشريفة .

٤ - علي محمد الهجين : فنى زرکشة .

٥ - مصطفى عبد اللطيف : فنى زرکشة .

٦ - سيد احمد الخيمي : عامل .

وقد حضروا جميعا وقائع تسليم کسوة الکعبة المشرفة في هذا العام إلى المحلى الحاج (احمد مصطفى) كما هو ثابت بإشهاد الكسوة الشريفة .^(٣٧)

وعمرت دار کسوة الکعبة الشريفة بعمالها وفنييها في الزرکشة ، وكان يكتب لها الخطوط كبار أئمة الخط في مصر ، وقد عُرف من هؤلاء :

١ - عبد الله زهدى : اشتهر بكتابة كساوى عديدة للکعبة المشرفة إلى جوار كتابة الحرمين وسبيل أم عباس بالصليبة بالقاهرة وتوفى عام ١٨٨٠ ميلادية الموافقة ١٢٩٦ هجرية .^(٣٨)

٢ - مصطفى الحريرى : وتلمذ على يد (عبد الله زهدى) وكتب عدة كساوى للکعبة المشرفة .^(٣٩)

٣ - مصطفى غزلان : كان رئيس قسم التوقيع بديوان الملك (فؤاد الأول) وكتب عدة كساوى منها کسوة عام ١٣٥٥ هجرية .^(٤٠)

٤ - حسين أفندى محمد الليثى : عمل رساما بدار الكسوة الشريفة ، وقام بعمل بعض الزخارف لها .^(٤١)

ومع مطلع القرن العشرين وحتى اواخره ظهرت اسماء عدة في إدارة دار کسوة الکعبة الشريفة بالخرنفس ، منها :

١ - عبد الله فائق إسماعيل إبراهيم : وكان يسكن في منطقة المحجر بالقلعة وظهر في احتفال الكسوة الشريفة في عام ١٩٠١ ميلادية الموافق ١٣١٨ هجرية ببدة تشريفة كاملة ، وهى الزى الرسمى ، وأمتطى جواداً وعلى يديه المبسوطتين كان كيس مفتاح الکعبة المعظمة .^(٤٢)

وقام في هذا الحفل بقيادة جمل المحمل وقدم مقوده إلى الخديو ثم قاضى القضاة وبعض الحضور ليقبلوه جميعا .^(٤٣)

ثم قام بتسليم زمام المحمل إلى الخديو الذى سلمه هو الآخر لأمير الحج .^(٤٤) وبقي (عبد الله فائق) مديراً للكسوة حتى ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية . وقد وفد على دار الكسوة الشريفة مديرون عديدون أمثال (عبد الله بك)

قبل عام ١٩٤٨ ، و (محمد شلبي طوبار) سنة ١٩٤٨ ، و (محمد إبراهيم صالح) سنة ١٩٥٤ ، و (محمد مصطفى ناجي) سنة ١٩٦٥ ، و (سيد مصيلحي) سنة ١٩٨٥ ، والذي مازال مديرها حتى وقت صدور هذا الكتاب في مايو ١٩٩١ ميلادية .

وبدار كسوة الكعبة المشرفة بالخرنفس نلمح على جدران حجرة مدير إدارتها الأستاذ (سيد مصيلحي) بعض شهادات تقديرية حصلت عليها الدار في عدة مهرجانات محلية وعالمية شهدت لها بالتفوق والاتقان والإبداع في أيام عزها الغابر .. !

ففي مارس سنة ١٩٢٦ حصلت دار الكسوة الشريفة من الجمعية الزراعية الملكية على شهادة تقدير والميدالية الذهبية للمعرض الزراعي والصناعي . وفي عام ١٩٣٠ حصلت على دبلوم التفوق من بلجيكا ، كما حصلت في عام ١٩٣١ على الجائزة الأولى من الجمعية الزراعية الملكية للمرة الثانية ، وفي عام ١٩٣٧ حصلت دار الكسوة الشريفة على شهادة تقديرية من فرنسا لاشتراكها في معرضها هناك . كل هذه الشهادات التقديرية ما هي إلا أصابع تشير إلى عظمة مجد دار الكسوة الشريفة الغابر ، والتي لو شاء لها القدر أن تشر مرة أخرى إلى حائلها اليوم لارتفعت صوب السماء قائلة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. !!

فلم يعد بالدار أحد ممن نسج مجدها ، وهجرها من أراد أن يتعلم هذه الحرفة ، وساعات وسائل الحفاظ بها ، وبقيت الكسوة الوحيدة الأخيرة بها صريعة أنياب ومخالب الفئران التي ترعى فيها منذ عام ١٩٦١ كما يقول بذلك عم (محمد عودة) أمين مخزن الدار .

ولم يبق بدار الكسوة الشريفة سوى (كامل يوسف اصيل) ، البالغ من العمر ٥٣ سنة ، ينحني فوق المنسج ، ويبيديه يمسك بخيوط المخيش فوق اقمشة كساوى بعض أضرحة الأولياء ، وبالطبع شتان ما بين عمل كسوة ضريح لولي وكسوة للكعبة المشرفة .. !!

في عام ١٩٨٨ كان بدار الكسوة الشريفة من عمال زركشتها كل من :

١ - أحمد سعيد عرقى - ٦٣ سنة

٢ - محمد سعيد عرقى - ٦٥ سنة

٣ - عبد المنعم يوسف اصيل - ٥٩ سنة

٤ - كامل يوسف اصيل - ٥٠ سنة

وكان قد سبقهم إلى المعاش (أحمد سعيد عبدالوهاب) ، ورحل (عبدالعزيز ندا) عن عالمنا إلى ربه ، كما رحل في عام ١٩٨٧ شيخ وأستاذ فن زركشة كسوة الكعبة المشرفة (محمد محمد سليمان خلف) ، والذي وصل به العمر إلى سن المائة ، أعطى خلال حياته كل خبرته للفن الذي عشقه وتعلمه من والده وجده وهو فن زركشة كسوة الكعبة المشرفة ، وعلى الرغم من أنه لم يعلم أحداً من أولاده هذه المهنة ، إذ أنه لم يرزق سوى بابنة وحيدة إلا أن الجيل الأخير من

عمّال زركشة كسوة الكعبة المشرفة يدينون له بالفضل لتعلمهم أصول فنهم على يديه ، كما علّم أجيالا سابقة لهم أيضا ، وظل حتى النفس الأخير محتفظا بالإبرة والكستان والمقص وخيوط المخيش الفضية والمذهبة في منزله بمدينة نصر . وكان من الطيبى ونحن نلم شتات هذا الفن العريق من أفواه من عاصروه أن نجلس إلى بعضهم ، ومنهم الحاج (محمد محمد سليمان خلف) ونستمع إليه عدة ساعات ، ولكن لأن مشيئة الله سبقت كل مشيئة فقد رحل هذا الأستاذ الفنان دون أن نأخذ منه ما يروى الظما إلا القليل النادر . وعلى الرغم من تكرار زيارتنا لدار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفس على مدار سنوات عديدة للبحث والتنقيب بين أثارها وفنيها ، فلم نجد من الجيل الذى كان يقوم بعمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة سوى فرد واحد هو آخر الرجال المحترفين لزركشتها .. !

آخر الرجال المحترفين :

يعد الحاج (كامل محمد حسن أمين ندا) آخر الرجال المحترفين في عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة . ويبلغ من العمر ٦٢ سنة ، وهو الآن بالمعاش ، غير أنه لم يترك خيوط المخيش حتى هذه اللحظة من يده ، حيث ما زالت أصول الحرفة تلازمه ، وينصب في بيته بالإمام الشافعى منسجا ، يزركش عليه اللوحات القرآنية ، التى لا زال يطلبها منه عشاق هذا الفن والأثر الإسلامى العريق . كان والده يعمل بنفس الحرفة ، عامل زركشة بدار الكسوة الشريفة بالخرنفس ، وهذا الوالد ورث المهنة عن أبيه كذلك ، حيث كانت عائلة (ندا) من العائلات المشهورة في عمل وزركشة كسوة الكعبة الشريفة منذ أجيال وأجيال . وللحقيقة ، لم يكن الحاج (كامل) عندما كان صبيا في عام ١٩٤٧ يريد أن يعمل في مهنة أبيه التى ورثها عن الجدود ، فقد بهرته الوظيفة (الميرى) في سلاح المهمات مثل باقى أصحابه ممن كانوا في مثل سنه ، غير أن الحاج والده ونصح له بجعله يمثل في النهاية ويرضخ ، ويقبل العمل بدار الكسوة الشريفة على مضض ، لأن والده كان يعتقد أن العمل في زركشة كسوة الكعبة المشرفة يعد بركة لاتعدلها بركة ، وقد كان .

دخل الصبى الصغير (كامل) دار الكسوة الشريفة بالخرنفس في عام ١٩٤٧ ، فوجدها عامرة بالأساطوات من كبار السن الذين برعوا في عمل الزركشة ، وكان بها نحو ستين من الفنيين وعمّال الزركشة لقد وجد وقتها منهم :

- ١ - الحاج / محمد محمد سليمان خلف - ٦٠ سنة
- ٢ - على محرم - ٥٥ سنة
- ٣ - زكى الجابى - ٦٠ سنة
- ٤ - يوسف أصيل - ٤٠ سنة
- ٥ - أحمد ندا (عمه) - ٦٠ سنة



■ الحاج كامل محمد حسن أمين ندا آخر الرجال
المحترفين حينما كان يعمل يدار الكسوة في
السعودية عام ١٩٧٥ ميلادية ■

- ٦ - عبدالعزيز احمد ندا (ابن عمه) - ٣٥ سنة
- ٧ - عثمان القصبجي - ٥٠ سنة
- ٨ - الاسطى باشا / محمد علي الملحي - ٦٠ سنة . (٤٥)
- ٩ - محمد مرزوق - ٦٥ سنة
- ١٠ - مصطفى سامي - ٤٠ سنة
- ١١ - ماهر علي حسن - ٦٠ سنة
- ١٢ - عبد السلام محرم - ٤٠ سنة
- ١٣ - عبد الحليم احمد علي - ٥٠ سنة
- ١٤ - عبدالرازق محمود الجمركي - ٦٠ سنة
- ١٥ - عبدالحميد الجمركي - ٧٠ سنة
- ١٦ - سعيد عبدالوهاب - ٤٠ سنة
- ١٧ - احمد علي - ٦٠ سنة
- ١٨ - سعيد امين - ٤٢ سنة
- ١٩ - الحاج / حسن امين ندا (والده) - ٥٠ سنة
- ٢٠ - امين ندا - ٦٠ سنة
- ٢١ - محمد الدجوي - ٦٠ سنة
- ٢٢ - عبد السلام الحلو - ٥٠ سنة
- ٢٣ - اسماعيل الحلو - ٦٠ سنة
- ٢٤ - عبد المجيد حافظ - ٤٠ سنة
- ٢٥ - فؤاد عبد المجيد - ٤٠ سنة
- ٢٦ - ابراهيم سلامة - ٥٠ سنة

اكتسب الحاج (كامل) اصول الصنعة بالصبر والمثابرة إلى ان اصبحت ممن يتميزون بالدقة والمهارة في عمل كسوى الكعبة الشريفة التي عملت وزرّكت بالدار مع قدوم كل عام .

ذات يوم من أيام عام ١٩٧٤ ، اراد ان يؤدي فريضة الحج ، فذهب إلى الاراضي الحجازية لتأدية الفريضة على نفقة رئاسة الجمهورية ، واثناء طوافه ببيت الله الحرام لم ينس مهنته في عمل زرّكتة كسوة الكعبة الشريفة ، فقد لاحظ ان الكسوة الشريفة التي قامت بصنعها المملكة العربية السعودية بها اخطاء فنية لا ترضيه كاسطى متمرس في مهنة زرّكتة الكسوة المشرفة ، فعلى حد تعبيره لاحظ ان (الشغل راكب فوق بعضه) ، بحيث تبدو الآيات غير مصفوفة كما كانت اصول الحرفة تقتضيها ، ولم يملك من الامر شيئاً وقتها سوى ان يعود إلى مصر بعد ان أدى فريضة الحج ، ويلوذ بالصمت .. ! .

في مصر اخذ الحاج (كامل) يفكر في كيفية تصحيح هذا الخطا الفني ، فتقدم لاداء العمرة على نفقته الخاصة ، وسافر إلى الاراضي الحجازية ، وهناك قابل المسؤولين عن دار الكسوة السعودية ، وشرح لهم وجهة نظره ، ولم يقف الامر

عند حدود التقدير للكشف والتبصير بالعيوب في الكسوة التي رآها ، بل أراهم بعض نماذج من غسل الكسوة التي كان قد اصطحبها معه ويحتفظ بها ، وأراهم كذلك بعض نماذج من لوحاته الفنية التي كان قد اشتغلها بخيوط المخيش الذهبية والفضية ، وجلس الحاج (كامل) قبالة كبار الفتيين السعوديين ، يسألونه وهو يجيب ، مراراً وتكراراً ، ثم قرروا في النهاية التعاقد معه نظير مبلغ ٢٥٠٠ ريالاً سعودياً شهرياً ، وتسلم الحاج (كامل) العمل هناك ليعلم ٤٠ فرداً سعودياً أصول المهنة بيديه ، ثم شارك بيديه في عمل كسوتين للكعبة المشرفة في دار الكسوة الشريفة بالسعودية في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ميلادية ، وهما العاملان اللذان عمل فيهما هناك .

عمل الحاج (كامل) وهو في السعودية لوحات ، يلحى يا قيوم ، و « يارحمين يارحيم » التي توضع في أركان كسوة الكعبة المشرفة ، وكذلك لفظ الجلالة ، وكان يبيع للتجار ولعمال دار الكسوة السعودية أنفسهم نتائج عمل يديه . وكان ربحه من هذا النتائج وغيراً ، وصدق معه نصيح والده الذي أسداه إليه في بداية حياته ، في أن العمل في زركشة الكسوة الشريفة بركة لا تعدلها بركة لأى شيء آخر .

لم يتعلم أحد من أولاد الحاج (كامل) مهنته لصعوبتها ، وحدث أن عين في معهد طرة الصناعى سنة ١٩٧٠ ميلادية لتدريب مجموعة من الصبية على عمل زركشة الكسوة الشريفة ، واستمر أربع سنوات قام خلالها بتدريب أحد عشر صبياً ، ولكن - للأسف - لم يستمروا في هذه المهنة لعدم امكانية تعيينهم عمال زركشة بوزارة الأوقاف .. !

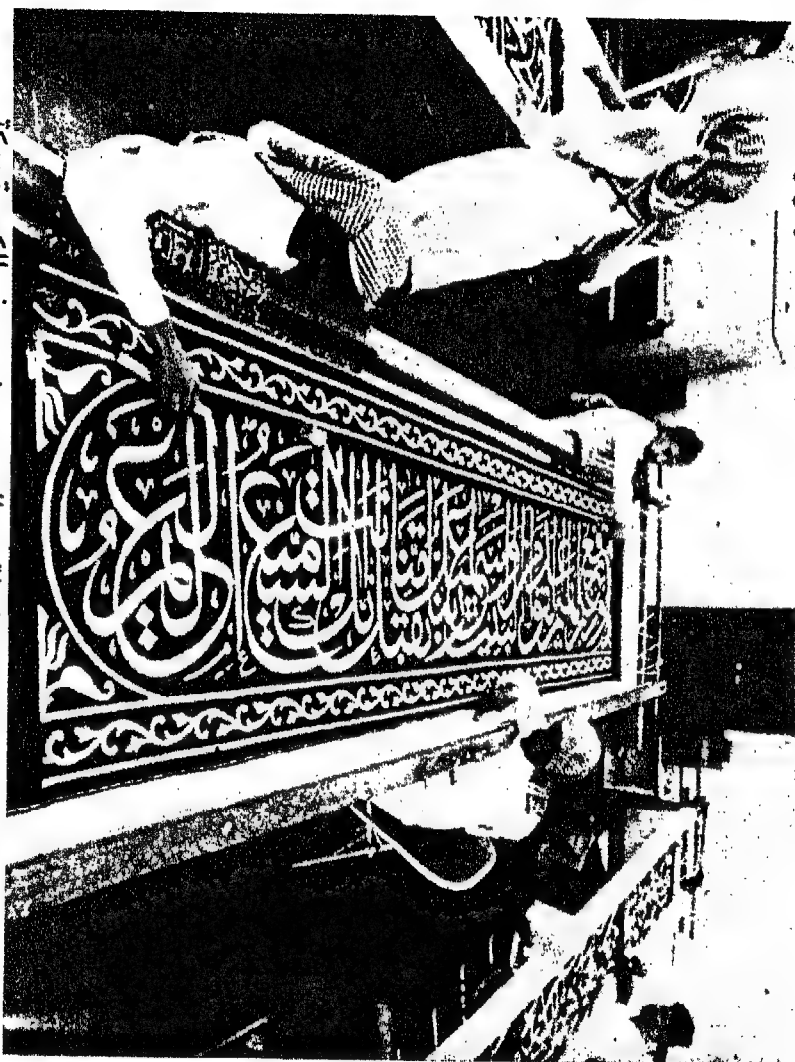
وعلى الرغم من ذلك ، وبرغم ضياع حملة هذا التراث الإسلامى العريق ، فإن الحاج (كامل محمد حسن أمين ندا) لم يفقد كل الأمل ، وبيت حالياً أسرار هذه المهنة المباركة لحفيده الصغير (كامل حسن كامل محمد حسن أمين ندا) ذى السنوات الأربع عشرة ، وهو الطالب المتفوق الآن في مدرسته الإعدادية ، لعل هذا الفن الإسلامى العريق والأصيل تظل جذوته مقددة ، ولا ينطفئ له مشعل مضى أبداً .. !

دار كسوة الكعبة المشرفة بأجياد بالسعودية :

حينما اشتدت الخلافات السياسية بين مصر والمملكة العربية السعودية ، وتكررت مراراً وتكراراً عدت الحكومة السعودية إلى إنشاء دار لكسوة الكعبة المشرفة بها . ولقد وصل أمر هذه الخلافات إلى حد كبير ، حتى عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، فكان هذا العام شاهداً على آخر كسوة للكعبة المشرفة أرسلتها مصر ، وقد عانت إلى القاهرة دون أن تقوم مصر بكساء بيت الله الحرام . ولأن الخلافات بين مصر وحكومة المملكة العربية السعودية تكررت فيما قبل كثيراً فقد فكر المسئولون السعوديون في عمل دار لكسوة الكعبة الشريفة



الحاج محمد حسن أمين ندا يعمل الزرقيشة بدار كسوة الكعبة الشريفة بالخريفش
بالقاهرة عام ١٩٤٧



■ فنيو زركشة كسوة الكعبة المشرفة من السعوديين يصنع الكسوة بمكة
■ المكرمة

بالسعودية ، حتى لا يتعرض بيت الله الحرام لأهواء الساسة ، ويكون حينئذ مصير كسوته رهين بالوفيق أو الخلاف فيما بينهم .

قام الملك (عبدالعزیز آل سعود) بإصدار أوامره في أوائل المحرم سنة ١٣٤٦ هجرية الموافقة ١٩٢٧ ميلادية إلى الشيخ (عبدالله السليمان) وزير المالية ، وأمر ابنه (فيصلا) أن يشرف هو بنفسه مع وزير المالية على إنشاء مصنع لعمل وزرطنة كسوة الكعبة المشرفة ، فاختارا مكانا له يقع أمام مبنى وزارة المالية بحى جباد مساحته ١٥٠٠ مقرا ، وجهازه بالادوات اللازمة ، والعمال الهنود ، وجعل (عبدالرحمن مظهر) رئيس مطوئى حجاج الهند يشغل منصب مدير مصنع الكسوة المشرفة ، وأضيف إليهم بضعة عشر من العمال السعوديين .^(٤٦)

بعد أن قام الشيخ (عبدالرحمن مظهر) بإدارة المصنع استقال سنة ١٣٤٧ هجرية ، فاستندت الإدارة إلى الحاج (محمد خان) حتى سنة ١٣٥٢ هجرية ، حيث غادر المصنع الهنود وتولى السعوديون امر المصنع تحت إدارة الشيخ (أحمد سالم الجوهري) ، وفي هذه السنة كسيت الكعبة المشرفة بأول كسوة صنعتها الأيدي السعودية في مكة المكرمة .
كان يكتب خطوط الكسوة في السعودية الأستاذ (محمد أديب) ، وبعد وفاته صار الشيخ السعودي (عبدالرحيم بخارى) هو الذى يتولى أمور الخط والزخرفة والفنون الأخرى .

دار كسوة الكعبة المشرفة بإم الجود بمكة :

أنشأت حكومة المملكة العربية السعودية بمنطقة (ام الجود) بمكة مصنعا جديداً في يوم السبت السابع من ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هجرية الموافق ٢٦ مارس سنة ١٩٧٧ ، رغبة في التطوير ومسايرة التقدم في الوسائل والادوات الحديثة .^(٤٧)

وعلى الرغم من أسلوب الميكنة الحديث رؤى عدم الاستغناء عن أسلوب الانتاج اليدوى لما له من قيمة فنية عالية .

ويضم هذا المصنع قسما للنسيج اليدوى وآخر للنسيج الآلى ، وقسم للتصميم لدراسة الزخارف والخطوط في الفن الاسلامى والاستفادة منها في وضع تصميمات مدروسة . ويوجد قسم للطباعة مزود بالمناسج والشبلونات او الشاشات الحبرية ، وبالمصنع قسم للصبغة ، حيث تصبغ الاقمشة فيه باللون الاسود لكسوة الكعبة الخارجية وباللون الاخضر للداخلية ، والاحمر الداكن بالنسبة لحزام القرفة النبوية الشريفة ، كما تصبغ الخيوط القطنية المستخدمة كحشو او كتطريز مبدئى باللون الاصفر .^(٤٨)

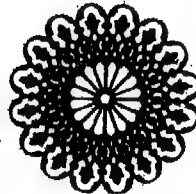
وبالمصنع قسم كبير للزرطنة اليدوية وبه مجموعة كبيرة من العمال السعوديين .

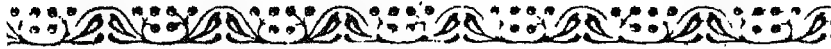
الهوامش والمراجع

- (١) القلقشندى - «صبح الأعشى» - ص ٥٧ ج ٤
- (٢) المرجع السابق - ص ٤٢٥ ج ١١
- (٣) المقرئى - «كتاب السلوك» - ص ١٩٥ ج ٢ ق ١
- (٤) ابن إيس - «بدائع الزهور» - ص ٤٤٤ ج ١ ق ١
- (٥) المرجع السابق - ص ٤٥٠ ج ١ ق ١ ، ص ٤٥٢ ج ١ ق ١
- (٦) المرجع السابق - ص ٤٥٣ ج ١ ق ١
- (٧) د. أحمد السعيد سليمان - «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل» - ص ١٥
- (٨) ابن إيس - «بدائع الزهور» - ص ٤٧٤ ج ١ ق ٢
- (٩) المرجع السابق - ص ٤٤٧ ج ١ ق ٢
- (١٠) المرجع السابق - ص ٧٤ ج ٢
- (١١) المقرئى - «كتاب السلوك» - ص ٦١٤ ج ٤ ق ٢
- (١٢) ابن إيس - «بدائع الزهور» - ص ٣٣٠ ج ٢
- (١٣) المرجع السابق - ص ٣٣٥ ج ٢
- (١٤) المرجع السابق - ص ٣٥ ج ٤
- (١٥) المرجع السابق - ص ١٠٤ ج ٤
- (١٦) المرجع السابق - ص ١٢٧ ج ٤
- (١٧) المرجع السابق - ص ٣٤٣ ج ٤
- (١٨) المرجع السابق - ص ٢٠٩ ج ٥
- (١٩) يوسف أحمد - «المحمل والحج» - ص ٢٧٧ ج ١
- (٢٠) المقرئى - «خطط المقرئى» - ص ٤٢ ج ٣
- (٢١) عبد الغنى النابلسى - «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز» - ص ٢٤٩ - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦
- (٢٢) أيمن فؤاد سيد - «وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل» لجومار - هامش ص ٢٣١ - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٨
- (٢٣) الجبرتي - «عجائب الآثار» - ص ٦٢٤ ج ١
- (٢٤) المرجع السابق - ص ٥٦ ج ٢
- (٢٥) المرجع السابق - ص ٢٥٩ ج ٢
- (٢٦) المرجع السابق - ص ٢٦٦ ج ٢
- (٢٧) المرجع السابق - ص ٢٦٨ ج ٢
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٣٣ ج ٣
- (٢٩) على باشا مبارك - «الخطط التوفيقية» - ص ١٠٦ ج ٢ - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢
- (٣٠) المقرئى - «خطط المقرئى» - ص ٣٧٥ ج ٢
- (٣١) المرجع السابق - ص ٣٨٧ ج ٢
- (٣٢) الجبرتي - «عجائب الآثار» - ص ٥٨٣ ج ٣

- (٣٣) على باشا مبارك - « الخطط التوفيقية » - ص ١٣٨ ج ٣
- (٣٤) كلوت بك - « لمحة عامة إلى مصر » - ص ٣٤ ج ٤ - ترجمة محمود مسعود - « دار الموقف العربي » - بدون تاريخ .
- (٣٥) عبدالرحمن الرافعي - « عصر محمد علي » - ص ٤٩٩ - دار المعارف ١٩٨٢
- (٣٦) روى لنا ذلك الحاج (كامل حسن ندا) ، أحد عمّال زركشة كسوة الكعبة المشرفة بمنزله بالإمام الشافعي بالقاهرة في يوم الثلاثاء ١٢ / ٧ / ١٩٨٨ .
- (٣٧) محمد صالح الشيبني - « إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » - ص ٢٩٨
- (٣٨) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٥٧ ج ١
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٨٠ ، ٢٦٩ ج ١
- (٤٠) المرجع السابق - ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ج ١
- (٤١) المرجع السابق - هامش ص ٢٦٥ ج ١
- (٤٢) اللواء / إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ١٠ ج ١
- (٤٣) المرجع السابق - ص ١١ ج ١
- (٤٤) المرجع السابق - ص ١٢ ج ١
- (٤٥) الأسطى باشا : هو رئيس عمّال زركشة كسوة الكعبة المشرفة ، وكان يمثل شيخ الصنعة بالنسبة لهم ، ومن هؤلاء الذين شغلوا هذا المنصب في الزمن القديم كل (علي حسن) في عام ١٨٨٤ ميلادية ، ومن قبله كان (محمد محمد الشيخة) في عام ١٨٦٤ ميلادية .
- (٤٦) أحمد عبد الغفور عطار - « الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم » - ص ١٧١ - مطابع مكة المكرمة ١٩٧٧ ، يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦٣ ج ١
- (٤٧) المرجع السابق - ص ١٨٧
- (٤٨) مجلة الفيصل - بدون اسم - ص ٦٤ - العدد ١٢٦ - ذو الحجة ١٤٠٧ هجرية (أغسطس ١٩٨٧) - « دار الفيصل الثقافية بالرياض » .

□ □ □





كسوة الكعبة المشرفة

بين بركتها وسرقتها !

التعلق بأستار الكعبة المشرفة :

منذ وضع اللبنة الأولى لبناء الكعبة المشرفة ، وهي تحظى بقداسة خاصة داخل قلوب خاشعة تهاب عندها الحضرة الإلهية ، وتذلل من معين نورها الوضاء قبسا يضئ جنبات طريق الحياة ، بنفحة علوية طاهرة زكية ، يتلهاها الطائفون حولها والعاكفون والركع السجود في رحابها النورانية ، وكذلك من بعدت بهم عنها المسافات .

وعبر الأزمان ، كان من أسلموا زمام أمورهم الى الله تهوى قلوبهم الى أستار الكعبة المشرفة يدعون بويتمنون ، ويطلبون ، ويرتجون مغفرة ورحمة واثابة وفضلا من عند من عنده حسن الثواب .

قيل : ان (لقمان بن عاد) تعلق بأستار الكعبة المشرفة وتمنى . وكانت أمينته صعبة المنال وإبتهاهاته بالغة الحرارة . قال : « اللهم يا رب البحار الخضر والأرض ذات الثبت بعد القطر امتحنى عمرا فوق كل العمر »^(١) . وعاش (لقمان) حياة سبعة شهور ، والنسر يعيش عادة حوالي الثمانين عاما ، فيصبح عمر (لقمان) ٥٦٠ عاما ، وقيل خمسمائة عام ، وقيل ألف عام ، وقيل ثلاثة آلاف عام .^(٢)

ورغم الاختلاف في تحديد عدد السنين التي عاشها (لقمان) الحكيم إلا ان هناك اتفاقا عاما بان دعاء (لقمان) الحكيم عند تعلقه بأستار الكعبة كان من نتاجه فوزه بالعمر المديد .

وعندما اشرق نور الاسلام على الانسانية ، وجاء (محمد بن عبدالله) الرسول المصطفى بخاتم الرسالات السماوية وجاهد في سبيلها ، وهاجر ، وعاد فأتاحا أم القرى (مكة) كان من شروط الصلح بينه وأهل مكة ان من تعلق بأستار الكعبة فهو آمن .^(٣)

وفي العصر الأموي شاعت قصة مجنون ليلي (قيس بن الملوّح) وتشبيهه وهيامه بليلي ، وعندما تزوجها أبوها بأخر جئ وزال عقله جملة ، فقيل لأبيه : لحجج به الى مكة وادع الله عز وجل له ، وفمره ان يتعلق بأستار الكعبة ، فحجج به أبوه ، ثم قال له : تعلق بأستار الكعبة واسأل الله ان يعافيك من حب ليلي . فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم زدني لليلي حبا وبها كلفا ولا تنسني ذكرها أبدا . فقام حينئذ واختلط عقله فلم يشف من حباها .^(٤)

وفي سنة ١٠٨ هجرية ، أيام خلافة الخليفة العباسي (ابي جعفر المنصور) ارسل طائفة من جنوده يقال لهم الخشابة لصلب (سفيان الثوري) وتعليقه على الأخشاب التي ينصبونها لذلك بالمسجد الحرام ، قبل دخول الخليفة العباسي الى مكة ليمر من تحته وهو مصلوب ، في طريقه بالركب للحج ، فلما جاءوا ، ونصبوا الخشب لتعليقه نودي يا سفيان ان امير المؤمنين امر بقتلك وتعليقك ، فإذا راسه في حجر (الفضيل بن عياض) ورجلاه في حجر (سفيان ابن عيينه) ، فقالوا له : يا ابا عبدالله ، اتق الله فينا ولا تشمت بنا الأعداء ، فقام رضى الله عنه ، وتقدم الى استار الكعبة وتعلق بها ، وقال : برئت منك ، ان دخلك ابو جعفر ، فاستجاب الله تعالى دعاه . ولم يدخلها ، ومات (ابو جعفر المنصور) قبل دخوله مكة بمكان يقال له بشر (ميمون) ، حيث كبابه فرسة فوق وقع ومات لساعته وحمل ميتا إلى مكة ودفن بالمعلاة .^(٥)

ومن الرخالة العرب الجوالين الذين قاموا بالتعلق باستار الكعبة عند قيامهم بتأدية فريضة الحج (ابن جبير) و (ابن بطوطة) وذلك في موضع محدد وقف فيه كليهما ، على الرغم من الفاصل الزمني الكبير الذي فصل بينهما ، إذ أدى الأول فريضة الحج في عام ٥٧٩ هجرية ، في حين اداها الآخر في عام ٧٢٤ هجرية . قال (ابن جبير) يصف ذلك : « .. فطلقنا طواف القدوم ، ثم صليتنا بالمقام الكريم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم - وهو بين الحجر الأسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة »^(٦)

وتنص الفحل فعله (ابن بطوطة) حيث قال : « وطلقنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصليتنا ركعتين بمقام ابراهيم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء »^(٧) وفي العصر الحديث روى اللواء / ابراهيم رفعت باشا في اثناء تأديته لفريضة الحج عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية انه قال بعد طوافه : « اتينا الملتزم ، وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود في الجهة الشرقية ، ووضعنا عليه صدورنا وتعلقنا باستار الكعبة وابتهلنا الى الله ان يعافينا في ديننا ودينانا ، وقلنا ما خطر بنفوسنا من الرغبات الصالحة والاماني المشروعة »^(٨)

ومن خلال جملة ما استعرضناه من حوادث تاريخية يتضح لنا اهمية التعلق باستار الكعبة المشرفة عند المسلمين ، بل خصص مكان محدد عند استار الكعبة ، وهو عند الملتزم ، على حد قول (ابن جبير) و (ابن بطوطة) في حجيتهما لاستجابة دعاء الداعين .

وعلى النقيض من ذلك سل البعض سيوفه ليحصد رقاب المتعلقين باستار الكعبة المشرفة في الهجمة البربرية للقرامطة على بيت الله الحرام وعلى حجاجه فعن (ابي بكر عمر بن علي بن القاسم الذهبي) ، عن (عبيد البكري) في كتابه « المسالك والممالك » - انه قال : ان (ابا طاهر القرمطي) واتي مكة يوم الاثنين

لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٧١٠ هجرية رجل من اصحابه فقتل في المسجد الحرام نحو ١٧٠٠ من الرجال والنساء وهم متعلقون باستار الكعبة. (٩)
وأعاد القرامطة فعلتهم مرة ثانية في عام ٣١٧ هجرية بقيادة كبيرهم (ابى طاهر القرمطى) وقتلوا ممن تعلقوا باستار الكعبة نحو ألف وسبعمائة آخرين ، وقيل ثلاثة عشر الفا من الرجال والنساء وهم متعلقون باستار الكعبة. (١٠)

سرقة كسوة الكعبة المشرفة :

تعرضت كسوة الكعبة المشرفة الى سرقات عديدة على مدار الزمن ، وطمع فيها الطامعون فاستباحوا حرمتها وسرقوها .
من ذلك ما حدث في عام ٢٠٠ هجرية ايام الدولة العباسية في خلافة الخليفة (المأمون بن هارون الرشيد) حيث قطع (العقيلي) وجنده بتحريض من وائى اليمن الطريق على قافلة الحجيج ومعهم كسوة الكعبة المشرفة وطبيها ، فأخذوا اموال التجار والكسوة والطيب . وقدم الحجاج مكة عراة منهوبين ، غير ان امير الحج ستر خلفهم من يطاردهم ويرد ما سلبوه منهم ليعودوا مكملين بالخزى الى اليمن. (١١)

ولقد كان من نتائج التهمة البربرية للقرامطة في عام ٣١٧ هجرية ان سرقوا الحجر الأسود وكسوة الكعبة المشرفة وباب البيت الحرام وقد اعيد الحجر الاسود بعد ثمانى عشرة سنة ولم تعد كسوة الكعبة المشرفة بعد ان فرقها (ابو طاهر القرمطى) بين اصحابه قطعا من قطع الغنائم !!..
وفي عام ٣٨٧ هجرية ايام خلافة (الحاكم بامر الله) الفاطمى نهب جماعة من العربان كسوة الكعبة المشرفة وهى في الطريق اليها ، ويقول (ابن اياس) معقبا على ذلك : « فكسيت الكعبة في تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من الغرائب ، فإن الكعبة ما كسيت شنفاص قط إلا في زمن الحاكم » (١٢)

ومما رواه (عبدالقادر الانصارى الجزيرى) اثناء رحلته الى الاراضى الحجازية عام ٩٦٠ هجرية لتادية فريضة الحج ان حدث ازدهام شديد عند نقب عقبة ايلة بسيناء نتج عنه ضياع جمل بحمله من كسوة الكعبة المشرفة ، وأخذته عربان بنى عطية سرقة واختلسا ولم يشعربه أحد من ركب قافلة الحجيج ، قال وهو يروى هذه الواقعة : « .. وشرعنا في الفحص عنه بين عربان الدرك ، الى أن يسر الله تعالى بوجوده بعد أن ظنه عربان بنى عطية انه من جنس الخيام فدفعوه في الرمل ، ولما احضروه وجدنا ضمنه شقتين بطراهما المذهب المخايش ، ولم يحصل فيهما ادنى ضرر ، فحمدنا الله على وجوده » (١٣)

ونلاحظ ان هذه النماذج البشرية التى تطاولت وسط بالزور والبهتان على كساء بيت الله الحرام ، عبر تاريخه الحافل ، ما هى إلا انماط من مخالب وانياب

حاقدة او موتورة او زمرة جهلاء عاشوا على هامش الزمن وخارج دائرة الادراك والوعى ، يدبون على رمال الصحراء كما تدب بغيرهم سواء بسواء بلا أدنى تفرقة .

التبرك بكسوة الكعبة المشرفة :

يتبرك العديد من المسلمين في جميع مشارق الأرض ومغاربها بكسوة الكعبة المشرفة ، وبعضهم يحتفظ بقطع منها كاملة أو بعض جزأيات صغيرة ، في منازلهم كاعز ما يملكون من مقتنيات مقدسة ومحبة الى نفوسهم . ومسألة التبرك بقطع من كسوة الكعبة المشرفة ليس وليدة العصور الحديثة أو القرية العهد منا ، بل هي قديمة منذ عهد الفاروق (عمر بن الخطاب) - رضى الله عنه - فكان يفرع كسوة الكعبة المشرفة كل سنة ، ويستبدل بها أخرى جديدة ، ويقسم الأولى بين الحاج (١٤)

وقد قام (شيبه بن عثمان) سادن الكعبة أيام خلافة (معاوية بن ابي سفيان) بتقسيم كسوات الكعبة المشرفة القديمة بين أهل مكة ، بعد لباسها ما جهزه لها الخليفة الأموي الأول من كساء جديد .

ومن ثم أصبحت عادة أن يتم تفريق كساء الكعبة المشرفة القديم بين الحاج . وقيل أن أم المؤمنين (عائشة بنت ابي بكر) - رضى الله عنها - افتت ببيعها والتصرف فيها وجواز لبسها للحائض والجنب ، حيث قالت : « دخل على شيبه الحجبى فقال : يا أم المؤمنين . إن ثياب الكعبة تجتمع عندنا فنكثر ، فنزعهما ونحفر بثرا فنعمقها ، وندفنها لكي لا تلبسها الحائض والجنب ، قالت : « بئس ما صنعت ، ولكن بعها ، فاجعل ثمنها في سبيل الله وفي المساكين ، فإنها إذا خزعت عنها لم يضر من لبسها من حائض أو جنب » فكان (شيبه) يبعث بها الى اليمن فتباع له فيضعها حيث امرته ، (١٥)

وأجاز (ابن عباس) - رضى الله عنهما - بيع كسوة الكعبة المشرفة . (١٦) وقد اختلف العلماء في الحكم على ذلك ، فأجاز بعضهم لولاة الأمر بيع ما خلف من الكسوة ليستعينوا به في أمر الكعبة المشرفة .

وقال البعض الآخر : « إن كان شيء له ثمن لا يجوز أخذه ، وإن لم يكن فلا بأس » .

وقال (نجم الدين الطرسوسى) شعرا في ذلك :

وما على الكعبة من لباس إن رث جاز يبعه للتأس

ولا يجوز أخذه بلا شرا للأغنيا لا ولا للفقراء

وقال (ابن فضل الله) في كتابه « مسالك الإبحار » : وفي سنة ٧٣٨ توليت خلع الكسوة العتيقة ، وحملت الى السلطان بمصر ، لتجهز الى السلطان (ابي الحسن المينى) ملك الغرب ، مع ما يجهز عوض هدية بعثها في هذه السنة صعبة

« مريم » زوجة أبيه ، وجماعة من اكابر دولته ، وعوض بنو شيبه والاشراف عنها من بيت المال بمصر. (١٧)

ونذكر لنا (جياردى نرفال) الرحالة الفرنسى فى عهد (محمد على) ان الباشا - محمد على - تلقى واسرته كسوة الكعبة المشرفة ، وماء بئر زمزم وبعض اشياء تتعلق بالحج عند عودة المحمل المصرى من الاراضى الحجازية ، وقد عرض هذه الكسوة على الشعب على باب مسجد صغير يقع خلف القصر الخاص به فى القلعة. (١٨)

اما الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) فقد لاحظ فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ايام حكم (محمد على) ان الحجاج المصريين العائدين كان بعضهم حريصا على اجتلاب قطع من كسوة الكعبة المشرفة للتبرك بها مع اشياء اخرى جلبت معها .

وذهب (لين) الى مسجد سيدنا الحسين لفحص كسوة الكعبة المشرفة التى جلبها المحمل المصرى ، وسُمح له بمسكها بيده حسب رغبته ، وقال : « وقد اعطيت هدية صغيرة لهذا الامتياز ، ومقابل قطعة زائدة من الكسوة طولها شبر وعرضها كذلك تقريبا ، كنت قد طلبتها » . (١٩)

ولم تكن هذه القطعة هى الوحيدة التى اقتناها (لين) بل حصل على قطعة اخرى ، قال عنها : « وقد امكنتنى فيما بعد ان ازيد ما عندى من تحف عن مكة ، ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة احضرها الشيخ (ابراهيم بوركهارت) من مكة واعطاني اياها وريثه عثمان » . (٢٠)

وفى اوائل هذا القرن العشرين سجّل اللواء (ابراهيم رفعت باشا) مقدار شغف المصريين بتبركهم بكسوة الكعبة المشرفة ، وذلك عام ١٣٢٥ هجرية الموافق ١٩٠٨ ميلادية ، وكانت هذه الكسوة جديدة ، وفى انتظار ارسالها مع قافلة الحجاج الى بيت الله الحرام ، قال تحت عنوان (الكسوة بالمسجد الحسينى) أثناء تجهيزها : « تبقى الكسوة بالمسجد حوالى نصف شهر فى خلاله يخاط بعض قطعها ببعض ، لأنها تصنع قطعاً كثيرة ، ويحضر كثير من سكان القاهرة ليتبركوا بها ، ويرى نفسه سعيداً من يخط جزءاً منها ، ويتسابق الناس فى تقديم النذور والعطايا الى المنوطون بخياطتها ، وقد سمعت انه لا يسمح لبعض المتبركين بمس الكسوة إلا نظير جعل يدفعونه » . (٢١)

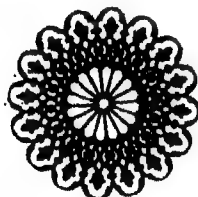
اما التبرك بمقام الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - والذى يحوى اثر القدمين ، فإن اللواء (ابراهيم رفعت باشا) قومندان حرس المحمل المصرى فى عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية ، وامير الحج ثلاث مرات فى سنوات اخرى يروى عن نفسه حادثة التبرك فيقول : « .. ودخلت الى المقصورة مع المطوف ، فوضعت من ماء زمزم على اثر القدمين ، وشربنا منه فى حجتنا هذه سنة ١٣١٨ هجرية . وكان خليفاً بى وبالمطوف ان نتجنب التبرك بالآثار ، والشرب من

مواطيء الأقدام ، وإن ندع هذه البدعة جانبا ولا نفعل عند هذا الأثر سوى ما فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة عنده امتثالاً لأمر الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ، ولكنى كنت فى هذا الوقت لم تنضج معلوماتى الدينية فى الحج ومشاعره ، ولم أكن وقفت تماماً على تأثير البدع السيئة فى الدين ، وقد دعانى الانصاف الى ذكر الواقع ، ودعانى البصر بالدين الى انكار ما حصل .^(٢٢)

ولم تكن هذه البدعة وليدة العصور الحديثة فقط ، وإنما كانت موروثاً من الموروثات الشعبية ، جاءت إلينا عبر مئات السنين ، فقبل ذلك الوقت فعل نفس الفعل الرحالة الأندلسى (ابن جبير) فى عام ٥٧٩ هجرية .

وبالطبع لم يكن (ابن جبير) هو أول من فعل ذلك . فقد ذكر فى حوادث عام ١٦٠ هجرية أيام خلافة (المهدي بن عبدالله بن أبى جعفر المنصور) وإثناء تاديبه فريضة الحج ، فقبل أن (المهدي) نزل بدار الندوة ، وجاء (عبدالله بن عثمان بن إبراهيم) الحاجب بالمقام - مقام سيدنا إبراهيم - فى ساعة خالية نصف النهار مشتمل عليه ، فقال للحاجب : أئذن لى على أمير المؤمنين فإن معى ما لم ادخل به على أحد قبله ، وهو يسر أمير المؤمنين ، فادخله اليه ، فكتشف عن المقام ، فسر بذلك ، وتمسح به ، وسكب فيه ماء ، ثم شربه ، وقال له : أخرج ، وأرسل الى بعض أهله ، فشربوا منه ، وتمسحوا به ، ثم ادخل واحتمله وردّه مكانه وأمر له بجوائز عظيمة .^(٢٣)

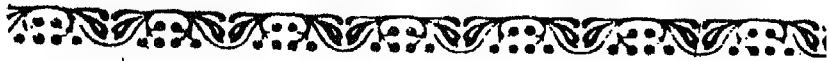
□ □ □



الهوامش والمراجع

- (١) د . محمد المنسى قنديل « المغرور ببقاء الشور » - مقالة بمجلة العربي - ص ٩٣ العدد ٣٠٢ يناير ١٩٨٤ - وزارة الاعلام بالكويت .
- (٢) فاروق خورشيد ، عالم الادب الشعبي العجيب ، ص ٢٠١ - كتاب الهلال - العدد ٤٤٧ - مارس ١٩٨٨ - دار الهلال .
- (٣) عبدالغنى بن اسماعيل النابلسي « الحقيقة والمجاز » ص ٤٤٦ .
- (٤) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغانى - ص ٢٠ ، ٢١ ، ح ٢ - اشرف محمد ابو الفضل .
- ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر ١٩٧٠ .
- (٥) الشيخ احمد الرشيدى « حسن الصفا والابتهاج بذكر من وثى إمارة الحاج » - ص ٩٧ - تحقيق د . ليلي عبداللطيف احمد - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠ .
- (٦) ابن جبير « رحلة ابن جبير » - ص ٧١ .
- (٧) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » - ص ٨٩ ح ٣ .
- (٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٤ ح ١ .
- (٩) الحافظ ابو الطيب الفاسي « شفاء الغرام » ص ٢١٨ ح ٢ .
- (١٠) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر القرائد المنظمة » ص ٢٣٥ .
- (١١) النويرى « نهاية الارب » - ص ١٩٦ ح ٢٢ .
- (١٢) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٢٠٥ ح ١ ق ١ .
- (١٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر القرائد المنظمة » ص ١٣٨ .
- (١٤) يوسف احمد « المحمل والحج » ص ٢٨٢ ح ١ .
- (١٥) محمد صالح الشيبى « اعلام الانام » ٢٠٩ .
- (١٦) يوسف احمد « المحمل والحج » ص ٢٨٣ ح ١ .
- (١٧) المرجع السابق - ص ٢٨٥ ح ١ .
- (١٨) جيران دى نرفال « رحلة الى الشرق » - ص ٢٢٧ ح ١ .
- (١٩) ادوارد وليم لين - ص ٤٠٩ فى الهامش .
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٢٢٤ .
- (٢١) اللواء ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ١٥٢ ح ٢ .
- (٢٢) المرجع السابق - ص ٢٤٦ ح ١ .
- (٢٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « القرائد المنظمة » - ص ٢١٥ .

□ □ □



فنون المحامل العربية وقوافل الحج من البلاد الإسلامية

في سرعة مذهلة خاطفة ، وعلى مقعد وثير في طائرة
او في باخرة او في سيارة ، أصبح الحاج الآن يعبر حدود
وطنه إلى الاراضى الحجازية المقدسة دونما عناء
او مشقة تذكر .

اما فيما مضى من زمن ، فقد كانت رحلة الحج - بالرغم
من جهدها الجهد - لها مذاقها الخاص ، والذي يستشعر
فيه الإنسان المقبل على أداء فريضة الحج لذة التطهر ، منذ اللحظة الأولى التي
يطأ فيها بقدميه تراب الطريق ، ذلك الطريق الذي يغدو فيه السير ، ويشق فيه
صعوباته مع الرفاق الناشدين للغفران ، وتضمهم رحلة المحمل للحج ، في شهور
عدة ، سواء اكان ذلك من فوق ظهر جمل - إن كن الحاج ثريا وميسور الحال ،
او بالسير على الاقدام ، إن كان ذا عسرة وخالو الوفاض .. !

كانت المحامل العربية وقوافل الحج من البلاد الإسلامية تأتي إلى البيت العتيق
من كل فج عميق ومن كل انحاء طريق ، وكانت أم القرى مكة - في فترة من الفترات
التاريخية التي بها الإنسانية - كأنما تمثل على الأرض قرص الشمس المتوهج
الوضاء ، في حين كانت تلك المحامل العربية والقادمة من البلاد الإسلامية تمثل
مسار الأشعة التي تخرج منها وإليها تعود .. !

وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الظاهرة التاريخية الخاصة بالمحامل
العربية وموافقتها أو مخالفتها للشرع والدين ، فهي أصبحت الآن تمثل جزءاً
هاماً من تاريخنا في عصور السلف الرابضة في أوراق صفراء ، بل ومست من قريب
تاريخاً ربما مازال يحيا في داخل البعض منا ، ولو بنبضة واحدة لعرق واحد
مازال يختلج في الذاكرة إلى الآن .. !

ولأن التاريخ دائماً ليس فيه انتقاء أو اختيار ، بحيث نحفظ ونزهو بأوراق
منه ، وننزع عنه صفحات لا نألف معها ، فحتماً علينا أن ندرس ظاهرة المحامل
العربية بوعى حقيقي ، دونما الوقوع في دائرة سحرها ، بحيث لا يكون الهدف من
ذلك هو أن نصفق لها ونحن وقوف معها نباركها ، او يأخذنا الشئان فنقف ضدها
لرجمها بقطع من الحجارة ، ونهيل عليها التراب ، ثم يظل من بعد ذلك وجهنا
مسوداً وهو كظيم .. !

وقد جاء في كتاب الكنز المدفون (للسيوطي) : « إن أول من أحدث المحامل في
طريق مكة - شرقها الله - (الحجاج بن يوسف الثقفي) ،^(١)

ونحن نشك في صحة ما قرره (السيوطي) في كنزه المدفون لأسباب عدة .

١ - إن الحمل قديم جداً وربما كان من قبل الإسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا إلى البيت المعظم ، وقد سیر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محملاً إلى مكة بهداياه إلى الكعبة المشرفة .^(١)

٢ - إن شخصية (الحجاج بن يوسف الثقفى) لا يستقيم معها أن تكون ذات نوازع دينية تدفعه إلى تسيير محمل إلى بيت الله الحرام ، وإن كان أحد من المؤرخين قد ذكر أنه حج ثلاث مرات خلال أعوام ٧٢ ، و ٧٣ ، و ٧٤ هجرية فإذا صح ذلك ولم يكن من ادعاء اتباعه ، فإن هذه الحجات الثلاث كانت بغرض دخول مكة ومحاربة المنشقين على ملك بنى أمية .

وليس من المعقول أن يكون أول من فعل الحرام في الشهر الحرام يرمى الكعبة المشرفة بالمنجنيق عام ٧٢ هجرية ، في حربه ضد (الزبير بن العوام) ، وهو ابن ذات النطاقين (أسماء بنت أبى بكر الصديق) ، هو أول من سیر المحامل إلى بيت الله الحرام .

ولا يدخل في عقل إنسان أن يكون أول من سب أهل المدينة المنورة ، وعاملهم معاملة كلها الذل هو أول من سیر المحامل إلى بيت الله الحرام .

وهل يستوى أن يجتمع في رجل واحد تسييره المحامل إلى بيت الله الحرام وسب الصحابي الجليل (أنس بن مالك) عياناً بياناً ؟

إن في سيرة (الحجاج بن يوسف الثقفى) مثالب كثيرة تنقص من قدر شخصيته إذا وزنت بميزان دقيق ، حتى لقد وصفه (عمر بن عبدالعزيز) قائلاً :
« لو جاءت كل أمة بخبثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم ! »

ووصفه (الحسن بن على بن أبى طالب) بأنه « يحكم بحكم الجاهلية »^(٢) . ومن العبث أن نبحث عن هو أول من سیر المحمل في تاريخ العرب ، لأن ذلك كان شيئاً مالوفاً لديهم منذ عهود سحيقة ، فالجمل العربى ملازم لهم دائماً في حلهم وترحالهم ، وقديماً قال (القزوينى) يصف الإبل بأنها : « من الحيوانات العجيبة ، وإن كان عجيبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم إياها ، وهو أنه حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد ، ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به ، وتأخذ بزمامه فارة تقوده إلى حيث شاعت ، ويتخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه وظروفها والوسادة والملحفة والتمركة كما في بيته ، ويتخذ للبيت سقف . وهو يمشى بكل هذا »^(٣) .

خلاصة الأمر إن الجمل كان موجوداً في البداية العربية قبل الإسلام بمئات السنين ، والحج كذلك على الرغم من أنه أصبح فريضة إسلامية في السنة التاسعة من الهجرة ، وهى السنة التى أصبح فيها (أبو بكر الصديق) أول أمير للحج في الإسلام ، وأول وآخر من حج في الإسلام في شهر ذى القعدة كما جرت بذلك سنة العرب القدماء أن يكون الحج في أى شهر من شهور شوال وذى القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، إذ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حج بعد ذلك

بعلام في السنة العاشرة من الهجرة حجة الوداع في ذي الحجة ، ومن ثم أصبحت سنة إسلامية من بعده في هذا الميقات على طول السنين . وعلى طول السنين كذلك المسلمون من كل بقاع الأرض حجّوا ، ولغرض الله ادوا - من استطاع إلى ذلك سبيلا ، مشيا على الأقدام ، وامتناء للجمال في الركبان ، واتخاذا للمحامل عند إظهار الفرحة بالحجّ والإعلان .. !

وكان من أشهر تلك المحامل العربية وقوافل الحجّ من البلاد الإسلامية :

المحامل الآتية :-

- ١ - المحمل الشامي .
- ٢ - المحمل العراقي .
- ٣ - المحمل اليمني .
- ٤ - المحمل المغربي .
- ٥ - المحمل التكروري .
- ٦ - المحمل الرومي أو التركي .
- ٧ - المحمل المصري .

ولم تكن تلك المحمل هي كل ما كان يفد إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحجّ ، بل كان هناك أيضا محمل ابن الرشيد ، ومحمل ابن سعود ، ومحمل ابن دينار ، ومحمل النظام ملك حيدر اباد بالهند .^(٥)

ولكن هذه المحامل كانت ثانوية إلى جوار المحامل السبعة التي سبقتها ، وربما جاء هذا الدور الثانوي لها تبعا لمركز ثقل بلادها في توجيه وتسيار الأحداث فوق رمال شبه جزيرة العرب من أجل صناعة التاريخ .. !

أولا : المحمل الشامي :

على الرغم من أن بلاد الشام جميعها - وهي سورية ولبنان وفلسطين والأردن - ذات طبيعة ثقافية متقاربة - إن لم تكن متشابهة - إلا أنها كانت لها أربعة محامل مختلفة ، ولكل من هذه المحامل الأربعة اسم يختلف عن الآخر .

كانت هذه المحامل هي : المحمل الشامي ، والمحمل الحلبي ، والمحمل الكركي - نسبة إلى منطقة الكرك بشرق الأردن - والمحمل القدسي .

وكانت المحامل الثلاثة الأخيرة من النادر تجهيزها وقيامها بالحجّ سوى في الأزمنة الأخيرة من العصر المملوكي . أما المحمل الشامي فكان أسبقها من ناحية النشأة والبدائية ، والتي من المرجح أن تكون في عصر دولة بني أمية بالشام ، حيث كانت تفد منها قوافل الحجّ تباعا منذ استقرارها هناك .

واقدم أثر يدل على وجود المحمل الشامي - وهذا بالطبع غير مادونته الكتب عن الركب الشامي - لم يكن في كتب التاريخ ، بل كان في كتب الأدب العربي القديم ، وما نعينه بذلك واستطعنا العثور عليه هو مقامات الحريري ، والتي كتبت

فيما بين عامي ٤٩٥ و ٥٠٤ هجرية أيام خلافة (الأمر بأحكام الله) الفاطمي ، وهو سابع ملوك الدولة الفاطمية . قال (الحريري) في المقامة الحادية والثلاثين المسماة بالمقامة (الرملية) مايلي :

« ... وأصعدت إلى ساحل الشام للتجارة ، فلما خيئت بالرمل [بلد بالشام قرب الساحل] ، والقيت بها عصا الرحلة ، صادفت بها ركابا تُعدُّ للسرى [المسير بالليل] ، ورحلا تُشدُّ إلى أم القرى ، فعصفت بى ريح الغرام ، واهتاج لى شوق إلى البيت الحرام ، فزمت تالفتى [وضعت زمامها فيها] ، ونبذت غلقى وعلاقتى [مايتعلق بى] ،^(٦)

وفى هذه المقامة نلمح من (الحريري) تهكما على شكل المحمل الشامى ، إذ يقول على لسان (الحرث بن همام) بطل المقامة : « أتخالون أن الحجَّ هو اختيار الرواحل ، وقطع المراحل ، واتخاذ المحامل ، وإيقار الزوامل [تثقيل حمل الإبل بالأحمال] ؟ » .

ولقد صوّر الفنان (الواسطى) منمنمتين تعبران عن هذه المقامة ضمن أخريات فى عام ٦٣٤ هجرية ، تحمل بصمات مدرسة بغداد فى الفن التشكيلى بأسلوبها المتميز .

والممنمة الأولى للمحمل الشامى فى منطقة (الجُحفة) ، وهى مىقات أهل الشام بين مكة والمدينة ، وفيها يسخر (الحريري) من الضجيج والعجيج الذى يثيره المحمل الشامى دون معنى أو هدف أحيانا .

ويصف الدكتور (ثروت عكاشة) هذه المنمنمة قائلا : « وعلى عادة الواسطى فى إدراكه العميق لمغزى النص ومعناه (الحريري) منه رسم منمنمته وقد غلب عليها طابع النزق والتهريج ، فالحركة فيها صخب واهتزاز ، والقوم مدعون هازلون ، والنوق متبخثرة تكاد تنشئ وجوهها بالسخرية ، وقائد القافلة - وهو على ما يبدو الفارس لراكب الجواد - تكسو وجهه علامات الغباء . وصوّر ذيل الجمل الأسود حامل هودج النساء - كما نعتقد - ملتويا كالأفعى منقوش الوبر . وبمعنى أشمل عمد المصور إلى تجريد رجال القافلة ودوابها من سمات القداسة والجدية المفروضة فى مثل هذا الموكب الدينى الوقور . وهو إلى ذلك قد اختار ألوانا متناسقة وخطوطا انسيابية عذبة ، وأطلق من مركز الصورة متوازيات تتمثل فى عصى البنادق الطويلة الرشيقة تتدلئ منها رايات ملونة الشكل مهدبة ، وفى الأبواق القصيرة يطلُّها الزامرون فى حملس ، ولم ينس النباتات الزخرفية فى أدنى اللوحة .^(٧) »

أما المنمنمة الثانية للمحمل الشامى فهى بعد الوصول إلى مكة وإناخة الركائب ويصفها الدكتور (ثروت عكاشة) بقوله : « وتعبّر اللوحة اصدق تعبير عن القوم الذين اناخوا رواحلهم وحطّوا هواجهم وحقائبهم ، واعتلى (أبو زيد الصروجى) - وهو أحد أبطال المقامة وسائر مقامات (الحريري) - الأكمة

ليخطب فيهم وبديت على وجوههم تعبيرات متباينة ، فهم بين مشدوه ومعجب ومنصت ومنزو بوجهه عنه ومشغول بالحديث مع آخر عنه .

ويثور سؤال هام هنا . هل قصد (الحريري) أن يوجه انتقادات مباشرة إلى المحمل الشامي أو أنه عمد بأسلوب غير مباشر إلى نقد المحمل العراقي في صورة المحمل الشامي خوفا من بطش أحد ممن يهيمه أن تظل المثالب المنتقدة باقية ؟ وعلى الرغم من أن هذا الأمر مأخوذ في الاعتبار ووارد إلّا أننا مضطرون إلى التسليم بأن هذه الانتقادات موجهة إلى المحمل الشامي ، وفقا للأماكن التي حددها (الحريري) للمحمل في مقامته ، برغم أن هذه المثالب منتشرة جميعها بين كافة المحامل العربية ولا يخلو واحد منها .

كان المحمل الشامى كثير التعرض للمشاق في رحلته إلى الأراضي الحجازية ففي أخبار سنة ٦٩٢ هـ . قال (ابن الجوزى) صاحب (مرآة الزمان) يصف هذا الموكب : « إن الذى حج في هذه السنة من الشام (بدر الدين بكتاش) المعروف بالطيار ، وسافر المحمل من دمشق في الحادى عشر من شهر شوال ، وحصل للركب الشامى مشقة كبيرة ، فكان في العشرة الأخيرة من المحرم اتهم رياح عظيمة وبرد ومطر ، وهلك الناس ، وتطاييرت العمائم ، وحملت الريح بعض الجمال الواقعة ، واشتغل كل امرئ بنفسه ، وهلكت الامتعة والخياب وحصلت لهم مشقة عظيمة . » (٨)

وفي سنة ٦٩٤ كان ركب المحمل الشامى ركبا كبيرا ، وضم محملا آخر لعملة صاحب ماردين ، وكما يقول (الفاسى) : « وكان لها محل كبير وسبيل كثير ، وتصدقت بمال كثير وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأمراء مكة والمدينة . » (٩) وكان لكثرة الأعداد التي تصاحب المحمل الشامى أن بلغ هذا المحمل أربعة محامل كما حدث في عام ٧١١ هجرية ، فقد « حج الشاميون وأميرهم (علاء الدين طنبغا) ومعهم أربعة محامل : المحمل السلطاني ، ومحمل لأمير الحاج ، ومحمل لبيت الأمير (سيف الدين كحكي ، ومحمل للأمير (عدى الدين أمير عقلة . » (١٠) ولم ينصب الاهتمام بالمحمل الشامى على عدده فقط ، بل اهتم هذا المحمل بكسوته ، من ناحية العناية بها وبزخرفتها على مدى سنين عديدة .

فحينما كان الأمير (شيخ المحمودى) نائبا للسلطان المملوكى على الشام - قبل أن يصبح سلطانا على مصر والشام - أدار المحمل الشامى سنة ٨٠٦ هجرية بعد انقطاعه منذ سنة ٨٠٣ هجرية ، وعمل كسوة للمحمل الشامى ، وهى من الحرير الأصفر المذهب بلغت تكاليفها نحو خمسة وثلاثين ألف درهم فضة . (١١)

وكان من الطبيعى أن يهتم الولاة في العصر العثمانى بكسوة المحمل الشامى مثلما كان الاهتمام به في عصر المماليك . ففي عام ١١٤٤ هجرية عمل (عبد الله باشا الايدىنى) كسوة جديدة للمحمل الشامى ، كما جددت أخرى في عهد (عبدى باشا الجيتى جى) بعد أن حج سنة ١١٧٢ هجرية ، وفي عام ١١٨٣ هجرية عمل

(عثمان باشا) والى دمشق كسوة جديدة للمحمل الشامى غير التى عملها (عبدى باشا الجبته جى) ، ويقال إن هذه الكسوة كانت أفضل وأكبر من كسوة عام ١١٧٢ هجرية .^(١٧)

وقد ارتبطت ولاية دمشق بإمارة محمل الحاج الشامى ، فكان والى دمشق دائماً هو أمير المحمل الشامى لسنوات عديدة خاصة فى العصر العثمانى حتى انفصلت الوظيفتان عن بعضهما فى عهد (عبداللطيف صبحى باشا) والى دمشق عام ١٢٨٨ هجرية .^(١٨)

وكان للمحمل الشامى قاض مثلما كان فى المحمل المصرى ، وقد وقفنا على اسم قاض المحمل الشامى فى عام ١٠٠٣ هجرية وهو (أحمد أفندى الشاميى) ، ويبدو من اسمه أنه لم يكن من أرباب العثمانيين بعكس ما كان يحدث فى المحمل المصرى .^(١٩)

أما محمل حلب فكان فى بعض السنين يحل محل المحمل الشامى عندما كانت تحدث بعض القلاقل أو المناوشات بين الشوام وبعض الجيران الطامعين فى ملك دمشق ، وكانت بدايته فى أواخر القرن الثامن الهجرى . قال صاحب (درر الفرائد) فى حوادث سنة ٧٨٧ هجرية : « وحج الحلبيون بمحمل على صفة المحامل لم يعهد ذلك قبلها » .^(٢٠)

غير أن المحمل الحلبى لم يستمر كثيراً بديلاً عن المحمل الشامى فى الأوقات الحرجة ، إذ تلازم المحمل الحلبى مع المحمل الشامى البادىء رحلته من دمشق ، بحيث يمتزجا معاً فى ركب واحد بمحمليهما كما حدث فى عام ٨٩٢ هجرية .^(٢١) ويبدو أن عام ٧٨٧ هجرية وعام ٨٩٢ هجرية لم يكونا هما العامين الذين برز فيهما المحمل الحلبى إلى الوجود . فبعد البداية بعشر سنوات وفى عام ٧٩٧ هـ فى عهد السلطان المملوكى (برقوق) قدم إلى مكة مع الحجاج الشاميين محمل من حلب كما ذكر ذلك صاحب كتب « شفاء الغرام » ، وأكدته .^(٢٢)

وغير المحمل الحلبى كان يوجد محمل أهل الكرك ، ذلك المحمل الذى وصفوه فى عام ٨٦٩ هجرية بأنه « محمل لطيف » .^(٢٣)

ولكن واصفوه لم يقفوا على تفاصيله ، وربما كان فى غير الأبهة التى كانت معهودة فى المحمل الشامى من حيث العدد والعدة .

ولم يقف أحد على بداية تسيار محمل أهل الكرك ، وإن كنا نظن أن بدايته كانت فى عام ٧٢٢ هجرية ، وهى السنة التى حج فيها السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاوون) من الكرك ذاتها ، إذ لم نقف على ذكر لهذا المحمل - فيما بين أيدينا من المصادر - سوى فى هذه السنة المذكورة ومليحدها ، أما ما قبلها فلا .

كانت حجة السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاوون) من هناك ومعه نحو أربعين (أميراً) وستة آلاف مملوك على الهجن ومائة فارس .^(٢٤)

بعد أن كان يتولى رد كيد اعتداء التتار على الشام ، فلما حاربهم نائب حلب

(سودون الناصري) وانتصر عليهم قبل مجيء السلطان إليه بجنده ، توجه السلطان من غزة إلى حلب بعدما أرجع الجند إلى القاهرة ، وقصد زيارة بيت الله الحرام في مكب من الكرك .

ولم نقف على ذكر لمحمل الكرك مرة أخرى سوى في عام ٨٨٤ هجرية بإشارة عابرة دونما تفاصيل له ، وهي السنة التي حج فيها السلطان المملوكي (الأشرف قايتباي) في المحمل المصري .^(٢٠)

العوادات والمعتقدات في طريق المحمل الشامى :

حمل حجّاج المحمل الشامى في طريق رحلتهم إلى الأراضى الحجازية العديده من عاداتهم ومعتقداتهم الشعبية ، وهذه العادات والمعتقدات لعبت دوراً كبيراً في سلوكهم وتصرفاتهم على مدار سنين كثيرة ذهب وعاد فيها ركب المحمل الشامى . وطريق المحمل الشامى كان يبدأ من دمشق ، ويتجه جنوباً إلى المدينة المنورة أولاً ، ثم من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

وبين دمشق والمدينة والمنورة كانت هناك محطات وقوف بلغت ٣٤ محطة وكان القدماء يسمونها « منازل الحاج » ، وهذه المنازل هى :^(٢١)

- ١ - الكسوة ٢ - دنون ٣ - غباغب ٤ - صمنين ٥ - الشيخ مسكين
- ٦ - الميزيب ٧ - درعا ٨ - المفرق ٩ - الزرقا ١٠ - خان الزبيب ١١ - البلقاء
- ١٢ - قطرانه ١٣ - الحسا ١٤ - عنيزة ١٥ - معان ١٦ - بطن الغول
- ١٧ - المدورة ١٨ - حالة عمار ١٩ - ذات حج ٢٠ - بئر ابن هرماس ٢١ - تبوك
- ٢٢ - وادى الأخضر ٢٣ - المعظم ٢٤ - الدار الحمراء ٢٥ - مبرك الناقبة
- ٢٦ - الحجر ٢٧ - العلا ٢٨ - سهل المطران ٢٩ - البئر الجديد ٣٠ - هدية
- ٣١ - اصطبل عنتر ٣٢ - البوير ٣٣ - بئر نصيف ٣٤ - بواط .

والمسافة بين دمشق والمدينة المنورة تبلغ حوالى ١٣٠٢ كيلومتر ، ومع طول هذه المسافة تولدت لدى حجّاج المحمل الشامى عدة معتقدات وعادات توارثتها الشوّام من طزاق درب الحجيج . وقد امتزجت في هذه المعتقدات والعادات غرائب وعجائب رسمتها لهم وحشة الطريق الممدود في الصحراء الواسعة بكل مخاوفها الحقيقية وغير الحقيقية .

نظر حجّاج المحمل الشامى إلى طول الطريق وما يصيبهم فيه من تعب ونصب وخطر فكانت حيلتهم اللازمة تجاه ذلك أن تخففوا من أمتعتهم عند (المدورة) أو (جعيمان) وهى عند نهاية بلاد الشام وقبل الولوج في أرض الحجاز .^(٢٢) ثم عند العودة يأخذون أمتعتهم وينقلون عائدين إلى بلادهم بالشام ويتزودوا من أزوادهم التى احتفظوا بها هناك .

وأما من كان ينفذ منه زاده فقد كان أهل الشام يرسلون (الجردة) ، وهى نوع من البقسماط أو الكعك إلى (معان) للحجّاج العائدين .^(٢٣)

كان هذا نوعاً من التحوط ، خوفاً من الاحتياج أو العود ، غير أن الخوف من
وعناء الطريق رسم في مخيلة العديد من حجاج المحمل الشلمى تصورات خرافية
رسخت في أذهانهم وتقوقعت وتذررت بغلالات اصطبلت بصبغة دينية
مما ساعدها على النفاذ إلى عمق كبير في دواخلهم .
من ذلك أن أطلق على جزء من طريق صحراوي قفر « داخلها مفقود وخارجها
مولود » وهو الجزء الذى يقع بين عقبة (الصوان) و (ذات حج) ، وعقبة
(الصوان) هذه كانت تلى (معان) عند نهاية حدود الشام وبداية حدود أرض
الحجاز في زمن (ابن بطوطة) سنة ٧٢٤ هجرية .^(٢٤)
وعلى الرغم من بشاعة هذا الاسم الذى يرتجف لذكره القلب ، إذ يعنى مجرد
الخوض فيه أنه هلاك محض ، فقد كان المحمل الشامى يعبره ، إذا لم يكن هناك
خيار غيره .

وبين (تبوك) و (العلا) كانت هناك منطقة تُسمى (المغارة العظمى) ، وفي
هذه المنطقة حرك العطش في داخل حجاج المحمل الشامى مشاعراً ملتعبة أرقه .
وفي إحدى الرحلات وصفت المشاعر بعد ترك (عين تبوك) ، قائلة : « ثم إننا
فارقنا نخلها الطوال ، وسرنا عن شماريخها العوال ، بعدما استعدنا للمغارة
العظمى التى ذكرها يهول ، وخبرها يجوب الأفاق ويجول ، فملأنا القرب
والروايا ، والخبايا التى في حنايا الزوايا . وسرنا على اسم الله والبركة ، وقلنا :
اللهم أنزل السكون على هذه الحركة . ونزلنا دون رأس الوادى ، وحططنا بمنزلة
لم يبدلنا مثلها في تلك البوادي ، وقيل إنها تعرف بالمغارة ، والمسافرون يخضونها
بهذه الإشارة . ويزعمون أنه دخلها سبعة من القلندرية [الدراويش] وعجزوا عن
الحاق بالركب ، فماتوا بها صبرا ، فكانت لهم إلى يوم القيامة قبراً ، لأنهم هلكوا
من الظما ، ووجدوا من عدم الماء الما . »^(٢٥)
وقد قل فيها الشاعر :

مغارم الركب أضحت مفانماً في المغارة
والناس من قبل كانوا وقودها والناس والحجارة
فكانما كانت هي قطعة من جهنم التى وقودها الناس والحجارة ، معاذ الله .. !
ولأن رفيق الإنسان في رحلة المحمل الشامى إلى الأراضى الحجازية كان هو الجمل ،
فلم يخلو الأمر من وجود بعض المعتقدات الشعبية دارت حول الجمل ، سواء كان
ذلك الجمل من جمال المحمل الشامى نفسه أو من غيره .

ففى طريق المحمل الشامى ، وعند منطقة تسمى (مضمن الغزالة) في الطريق
من المدينة إلى مكة حكى (عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى) في رحلته عام ١١٠٥
هجريه فقال عنها : « وفي هذه الليلة تجفل الجمال ، بحيث يضطرب الحاج ،
فيسقط بعض الإحمال ، وتذهب لهم امتعة في الأرض ، وبعضهم يسقط فيصاب
بالشج والرض ، فيقال إن الإبل تتراى لها هناك ملائكة أو شياطين أو أقوام من
الجان فتزعجهم في ذلك الحين . »^(٢٦)

وعند منطقة (الحَجَز) أو ما يسمى باسم (أبار ثمود) أو (مداين صالح) لم ينس حَجَّاج الحمل الشامي قصة ناقة صالح النبي التي وردت في القرآن . وعلى الرغم من البعد الزمني الكبيرين ما حدث من عمر ناقة هذا النبي الكريم - هذا إذا صح القول بأن ذلك حدث في منطقة (الحجر) السابقة - إلا أن كراهية الشرب من هذا المكان بحكم إنه كان مغضوبا على إلهه في أزمنة سحيقة يعد لغوا كبيرا في تشكيل عقول حَجَّاج الحمل الشامي .^(٢٧)

وعند مكان كان يسمى (شق العجوز) زعمت العامة أن ناقة ثمود خرجت من إحدى قطعتي جبل هناك ، ويقال إنها القطعة اليمنى للمار ذاهبا بذلك الطريق ، وربما يرفع الناس أصواتهم إذا مروا في ذلك المكان ، فيزعمون أن ولد الناقة المعقورة باقى هناك (!) وله صوت ، فإذا مسَّ شيء من الجمال ربما سمع صوته فيهلك ، فترفع الناس أصواتهم دفعا لسماع ذلك الصوت .^(٢٨)

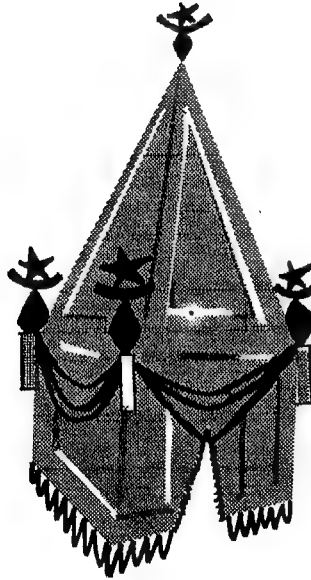
إن معظم المعتقدات الشعبية التي رسخت في أذهان حَجَّاج الحمل الشامي على مدار السنين تدرت بثياب الدين ، وعلى الرغم من البعد الزمني الآخرين غزوة (تبوك) أيام عهد الرسول الكريم - ص - إلا أن حَجَّاج الحمل الشامي أقاموا لهم عادة في منطقة تبوك كما حكى لنا ذلك (ابن بطوطة) في رحلته عام ٧٢٤ هجرية . قال (ابن بطوطة) : « ومن عادة حَجَّاج الشام أنهم إذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم .^(٢٩) »

واشهر ما اشتهر عن الحمل الشامي مسألة التبرك به ، وهو أمر لا يتفرد به وحده ، إذ أن محامل العرب كلها وكذلك محامل الدول الإسلامية لم تخلو من هذه الظاهرة من ذلك ما ذكره الرحالة الأندلسي (ابن جبير) أثناء حجه في عام ٥٨٠ هجرية في عهد السلطان (الناصر صلاح الدين الأيوبي) . قال (ابن جبير) والدهشة تعلو وجهه من المعتقدات الشعبية التي صاحبت الحمل الشامي وحجَّاجه ومستقبله : « ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسر ذلك لهم ، واستطاعتهم لسيبله ؛ فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . ومن أغرب ملحدنا من ذلك أن الحاج الدمشقي ، مع من انضاف إليهم من المغاربة ، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم ، الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لقراءتهم يلقونهم بها ، وأخرجوا إليهم الاطعمة . فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ، وينالونهم الخبز ، فإذا عض الحاج فيه اختطفته من أيديهم ، وتبذلن لأكله تبركا يأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة .^(٣٠) »

وكان من عادة ولاية دمشق عند عودة الحمل الشامي جالبا معه بعض قطع من

كسوة الكعبة المشرفة أن يكسو بها اضرحة الأولياء هناك ، مثلما حدث من وإلى دمشق (عبد الله باشا الأيدينلي) وغيره ، والذي كانت ولايته بين عامي ١١٤٤ و ١١٤٦ هجرية ، فقليل أنه : « جاب زنار الكعبة ، وخط بعضه على تابوت سيدنا (يحيى) ، وبعضه على تابوت سيدنا الشيخ (رسلان الدمشقي) ، وبعضه على تابوت سيدتنا (رقية) و (زينب) قدس الله روح الجميع . » (٣١)

لقد استمر المحمل الشامى بالعديد من معتقداته الشعبية وعاداته ، يتوارثها حجاج الشام ، من جيل إلى جيل حتى بعد استيلاء الأتراك على الشام ، ولم يتوقف إلا بقيام الحرب العالمية الأولى . (٣٢)



ثانيا : المحمل العراقي :

بعد عام ١٣٢ هجرية هو أول عام حج فيه بنو العباس بعدما آل أمر الخلافة الإسلامية إليها وأقل نجم دولة بنى أمية . وكان أمير الحج وقتها هو (أبو سليمان داود بن علي) وهو عم (أبي العباس السفاح) أول خليفة للدولة العباسية الفتية .

ولم يقف قلم التاريخ كثيرا عند حوادث تاريخ الركب العراقي قبل عام ٣١٨ هجرية ، اللهم إلا وقفات عابرة سريعة وخاطفة .

اما في عام ٣١٨ هجرية فقد حدثت مأساة مروعة بفعل القرامطة الخوارج صبغت بالدم المراق أشلاء أجساد آلاف من حجاج بيت الله الحرام ، في عهد الخليفة العباسي (القاهر بالله أبي منصور) ، وفي هذه الحادثة قتل (ابن اياس) : « لما تغلبت على الخلافة طائفة من العربان يقال لهم (القرامطة) وكان أميرهم شخصا يسمى (أبو ظاهر القرمطي) خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه (القرامطة) يسكنون (بهجر) فلما خرج ركب الحاج من بغداد وكان أمير الركب يسمى (منصور الديلمي) فلما وصل بالحاج الى مكة وأقام بها الى يوم الصعود هجم عليهم (أبو ظاهر القرمطي) بمن معه من العربان ، فقتل (محارب) أمير مكة ، وقتل (منصور الديلمي) أمير الركب ، ونهب جميع الاموال التي بمكة ، وقتل الحجاج عن آخرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل في هذه الحركة نحو من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتلاء ببئر زمزم حتى امتلأت بالقتلاء ، ثم دخل الى البيت الشريف ، وأخذ ما كان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة وقلع الحجر الأسود وعرى الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب واعظمها ، ثم ان (أبا طاهر القرمطي) نقل ما نهبه من الاموال وغيرها الى (هجر) واستمر الحج منقطعا من بغداد وغيرها من البلاد نحو من عشرين سنة لم يحج فيها الى البيت احدا » (٣٣)

وحيثما خمدت الفتنة القرمطية استأنف المحمل العراقي رحلاته الى الاراضي الحجازية ، وكان المحمل يضم اعدادا كبيرة من الحجاج ، من العرب ومن العجم ، حتى وصل بالامر الى أن يضم المحمل العراقي محملين في آن واحد مثلما روى الرواة عن محمل سنة ٧٥٨ هجرية : واحد يأتي من (بغداد) في حين يأتي الآخر من (شيراز) ويسيران معا . (٣٤)

ولقد اهتم العراقيون بكسوة محملهم ، وبلغ هذا الاعتناء مداه في عهود كثيرة ، مثل ما فعل (أبو سعيد خرابنده) فيقال انه غشى المحمل العراقي بثوب من المخمل الحريري ورصعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وقد قدر ما على المحمل قبله مائتا وخمسين ألف دينار من الذهب المصري في عهده سنة عشرين وسبعمائة . (٣٥)

ولم يكن هذا المحمل هو المحمل العراقي الوحيد الذي كان مترفاً وبذخاً في تكاليفه ، فمن قبل كان محمل الأميرة (جميلة بنت ناصر الدولة أبي محمد الحسن ابن حمدان) سنة ٣٦٦ هجرية مضرب الأمثال في زينته وتجمله . قيل كان معها أربعمائة محمل لها لون واحد ، فلم يعلم أحد ممن رأى الموكب في أيها كانت ، وانفقت في هذه الحجة ألف ألف دينار ومائة وخمسين ألف دينار ، ويقال أنها لما رجعت إلى بغداد صايرها (عضد الدولة بن بويه) واستنصفي أموالها . (٣٦)

وفي عام ٥٧٩ هجرية وقف الرخالة (ابن جبير) فأغرا فاه أمام بذخ المحمل العراقي ، خاصة ذلك المكان الذي كان يقيم به أمير المحمل ، فلقد رأى حوله سرادق كالسور من كتان ، كانه حديقة ، وفي داخله القباب المضروبة بسوادها وبياضها واللوانها ورقشها الذي يبعث على المهابة . وقد لاحظ (ابن جبير) أن أبواب هذا السرادق مرتفعة ارتفاعاً غير عادي ، بحيث يدخل منها الفارس برايته دون أن يطأ طيء الراس أو يحني القامة . ولم تكون الحفاوة تحف أمير المحمل فقط ، بل سائر الأتباع .

ويصف (ابن جبير) الموكب قائلاً : « ولهم أيضاً في مراكزهم على الإبل قباب تظلمهم بديعة المنظر ، عجبية الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها (القشاوات) وهي كالتوابيت المجوفة ، هي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال ، تملأ بالفروش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحاً كانه في مهد لين فسيح ، وبزائنه معادلة أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعرا أن أو كيف ما احيا . فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين أن كانا من أهل الترفه والتنعيم ، يدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان ، وينصب لهما كرسي يزلان عليه ، فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خبطة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفه ، فهؤلاء لا يلحون لسفرهم وأن بعدت شقته نصبا ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً . » (٣٧)

وسجل (ابن جبير) استقبال هذا المحمل العراقي في مدينة (الموصل) وسط حفاوة أهلها به ، فكان - على حد قوله - « من أحفل المشاهد الدينيوية » حيث « خرج الناس عن بكرة أبيهم ركباناً ومشاة ، وخرج النساء كذلك - وأكثرهن راكبات قد اجتمع منهن عسكر جرار - وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته ، فدخل الحاج الموصلة صحبة (خاتونهم) على احتفال وإبهة ، قد جللوا أعناق أهلهم بالحرير الملون ، ولقدوها القلائد المزوقة . » (٣٨)

ولقد أخذ بذخ المحمل العراقي بلب (ابن جبير) فواصل وصفه قائلاً : « ودخلت (خاتون المسعودية) تقود عسكر جوارياها ، وإمامها عسكر جوارياها ، وإمامها عسكر جوارياها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتمائيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من

القبة مؤضعا ، ومطيتهاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلى يسد المسامع . ومطايهاها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواربها كذلك ، مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره . وكان مشهد أبهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل مُلك يفنى إلا مُلك الواحد القهار لا شريك له .» (٣٩)

كان بذخ المحمل العراقي في أوجّه وقت أن كانت بغداد عاصمة للخلافة الإسلامية ، وكان هذا الاهتمام به لأنه كان يمثل عنوان الدولة ووسيلة للتعرف على مدى قوتها وقت اجتماع الخلق لتأدية مناسك الحج ، ولم نسمع أو نقف على ذكر لهذا البذخ عند ضعف الدولة العباسية وبزوغ نجم ممالك أخرى نافستها في هذا المضمار .

عجائب المحمل العراقي :

في عام ٥٧٩ هجرية أخذ العجب بلب الرحالة الأندلسي (ابن جبير) من أمر المحمل العراقي ، وقال واصفا احساسه هذا : « فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي ، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به ، ويتحف السامع بغرابته .» (٤٠)

ومن تلك الأعاجيب طريقة الاستدلال على من يضل من الحجاج بالركب وذلك بالطواف به والناداة على اتباعه من فوق جمل وسط الجموع الهائلة من الحجيج ، فضلا عن دقة نظام الحل والترحال وفق نقرات محددة على كوسات معدنية . وقد يكون هذان الأمران غريبين في ذاك الزمان ، أو على الأقل لم يكن (ابن جبير) يعهد ذلك فيما رأى من محامل وسط أعداد غفيرة مختلطة ببعضها ، لكن التاريخ يحمل في أوراقه بعض الأعاجيب للمحمل العراقي ، سواء كانت قبل (ابن جبير) أو بعده .

ومن تلك الأعاجيب ما حدث في عام ٤٨٩ هجرية بشأن استطلاع رأى المنجمين في أمور غيبية ، معاذ الله .

قال (سبط بن الجوزي) صاحب (المرأة) عن هذه الحادثة : « فيها حكم المنجمون أن يكون طوفان كطوفان نوح عليه السلام ، وكان ببغداد (ابن عيشون) المنجم ، فقال : أخطا المنجمون ، طوفان نوح قد اجتمع في برج الحوت الكواكب السبعة ، والآن قد اجتمع ستة وزحل لم يكن معها ، ولكني أقول أن بقعة من البقاع يجتمع فيها عالم من بلاد كثيرة فيغرقون ، فقيل : ما أكثر من بغداد فيجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها ، وربما كانت هي ، فقال (ابن عيشون) : لا أدري غير ما قلت ، فامر الخليفة بإحكام المسننات وسد الفروج ، وكان الناس يتوقعون الغرق ، فوصل الخبر بأن الحاج قد نزلوا في واد عند (نخلة) فاتاهم سيل عظيم ، فاجتاح الجمال وأخذ الرجال والنساء ، وما نجا إلا من تعلق برعوس الجبال ، فخلع الخليفة على (ابن عيشون) وأجرى له جراية .» (٤١)

وهذه الحادثة تتعلق بعقائد أهل بغداد انفسهم ، الذين ظنوا انهم لم يحتاطوا الاحتياط الواجب لمحملهم ، ولم يلتفتوا الى الطبيعة الجغرافية لأم القرى المحاطة بالجبال وتعرضها للسبيل في مرات غير قليلة .
وان يذهب الحاج الى بيت الله الحرام على ظهر جمل فهذا شيء عاى ، وأن يكون المحمل من فوق جمل فهذا شيء طبيعى ، لكن أن يكون في المحمل العراقي فيل فهذا شيء غير مألوف البتة !..

وهذا هو ما حدث من المحمل العراقي عام ٧٣٠ هجرية ، ففتايرت أهل مكة من ذلك « - على حد قول (ابن اياس) - وادى أمير المحمل به المناسك كلها ، وسار به الى المدينة النبوية ، فلما وصل الى العريش الصغير قبيل البداء الذى ينزل منه الى ذى الحليفة توقف وتقهقر ، وصار كلما يقدم رجلاً يؤخر أخرى ، فضربوه ليسير وهو يابى ويرجع القهقرى ، فصار كلما اكراه ان يتقدم الى المدينة تأخر الى ورائه . هذا وهم يضربونه ويتأخر ، الى ان سقط ميتاً في يوم الأحد الرابع عشر من ذى الحجة . ويقال ان المصروف عليه من حين خروجه من العراق الى أن هلك زيادة على ثلاثين ألف درهم ، ولم يعرف مقصد (ابى سعيد خربندة) ملك العراقيين - في بعثة الفيل الى مكة المشرفة » .^(٤٧)

موضع الغرابة في هذه الحادثة يكمن في أمرين :- اولهما : ان الفيل كحيوان ليس من الشائع ركوبه في بلاد العرب ، فالبلاد العربية ليست بلادا تتركب الأفيال ، بل مطيتها الجمال لما لها من مقدرة على تحمل وعناء الطريق القفر ومشاقه وندرة الماء فيه . وثانيهما : ان الفيل مرتبط في الأذهان بحادثة عام الفيل ، قبل بعث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لذا كان (ابن اياس) صادقاً في عبارته « فتايرت أهل مكة من ذلك » لأنه لم يدخل مكة - على امتداد تاريخها الطويل - فيل من قبل سوى فيل (أبرهة) الذى رام هدم بيت الله الحرام .

خلافاته مع المحامل الأخرى العربية :

في تاريخ المحامل العربية كلها مشاحنات لا حصر لها ، فلم يستطع أى منها ان يلقى خلف ظهره بخلافاته السياسية ، فاشتجرت بينهما الشواجر والخلافات وفترت امورها الأهواء والمطامع منذ امداد بعيدة وحتى عهد قريب !..
والمحمل العراقي كغيره من المحامل العربية حمل ادران تلك الخلافات ، بل كان هو أكثر المحامل العربية جمعاء نزاعاً وشجاراً مع غيره بحكم انتقال مركز السلطة من بغداد الى مراكز أخرى ، مثل القاهرة ودمشق .

وكان أول خلافات المحمل العراقي مع المصريين عام ٣٤٠ هجرية ، وقت ان كان يحكم مصر بنو الأخشيدي بعد أن استقل بحكمها الطولونيون بعيداً عن حكم بنى العباس .

وعلى الرغم من نشوب القتال بين الطرفين - العراقي والمصرى - في مكة ، فقد

تمت مناسك الحج ، وخطب الخطيب بعرفة وهو واقف فوق صناديق العامة من المصريين عوضاً عن المنبر الذى سرق .. (٤٣)
 وفى أواخر العصر المملوكى كثرت خلافات المحمل العراقى مع المحمل المصرى ، وكانت لهذه الخلافات عدة اسباب جوهرية هامة ، كما كان لبعضها دوافع واهية وثاقفة ..

ومن تلك الدوافع الواهية والثاقفة أن يسبق المحمل المصرى والمحمل الشامى فى احد المرات المحمل العراقى ، فيحس الأخير بالاهانة .. وهذا تمام ما حدث فى عام ٨٧٦ هجرية فى عصر السلطان (الأشرف قايتباى) المملوكى . (٤٤) وفى العام التالى وقعت مشاحنات بين المحمل العراقى والمحمل المصرى ، يقول (عبدالقادر الجزيرى الانصارى) واصفاً تلك الواقعة : « كان أمير المحمل المصرى (برسباى الأشرفى المعلم) وحج العراقيون بمحمل على العادة ، فصدهم أمير الحاج المصرى عن دخول مكة ، وأمر أمير الحاج الشامى أن ينزل بجميع الشاميين بين الحجرتين ، لئلا يدخل الحاج العراقى ، فاقام الى السادس من ذى الحجة ، فلما كانت ليلة السابع أمروا جميع حجاج العراق بالدخول الى مكة ، وتركوا المحمل بقبر أم المؤمنين (ميمونة) - رضى الله عنها - (بسرف) ، واحتاطوا على أمير الحاج العراقى فمסקوه مع دوايداره واعتقلوهما ، ودخلوا بهما مكة على راحلتين بهيئتهما ، ثم ذهب بهما أمير الحاج المصرى بصحبته الى القاهرة مع محملهما » . (٤٥)

نفس الواقعة يصفها (ابن اياس) بطريقة أكثر تفصيلاً وأكثر اقناعاً مما سبق ذكره ، إذ لم يذكر فيما سبق الدوافع وراء هذا الشجار . يقول (ابن اياس) : « وصل مبشر الحاج وأخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل الى المدينة الشريفة ، كان أمير ركبهم شخصاً يقال له (رستم) ، وصحبته قاض يقال له (أحمد بن دحية) ، فضيقوا على قضاة المدينة وأمرهم بأن يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل (حسن الطويل) خادم الحرمين الشريفين - ملك العراق - ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج اليهم الشريف (محمد بن بركات) ولاقاهم من بطن مرو ، قبل أن يدخلوا الى مكة ، وقبض على (رستم) أمير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، وأودعهم فى الحديد ليبعث بهم الى السلطان ، ثم أطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض لهم » . (٤٦)

ويذكر (ابن اياس) عند عودة المحمل المصرى هذا الى القاهرة أن كان معه من

الغنائم كسوة للكعبة المشرفة أمر بعملها ملك العراق ..

هنا يتضح لنا سبب هذا الشجار بين المحمل العراقى والمحمل المصرى . فقد كان العراقيون يريدون أن يُخطب باسم ملكهم فى المدينة المنورة وإعلان هيمنتهم على الأمور ، كما أرادوا أن يعلقوا كسوة للكعبة المشرفة صنعوها ، فى حين أن

مصر قد اختصت وانفردت وحدها بذلك الشرف الرفيع !
وانتهى هذا الخلاف بعد أن قدم ملك العراق اعتذاراً عما حدث للسلطان
(الأشرف قايتباي) في رسالة مكتوبة بعثها اليه في شهر المحرم سنة
٨٧٩ هجرية ، بعد أن أفرج السلطان المملوكي عن المقبوض عليهم من العراقيين
في شهر ربيع الآخر سنة ٨٧٨ هجرية .
وكما كانت تحدث خلافات للمحمل العراقي مع الحجاج المصريين ومحملهم
كانت تحدث أيضاً مع حجاج الشام .

وكان أبرز تلك الخلافات ما حدث في عهد الدولة الأيوبية عام ٥٨٢ هجرية .
ففي هذا العام ضرب أمير الحج الشامي كوساته وقت النفر من جبل عرفات ، ورفع
راية السلطان (صلاح الدين الأيوبي) ، وهم بالافاضة من عرفات ، غير أن هذا
الموقف لم يرق لأمير الحج العراقي ، ودارت معركة طاحنة بين الركبين سقط
بسببها عدد كبير من القتلى ...!

وكانت هناك خلافات بين المحمل العراقي وأهل الحجاز في مرات عدة . فقد حدث
في عام ٧٢٨ هجرية أن احضر العراقيون جنثمان نائب ملك العراق ليدفن عند باب
الرحمة بالمدينة المنورة ، غير أن أمير المدينة لم يمكنه من ذلك إلا بعد استئذان
السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) ، ووقفوا بالجنثمان في تابوته على جبل
عرفات ، ودخلوا به مكة ليلاً ، وطافوا به حول البيت الحرام ، ولم يعرف في
التاريخ أن كان قد تمكن العراقيون من دفنه في أرض الحجاز أم عادوا به أرض
العراق!!^(٤٧)

وكما دخل العراقيون بتابوت نائب ملكهم سرا الى الأراضي الحجازية ، فقد
عمدوا سرا الى قبس الكعبة المشرفة طولاً وعرضاً ، وعدوا عدد أعمدة وأبواب
المسجد الحرام بعد رحيل المحمل المصري سنة ٨٠٧ هجرية .^(٤٨)
كان هذا الفعل غريباً أمام أهل مكة ، ولما سأل أمير مكة (حسن بن عجلان)
عن سبب ذلك عرف أن ملك العراق كان ينوي إرسال جيش عدده عشرة آلاف فارس
صحبة المحمل العراقي ومعهم كسوة عراقية للكعبة المشرفة ، ويبدو أن هذا
العدد الكبير من الجيش كان لاجبار أمير مكة على قبول الكسوة العراقية ومنع
الكسوة المصرية ، ولكن الفكرة ماتت في مهدها ، ولم تخرج الى حيز التنفيذ ،
ويبدو أن مكاتبة الشريف المكي لاختبار السلطان المملوكي (الناصر فرج
ابن برقوق) بما حدث كان الباعث الأساسي على قتل هذه الفكرة .

ثالثاً : المحمل اليمني :

تضاربت الأقوال في تحديد فترة البداية الزمنية لنشأة المحمل اليمني . قال
(قطب الدين محمد بن الزهرواني) أنه نشأ في عام ٩٦٣ هجرية بعد أن تولى (مصطفى
النشار) ولاية اليمن ، والذي كان أمير الحاج المصري عام ٩٦٢ هجرية ، وجاءه الأمر
بتكرار عودة المحمل المصري للأمير (مراد بك) وذهابه من مكة الى اليمن عن طريق البر
فوراً .

وقال عن (مصطفى النشار) هذا عدة مآثر منها : : انه أحدث لحجاج اليمن محملا مثل محمل الحاج المصرى والشامى ، ورثب لهم أمير الحاج وقلضى المحمل وعرضة مثل عرضة أمير الحاج المصرى والشامى ، فيبرز السيد الشريف صاحب مكة ملاقة أمير الحاج اليماني بعسكره الى خارج مكة ، في بركة الملاجئ ، ويلبس الخلعة الشريفة السلطانية من يد أمير الحاج اليماني ، ويدخل معه الى مكة كما يفعل ذلك مع أمير الحاج المصرى والشامى ، ويفارقه مولانا السيد الشريف عند المرور على دار السعادة ، ويتوجه أمير الحاج اليماني بمحملة الى أن يصل الى المعلاة ، فينزل عن يمين النازل الى المعلاة في سفح جبل عند البستان المعروف الآن ببستان المدنى يقى منه شجيرات سدر ، ويطلع المحمل مع جماعة المحامل يوم الصعود الى عرفات ، فينزل قبل الوصول الى محطة أهل مكة على يمين الصاعد الى عرفات ، ويحمل وقت الوقفة بعلمه وطبله وزميره ، ويسير الى نحو جبل الرحمة ، فيقف بجبل عرفات بين يدي من يخطف خطبة عرفة ثلاث محامل : المصرى واليماني ثم الشامى ، وأقر ذلك مالا يصرف عليه من الخزائن السلطانية التي تحصل في اليمن ، واستمر ذلك قنونا جاريا الى الآن ، وكان من قبل ذلك ياتون للحج من بلاد اليمن بدون أمير الحاج وبدون المحمل ، بل تاتي قافلة يكون لها شيخ من بني مزروق السادة والمشايخ نفح الله تعالى ببركتهم .^(٩٩)

وحدد اللواء (ابراهيم رفعت باشا) في كتابه « مرآة الحرمين » نفس التاريخ وهو عام ٩٦٣ هجرية ، كبداية للمحمل اليماني ، وأضاف انه استمر مجيئه الى مكة حتى سنة ١٠٤٩ هجرية ثم انقطع لما جد من الفتن .^(١٠٠)

وورد في كتاب (درر الفرائد) ان (مصطفى باشا) المعروف باسم (النشار) أعاد تجهيز المحمل اليماني بعد انقطاعه في عام ٩٤٩ هجرية.^(١٠١) إذن فالمحمل اليماني كان موجودا قبل ذلك التاريخ ، ولم تكن بدايته الحقيقية على يد (مصطفى النشار) هذا المذكور .

وقد ذكر (الفاسى) في كتابه « شفاء الغرام » في حوادث سنة ٨٠٠ هجرية ان « حج محمل اصحاب اليمن الملك الأشرف مع طواشي من جهته ، وفي خدمته الشريف (محمد بن عجلان) وحج معه جماعة من اعيان التجار والفقهاء المكيين وغيرهم ، وحصل للحجاج الذين كانوا مع المحمل اليماني عطش بفرب مكة مات فيه جماعة منهم رحمهم الله تعالى ، ووقف بعرفة مع المحامل ».^(١٠٢)

بل وقبل ذلك التاريخ ، وفي حوادث عام ٧٨٠ هجرية ذكر صاحب كتاب « درر الفرائد » انه : « لما وصل الحاج الى مكة بلغهم قدوم محمل اليمن وكسوة الكعبة ، جهز ذلك صاحب اليمن (اسماعيل بن الفضل عيسى بن المجاهد) وكان قد انقطع المحمل اليماني من دهر طويل يكون مقدار ثمانين سنة ، فمنع الأمير (قرة دمرداس الاحمدى) المحمل من الدخول وحجاج اليمن ، فلم يزل السيد (احمد بن عجلان) أمير مكة يتوسط بين المصرى واليماني حتى دخل أهل اليمن بمحملهم ووقفوا بعرفات ، ولم تكن لفتنة ».^(١٠٣)

وإذا قررنا دقة التاريخ الذى حدده صاحب الدرر في كتابه يكون انقطاع المحمل اليماني في عام ٧٠٠ هجرية ، واستمر ذلك حتى عام ٧٨٠ هجرية ، وأقدم تاريخ استطعنا الوصول اليه - فيما بين ابيدينا من المصادر - للمحمل اليماني هو عام ٦٩٦ هجرية ، حيث ذكر ذلك صاحب كتاب « درر الفرائد » في اشارة سريعة اليه بغير تفاصيل ، فقد قال في حوادث هذه

الستة : « كان أمير الحاج الشامي (عز الدين كرجي) ، وحج المحمل اليماني ، وعلم الملك المنصور صحيفة القائد ابن زنكي ».^(٥٤)

وكان من السهل على حجاج اليمن أن يَحْتَوُوا بالبحر - على الرغم من مخاطره - حتى لا يتعرضوا لمخاطر العربان قطاع الطريق البري . وكان هذا الطريق البري ينقسم الى مراحل ، بحيث يبدأ من مدينة (تعز) ، ثم (البئر) ، ثم (وادي الحناء) ، ثم (وادي الموز) الذي يكثر فيه الموز والشراب المسكر ، ثم (زبيد) ، وهي دار الملك ، وبها يجتمع الحجاج اليمانيون ويتكاملون ، ثم (حديدة زبيد) ، ثم (المعلازية) ، ثم (نضال) ، ثم تتوالى المراحل : القحمة - جازان - بياضة - حرص - المحالب - حل بني يعقوب - ترعة بني حازم - ملتقى الواديين - الحسنة - يللم ، وهي ميقات اهل اليمن حيث يحرمون في هذا المكان ويهلون بالتلبية ، ثم يتجهون الى (بئر علي) ثم الى مكة المكرمة .^(٥٥)

خلافات المحمل اليماني :

ورث المحمل اليماني خلافات عديدة نشبت على ارض الحجاز ، فقد رأى اليمانيون ان الدولة العباسية أصبحت ضعيفة ، وان الدولة الايوبية في مصر انشغلت بحروبها الصليبية ، ففكر من ملك اليمن منع اعلام الخليفة العباسي من طلوع جبل عرفات . ومنع حجاج العراق من دخول مكة ، تحت تهديد السلاح ، وقيل انه في عام ٦١٩ هجرية لبس الملك اليماني (اقيس ابن الكامل) الملقب بالمسعود خلعة الخليفة وهو في مكة .^(٥٦) ويذكر التلرخ ان الملك (المجاهد) صاحب اليمن تحارب مع المحمل المصري فوق جبل عرفات في عام ٧٥١ هجرية ، ولما انهزم اقتادوه الى القاهرة مكبلا في القيود ، وعندما تصالح والسلطان (الناصر حسن بن قلاوون) والفرج عنه ، ارسل معه زمرة من الجند لتوصيله الى مكة ، غير انه غدر بهم عند ينبع بالأراضي الحجازية ، فما كان منهم إلا أن قبضوا عليه ، واعادوه في الاغلال مرة أخرى الى القاهرة ، ومنها ارسل الى سجن الاسكندرية .^(٥٧)

ورغم انقطاع المحمل اليماني ثمانين عاما عن الذهاب الى الأراضي الحجازية ، إلا أن الخلافات لم تنقطع ولم تزل ، فحينما وصل حجاج المحمل المصري الى مكة علم ٧٨٠ هجرية « بلغهم قدوم عسكر من اليمن ، وصحبتهم محمل وكسوة للكعبة ، فمنعهم من الدخول الى مكة أمير الحاج الأمير (قرا دمرداش) غلم يزل الشريف (أحمد ابن عجلان) يتلطف بالأمير (قرا دمرداش) ، حتى اذن لهم في الدخول الى مكة بحملهم ، فدخلوا ووقفوا بعرفة ، ثم ان أمير الحاج كسى الكعبة ، وخرج من مكة في يوم عيد النحر ، وخشي من وقوع فتنة بينه وبين صاحب اليمن ».^(٥٨)

كانت المسألة مسألة كرامة حكم ووجاهته وسيادته ، ولأن قلب الحكم المملوكي وتقله الذي يؤثر مركزه في توجيه دفة الأحداث كان في القاهرة ، فكان من الصعب نفسيا أن تمر استقرارات المحمل اليماني مرور الكرام أمام أعين ولاة الأمور في القاهرة . وكان يزيد ذلك الأمر المرير مرارة أن يتخلف في ستة من السنين لسبب أو لآخر المحمل المصري عن الحج . قال (ابن اياس) في أحداث عام ٩١٢ هجرية : « جاءت الأخبار من مكة بأن حضر الى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ، ووقفوا بالجبل ، فتندك السلطان - الغوري - بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك في حقه

نقصا بين ملوك اليمن وغيرها.^(٥٩) وكثرت التقلبات السياسية والنزاعات باليمن في العصر العثماني ، ووجد المحمل اليمني كثيرا قد القوة بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام سنة ١٠٦٧ هجرية الموافق ١٦٥٦ ميلادية.^(٦٠)

رابعاً : المحمل المغربي :

كان المحمل المغربي ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية وفق اماكن تجمعها ، وهي : محمل سلجماسه وتافيلات ومحمل مراكش وفلس ومحمل تطوان وسلا . وكان الحملان الأولان من النوع البري ، بينما المحمل الثالث من النمط البحري.^(٦١) كانت قوافل الحج المغربية تصب في القاهرة قبلما تصل الى الاراضي الحجازية حتى تانس بصحبة المحمل المصري في الطريق ، في الذهاب وفي الإياب . وقد تميزت ظاهرة المحامل المغربية بعدة ظواهر ، كان اهمها :

١ - ان التقاء المحامل المغربية في الحواضر الشرقية في مسيرات تختلف بين الذهب شرقا والاياب غربا - برا وبحرا - وبما يفيد بانتظام السفر بين المغرب والمشرق ذهابا وايابا على مدار السنة تنقل المراسلات بل والزاد ، فكان هذا الالتقاء فرصة للرحلة المغاربة للوقوف على اخبار بلدهم في قطاعاته المختلفة ، فضلا عن نقل اخبارهم الى ذويهم بشكل منتظم ومن غير قلق من طول الرحلة في السفر او الإقامة . والملاحظ من الرحلة ان الإقامة بالشرق قد تنوعت بين هدف المجاورة في مكة وهدف التجارة في طرابلس ومصر .

٢ - ان تقابل المحامل المغربية مع غيرها من محامل الحج الجزائرية والتونسية والطرابلسية والمصرية ، بل ومصاحبة بعضها احيانا ، ومثل هذا التقابل كان يعطى كل محمل الفرصة للوقوف على معالم الحياة في المحامل الأخرى والأخذ منها او انتقاده او الدخول في جدل حولها .

٣ - ان تنوع الجدل في هذه المحامل بين المعتقدات المحلية والعلات الشعبية ومظاهر الحكم وحياة الحواضر والبوادي يبرز نظرة المغرب العربي للشرق العثماني وما يدور من حوله.^(٦٢)

ولم يكن هؤلاء الحجاج المغاربة بمعزل عما يدور في مصر او في غيرها ، ويكفي لابرار وحدة الشعور القومي بين المغاربة والمصريين الذين تضامروا في ركب واحد على مدار السنين ان نذكر ما حدث في عام ١٢١٣ هجرية بعدما نزل بمصر وباء الحملة الفرنسية التي راحت تقتلع منها كل اخضر ويابس .

قال (الجبرتي) في أحداث شهر ذي القعدة من تلك السنة : « وفيه حضرت مغاربة حجاج الى بر الجيزة فتحدث الناس وكثر لغطهم وتقولوا بانهم عشرون ألفا حضروا لينقذوا مصر من الفرنسيين ، فارسل الفرنسيين للكشف عليهم فوجدتهم طائفة من خلايا وقرى فلس مثل الفلاحين ، فاذنوا لهم في تعبئة بعض انفار منهم لقضاء اشغالهم ، فحضر شخص منهم الى الفرنسيين ووشى اليهم انهم قدموا لمحاربتهم والجهاد فيهم ، وانهم اشترؤا خيلا وسلاحا وقصدهم اثرة فتنة .

فارسل الفرنسيين اليهم جماعة ينظرون في امرهم ، فذهبوا اليهم وتكلموا معهم ومع كبيرهم وعن الذي نال عنهم ، فقالوا : انما جئنا بقصد الحج لا لغيره . ثم رجعوا وصحبهم كبير المغاربة فعملوا الديون في صباحها واحضروهم ، وكذلك احضروا الرجل

الذى وشى عليهم فتكلموا مع كبير المغاربة ، وسالوه ، وناقشوه ، فقال : إنا لم نأت إلا بقصد الحج . فقليل له ولاى شيء تشترون الأسلحة والخيول ، فقال : نعم لازم لنا ذلك ضرورة ، فقليل له : أنه نقل عنكم انكم تريدون محاربة الفرنسيوة وتقولون الجهاد افضل من الحج ، فقال هذا كلام لا اصل له ، فقليل له : ان الناقل لذلك رجل منكم ، فقال : ان هذا رجل حرامى امسكناه بالسرقه وضربناه ، فحمله الحق على ذلك ، وان هذه البلاد ليست لنا ولا لسلطاننا حتى نقاتل عليها ، ولا يصح ان نقاتلكم بهذه الشرمة القليلة وليس معنا إلا نصف قنطار بارود . ثم اتفقوا معه على ان يجمعوا سلاحهم ويقيم كبيرهم عندهم رهينة حتى يعدى جماعته ويساقروا ويلحقهم بعد يومين بالسلاح ، فاجابهم الى ذلك ، فشكروه واهدوا له هدية . فلما كان يوم السبت خرجت عدة من العسكر الى بولاق ومعهم مدفعان ليقلوا للمغاربة حتى يعدوا البحر ويمشوا معهم الى العادلية ، فلما رأى الناس خروج العسكر والمدافع فرعوا في المدينة وبولاق ورمحوا كعادتهم في كرشاتهم وصيلاحهم ، واشابوا ان الفرنسيس خرجت لقتال المغاربة ، واغلقتوا غالب الاسواق والدكاكين وأمثال ذلك من تخيلاتهم ، فلم يعد المغاربة ذلك اليوم وعادوا في ثلثي يوم ، ومشى معهم عسكر الفرنسيس الى العادلية وهم يضربون الطبول وامامهم مدفع وخلفهم مدفع مع جملة من العساكر .» (٦٣)

كان هناك نوعان من الحجاج المغاربة يرافقان المحمل المصرى في رحلته الى الأرض الحجازية .

كان النوع الأول من الاصحاء القادرين على تحمل مشاق السفر برا او من يصفهم (العيشى) - في رحلته الحجازية لاداء فريضة الحج خلال القرن السابع عشر في ١٠٦٤ هجرية ١٦٥٣ ميلادية « باهل القوة الذين لهم شقف ومحامل وهوادج ينالون فيها بالليل على ظهور الابل ، ويصحون بالنهار كأنهم مقيمون . والنوع الثانى من الفقراء الذين لا يملكون تكاليف السفر والذين يصحبون القافلة ويعيشون على هامشها وقد وصفهم (العيشى) صاحب كتاب « ماء الموائد » بأنهم من الذين « لا إبل لهم ولا امتعة يرافقون الوفد المصرى بالماء الجبل في اوقات من الليل ، وعند الرحيل نهارا مع ما ينالهم من اهل المروءة من التصديق بفضل الاطعمة ، إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة في المشى والسهريلا ، وفي النهار يشتغلون بالسعى على ما يفوتهم فلا يكونون ينالون إلا قليلا » .» (٦٤)

كان البعض من المغاربة ممن تيسر له الحال يترك ركب المحمل المصرى عندما يقرب مسيره من السويس ، أما الفقراء فكلوا يواصلون معه السير .» (٦٥)

لم تكن علاقة المغاربة بالمحمل المصرى هي وليدة العصر العثمانى وحسب ، بل امتدت هذه العلاقة الى ابعد من ذلك . فقد كان ولاة الامور في المغرب العربى يصلون الى مصر عند قصدهم حج بيت الله الحرام ، ويلقون فيها من قادتها كل ترحاب وحفاوة وتقدير متبادل . وذكر (ابن ابيس) في حوادث سنة ٧٣٦ هجرية ان زوجة ملك المغرب آتت الى مصر عند توجهها الى الحجاز ، وحضر صحبتها تقادم حفلة للسلطان ، ومن جعلتها اعجوبة وهو ثور اصفر ، فالحق اللون ، كامل الخلقة ، وفي وسط ظهره من الجانب الايمن كتف طالع منه رعوس اضلاعه ، وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وحافر مفروق مثل حافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ، ويجبى عليه كما يُفعل بالسباع ، وكان يطوف القاهرة ، وعليه جل من حرير اصفر .» (٦٦)

وبعد ذلك بعامين ، وفي سنة ٧٣٨ هجرية حجت أم السلطان (أبي الحسن علي ابن عثمان المرسى) صاحب فاس ، وتصدرت ركب المحمل المصرى تكريما لها .^(٦٧) وفي حوادث شهر رمضان سنة ٨٠٣ هجرية ذكر (ابن اياس) ان حجاج المغرب عندما وصلوا كان على رأسهم رُسل صاحب تونس بهدية ، منها ستة عشر فرسا ، قدمت للسلطان ، وقدم معهم نحو ثلثمائة فرس للبيع .^(٦٨)

وذكر (ابن اياس) كذلك في حوادث شهر رمضان سنة ٨٧٧ هجرية انه : « وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صاحبهم الحُرّة زوجة صاحب تونس ، وحضر صاحبها قاضي الجماعة الشيخ (أبو عبدالله محمد بن عمر القلجاني) وكان من فضلاء علماء الملكية ، فأكرمه السلطان (قليتبای) والأمراء ، ورأى من العزّ والعظمة حظا وافرا » .^(٦٩) وفي عصر (محمد علي) استمر هذا العرف قلما ، واستمرت العلاقات وطيدة بين القاهرة وأمراء المغرب العربى عند وفودهم اليها للحج .

قال (الجبرتي) في وقائع شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٦ هجرية : « وفي سادسة ، حضر ايضا الركب الفلى وفيهم ابن سلطان المغرب مولای (ابراهيم) ابن مولای (سليمان) ، فاعتنى الباشا بشانه ، وأرسل كتخدا بك ملاقاته ، وقدم له تقلام ، وأعدوا له منزل (علي كاشف) بالقرب من بيت (المحروقي) ، لينزل فيه ، وتلقب بخدمته الرئيس (حسن المحروقي) وحواشيهم لمطبخه وكلف طعامه ، فلما عدى طلع الى القلعة وقابل الباشا ، ونزل الى المنزل الذى أعده له وإمامه قواسة أترك وطرادون وأشخاص أترك يضربون على طيلات وإمامه جميع المغاربة مشاة ، ويأمرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على أقدامهم . فأقام خمسة أيام حتى قضى أشغاله ، وفي تلك المدة تغدو اليه وتروح رسل الباشا ، وأرسل له هدية وذخيرة من كل صنف سكر ، وعسل وسمن ، ودقيق ، وبقسماط وأشياء أخرى ، وبلرود ، وأعطى له ألف بنذقية لضرب الرصاص ، وبرز في عشرة ، وسافر في ثلثي عشرة » .^(٧٠)

خلافات المحمل المغربى :

مع كثرة رحلات المغاربة الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج نشأت عدة خلافات بينهم وغيرهم في الطريق الطويل .

ومن أبرز تلك الخلافات ما حدث في عام ٧٨٥ هجرية في مدينة (ينبع) بالأراضى الحجازية ، فقد حدث أن أمير ينبع (سعد بن أبى الغيث الحسنى) كان قد نزل على الحجاج المغاربة بوادى العقيق ، وسأله أن يعطوه شيئا من الدراهم ، فأمسكه شيخ ركب المغاربة ، وربطه من كتفيه بحبل ، وأخذ فرسه من تحته ، وأخذ ماشيا الى خيامه ، فاتاه جماعة كثيرة من قبيلته ، وقتلوا المغاربة أشد القتال ، وقتل من المغاربة جماعة كثيرة . وخلصوا أمير ينبع من أيديهم ، كما وقعت كذلك معركة أخرى بين المغاربة وحجاج الكرو والصلعيدة المصريين كلن من نتيجتها أن أخذ المغاربة أموالهم ..^(٧١) وقد نشأت مصدامات بين المغاربة وبعض الفئات في القاهرة في العصر العثمانى في فترة التآهب للسفر بالمحمل المصرى الى الحجاز .

من ذلك ملرواه (الجبرتي) في حوادث سنة ١١١٠ هجرية قال : « وفي رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من اهل تونس وفلس . وذلك أن من عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة

التي تحمل كل سنة للبيت الحرام ، ويمرون بها في وسط القاهرة ، وتحمل المغاربة جانباً منها للتبرك بها ، ويضربون كل من راوه يشرب الدخان في طريق مرورهم . فرأوا رجلاً من اتباع (مصطفى كتحدا القازدغلي) فكسروا انيوبته ، وتشاجروا معه ، وشجوا رأسه ، وكان في مقدمتهم طائفة منهم متسلحون وزاد التشاجر واتسعت القضية ، وقام عليهم أهل السوق . وحضر (أوده باشا) البوابة فقبض على أكثرهم ووضعهم في الحديد ، وطلع بهم إلى الباشا ، واخبروه بالقضية ، فأمر بسحبهم بالعرقانة . فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ، ومات منهم جماعة في السجن ، ثم أفرج عن باقيهم .^(٧٢)

ولم تكن تلك الحادثة هي الأخيرة ، بل حدث صدام آخر في شهر رمضان عام ١٢٠٢ هجرية ، ولكن في هذه المرة على نحو مختلف .

قال (الجبرتي) يسرد وقائع هذه الحادثة : « وفي خامس عشرينه ، وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين يشاطيء النيل ببولاق وبين عسكر القليونية المتقدمين بقلبيون (اسماعيل بك) ومعهم نساء يتعاطون المفكرات الشرعية ، فكلهم المغاربة ، ونهزمهم عن فعل القبيح ، وخصوصاً في مثل هذا الشهر ، أو أنهم يتابعون عنهم ، فضربوا عليهم طينجات ، فثار عليهم المغاربة ، فهرب القليونية إلى مراكزهم ، فنفط المغاربة خلفهم ، واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه ، وذبحوا من ذبحوه ، ورموه إلى البحر ، وقطعوا حبال المراكب ، ورموا صواريخها ، وحصلت زعجة في بولاق تلك الليلة ، وأغلقت الدكاكين ، وقتل من القليونية نحو العشرين . ومن المغاربة دون ذلك . فلما بلغ (اسماعيل بك) ذلك اغتاض ، وأرسل إلى المغاربة يأمرهم بالانتقال من مكانهم ، فانتقلوا إلى القاهرة ، وسكنوا بالخانات ، فلما كان ثاني يوم ، نزل الأغا والوالي وناديا في الأسواق على المغاربة الحجاج بالخروج من المدينة إلى ناحية العادلية ، ولا يقيموا بالبلد ، وكل من أواهم يستأهل ما يجري عليه ، فاستمعوا من الخروج ، وقالوا : كيف نخرج إلى العادلية ونموت عطشا . وذهب منهم طائفة إلى (اسماعيل كتحدا حسن باشا) فأرسل إلى (اسماعيل بك) بالروضة يترجى عنده فيهم ، فامتنع ، ولم يقبل الشفاعة ، وحلف أن كل من مكث منهم بعد ثلاثة أيام قتله . فتجمعوا أحزاباً ، واشتروا أسلحة ، وذهب منهم طائفة إلى الشيخ (العروسي) والشيخ (محمد بن الجوهري) فتكلموا مع (اسماعيل بك) فنادى عليهم بالأمان .^(٧٣)

ولهاتين الحادثتين اللتين ذكرهما (الجبرتي) مبرراتهما عند البعض منا . فالحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون في العادة بعناصر من المصريين أو من أسماهم صاحب (عجائب الآثار) بأولاد البلد ، وإنما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية في خدمة السلطة ، وهي في العادة كانت من العناصر التركية . فهؤلاء المغاربة الحجاج كانوا متشددين بحكم انتماءهم للمذهب المالكي ، وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات اتباع المذاهب الأخرى خروجاً عن الدين أو ما أسماه « بالمفكرات الشرعية » مثل التدخين كما جرى في الحادثة الأولى .

ومن ناحية أخرى وهم في طريقهم إلى تادية الفريضة المقدسة فقد كان شعورهم الديني أكثر التهاباً من أولئك الذين يمارسون حياتهم العادلية ، وبالتالي فقد كان ما حدث من القليونية بمصاحبتهم النساء في شهر رمضان ما يمكن أن يستفهم إلى أقصى حد .^(٧٤)

ويعصر النظر عن مدى صحة هذا التفسير من عدمه لأحداث الخلافات بين الحجاج المغاربة وبعض القطاعات في المجتمع المصري ، فيبقى لمقاول الحج المغربية فضيلة الارتباط بمقاول الحج المصرية والتي ظلت على ترابطها معها حتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ ميلادية على الأقل .^(٧٩) فيعد أن كان حجاج المغرب وصل عددهم إلى ١٥٠٠ فرد كما ذكر (ابن أبياس) ، قفز هذا الرقم إلى ٤ آلاف فرد كما ذكر (كلوت بك) ، ونتج عن حفر قناة السويس توقف قافلة الحج المصرية بالشكل الذي كانت تذهب به من قبل ، ولم يعد أمام الحجاج سوى طريق البحر حيث يقلعون من السويس متوجهين رأسا إلى جدة . وقد تقلص بهذا دور مصر بالنسبة لركب الحج المغربي إذ تحولت إلى مجرد منطقة عبور إلى الأراضي المقدسة بعد أن كانت نقطة الانطلاق إليها .^(٨٠)

خامسا : المحمل التكروري :

حجاج التكرور الذين اشتهروا بهذا الاسم هم سكان بلاد التكرور ، والتي تقع في أقصى جنوب بلاد المغرب ، وهي جزء من اقليم غانا الحالي^(٨١) ويقال أن أول من حج منهم هو ملكهم (منساو بن ماري بن جافلة) في أيام سلطنة السلطان المملوكي (الظاهر بيبرس) ثم ملكهم (سلكبورة) ثم ملكهم (منسا موسى) لما قدم إلى مصر سنة ٧٢٤ هجرية .^(٨٢) ويقال أن هذا الملك حج ومعه خمسة عشر ألفا من التكرورة .^(٨٣) وقيل أنه طلب منه أن يقبل الأرض في حضرة السلطان المملوكي (الناصر محمد ابن قلاوون) بالقلعة ، فالتفت إلى الترجمان وقال : أنا ملكي المذهب ، ولا أسجد لغير الله ، فأعفاه السلطان من ذلك ، بل وقربه وأكرمه ، وسأله عن سبب مجيئه ، فقال : أردت الحج ، فأمر السلطان المملوكي وزيره أن يجهزه بكل ما يحتاج إليه .^(٨٤)

وقيل أن (منسا موسى) أهدى السلطان المملوكي أربعين ألف مثقال من الذهب وإلى ثلثه عشرة آلاف مثقال .^(٨٥)

وقيل أنه كان مع ملك التكرور (منسا موسى) مائة حمل ذهبا ، أنفقها في سفرته تلك .. حتى احتاج إلى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بمالهم عليه فيه المكسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلاثمائة دينار سبع مائة دينار ربحا ، وبعث إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده .^(٨٦)

كان عدد حجاج التكرور يتزايد سنة بعد سنة . وقد بدأ العدد بمقدار ١٥٠٠٠ حاج في سنة ٧٢٤ هجرية ، وأصبح ١٧٠٠ حاج في سنة ٨١٩ هجرية ، وكان معهم نحو ٢٠٠٠ من العبيد .^(٨٧)

وقيل أنه في سنة ٨٥٨ هجرية عمّ مكة سيل عظيم قضى على كل حجاج التكرور عن بكرة أبيهم .^(٨٨)

ولأن حجاج التكرور كانوا يأتون من جنوب مصر فكانوا يصحبون معهم حجاجا من الصعيد .^(٨٩)



خلافات المحمل التكرورى :

نشأت عدة خلافات للمحمل التكرورى على مدار أسفاره الكثيرة الى الاراضى الحجازية ، مثلما حدث فى عام ٧٢٤ هجرية فى مكة مع الأتراك ، ومثلما حدث فى عام ٧٨٥ هجرية مع المغاربة ، والتي لم يعرف سبب هذه الخلافات ، غير انه ورد فى أحداث التاريخ فى عام ١٠٩٨ هجرية انه رأى ترحيل حجاج التكرور من مكة وقتها بسبب قيامهم ببعض السرقات وعمل السحر .

قال (العصامى المكي) بشأن هذه الحادثة : « وقع النداء بامر مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور ، ومن وجد بعد ثلاثة عوقب بالنكال ، فتهبوا ، واجتمعوا فى اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعلاة ، وقرعوا الفاتحة ، ثم توجهوا ، البعض الى المدينة المنورة ، والبعض الآخر الى جدة ، والبعض الى قرية الطائف .»^(٨٦)

سادسا : المحمل الرومى أو التركى أو العثمانى :

كانت العلاقات بين الدولة العثمانية فى تركيا ودولة سلاطين المماليك فى مصر يغلفها الود والاحترام المتبادلين ، وذلك قبل أن تحتاج ضربات أسياقهم رقاب المماليك فى عام ٩٢٢ هجرية .

كانت الرسل والهدايا تروح وتجيء بين اسطمبول والقاهرة ، وهذا ما ذكره المؤرخون لأعوام ٧٨٦ و ٧٨٨ و ٨٠٣ هجرية .^(٨٧)

وعلى الرغم من ان المسافة المباشرة لطريق الحج بين العاصمة العثمانية ومكة المكرمة لا تمر بالقاهرة إلا أن هذا لم يجعل ولاية الأمر فى الدولة العثمانية يقلقون اصول طرق أبواب العاصمة المصرية للاستئذان للأمراء عند طلب الحج .

قال (ابن ايس) فى حوادث شهر شوال سنة ٩١٥ هجرية : « وفى يوم الاثنين سابع عشرة خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان امير ركب المحمل (طقطبى) نائب القلعة أحد المقدمين ، وبالركب الأول (مغلبى الزردكاش) أحد الأمراء الطبليخانك ، فكان لهما يوم مشهود ، وحضر امير من أمراء ابن عثمان الكبير يروم الحج وصحبته نحو من أربعين ألف دينار أرسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء مكة والمدينة ، فسافر صاحب الحجاج .»^(٨٨)

وقد نقل اللواء (ابراهيم رفعت باشا) من صفحة ٥١ من كتاب « خلاصة الكلام فى اخبار البلد الحرام ، للسيد (أحمد بن زينى دحلان) أن المحمل الرومى ابتدا مجيئه الى الحجاز فى سنة ٩٢٣ هجرية ، فى زمن السلطان سليم الأول ، حيث أرسل الأمير (مصلحا بك) بمحمل رومى وكسوة للكعبة وصدقات .»^(٨٩)

وإذا وقفنا عند تاريخ عام ٩٢٣ هجرية ، وهو عام ما بعد غزو العثمانيين للأراضى المصرية ، وهيمتها على الأمور فيها ، فسنجد أن الذى حدث كما سجله (ابن ايس) هو أنه فى يوم الاثنين ثمانى عشر شهر رمضان من هذا العام « عرض ملك الأمراء (خير بك) كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، وكسوة لضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدة ستور وكسوة لضريح الخليل عليه السلام ، ومحملا من قِبل

ابن عثمان ، وقد تناهوا في زركش البرقع ونسيج الكسوة بخلاف العادة الى الغاية ، فشقوا من القاهرة وقذاهم الاعيان من المبشرين ، والجم الغفير من العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، فشقوا من القاهرة . وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلما طلعا الى القلعة عرضوا على (خاير بك) نائب السلطنة ، ثم رجعا ثانيا من حيث جاءوا .^(٩٠) إن هذا المحمل الذى « من قبل ابن عثمان » - على حد تعبير ابن ايس - والذى وصفه انشاء موكب عرض كسوة الكعبة المشرفة قال عنه ايضا (ابن ايس) في حوادث شهر شوال من نفس العام ، وقت التاهب للرحيل الى الاراضى الحجازية : وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل في هذه السنة ، فصنع له كسوة فلخرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، فلما شقوا من القاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة ..^(٩١)

ولا يعنى تجديد كسوة للمحمل ، وكتابة الاسم عليه ان هذا المحمل كان عثمانيا او صلي عثمانيا ، بل هو محمل لمصر التى أصبحت تحت ادارة الحكم العثمانى منذ ذلك الوقت ، ولا يمكن باى حال من الأحوال أن يكون المحمل العثمانى بداية تسيلره من القاهرة ، بل الأحرى به أن يكون هذا التسيار من قلب العاصمة العثمانية اسطنبول ، كما هي العادة والعرف المتبعين ، لأنه يمثل الدولة حينذاك .

ويجسم هذا الخلاف في ان عام ٩٢٣ هجرية ليس هو بداية المحمل الرومى او التركى ورقة من احدى مخطوطات (السنجارى المكى) بمكتبة الحرم المكى تؤرخ للمحمل الرومى او التركى قبل هذا التاريخ بخمسة اعوام على الأقل .

قال (السنجارى المكى) في حوادث عام ٩١٨ هجرية : « وأطلق السلطان (سليم خان) الجماعة الذين كانوا بمصر من اعيان مكة كانوا في الحبس ، منهم القاضى (صلاح الدين بن السعد بن ظهيرة) ، وأرسل معهم بعد اكرامهم الى مكة الأمير (مصلح بك) بمحمل رومى وكسوة للكعبة ، واشترى السلطان (سليم خان قرى واطفها الى قرى بيسوس وسنديس التى أوقفها السلطان (محمد بن قلاوون) على كسوة الكعبة ، فورد الأمير (مصلح) المذكور بالمحمل الرومى ومعه كسوة الكعبة والصدقات الرومية . وتقدم ان اول من أرسل بالصرة الى أهل مكة السلطان (محمد خان بن بيلدرم خان) وكان يرسلها من الروم قبل اخذهم بلاد العرب .. »^(٩٢)

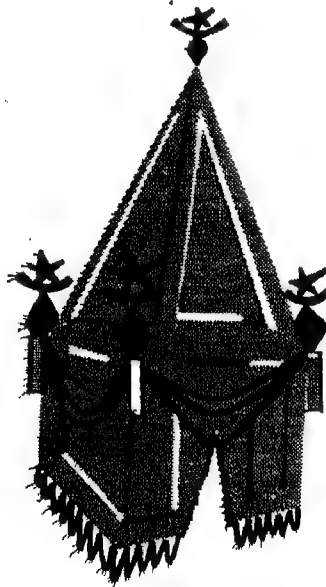
ومن خلال هذا النص يتضح لنا أن العثمانيين او الروم كانوا يرسلون بصرة النقود الى فقراء الحرم ، وهى العادة المتبعة دائما عند إرسال المحمل لاي بلد اسلامى ، وعلى هذا يكون قد تم إرسال المحمل الرومى او العثمانى او التركى في عهد السلطان (محمد خان بن بيلدرم خان) العثمانى .

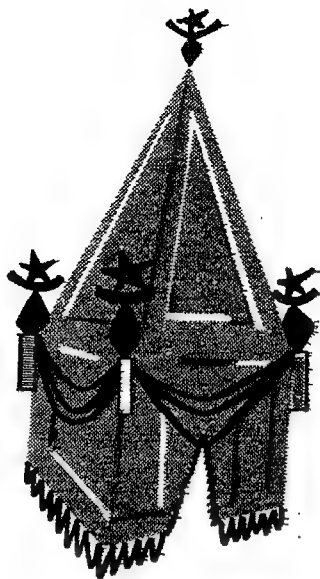
وهذا السلطان العثمانى تولى الحكم في الفترة بين اعوام ١٤١٣ حتى ١٤٢١ ميلادية . أى ٨١٦ حتى ٨٢٤ هجرية ، وهى الفترة المعادلة لفترة حكم السلطان المملوكى (المؤيد شيخ المممودى) في مصر .^(٩٣)

أى أن المحمل الرومى او التركى او العثمانى لم تكن بدايته عند سيطرة الحكم العثمانى على مصر ، بل كان له امتداد تاريخى وكتب عصر سلاطين المماليك . ولقد وصف (ابو القاسم الزينى) الرحالة المغربى هذا المحمل من خلال مشاهدته له ، التى سجلها في كتابه « الترجمة الكبرى » فقال عنه : « وفي اليوم الثلثى والعشرين من رجب سنة ١٢٠٨ هجرية امرنا أمير الصرة بالخروج بعد صلاة الجمعة ، وخرجت الصرة أمامه في

موكب عظيم ومعه الوزير والامراء واهل المذاهب والاعيان وامامهم الطبول والزماير .
وهكذا كان درب الحاج الشامي ياتي بمحملين تركي وشامي .^(٩٤)
ولقد تعرض المحمل الرومي للنهب عام ٧٨٥ هجرية كما ذكر (ابن ايس) ، والقي والى
دمشق (الغزالي) القبض على حبلجـه سنة ٩٢٦ هجرية بسبب شجار شب بينهم واهل
البلاد بعد ان رحل المحمل من دمشق ، ويذكر التاريخ للمحمل الرومي انه استوطن دمشق
سنة كاملة في عام ١١٢٣ هجرية ، واثـر البقاء فيها على العودة الى دياره في البلاد
العثمانية ، وهكذا تعرضت العلاقات الى شد وجذب في لحين كثيرة .^(٩٥)
وظل المحمل العثماني او الرومي او التركي يرسل كل سنة من تركيا حتى توقف نهائيا
عند بداية الحرب العالمية الاولى .^(٩٦)

□ □ □





سابعاً : المحمل المصرى :

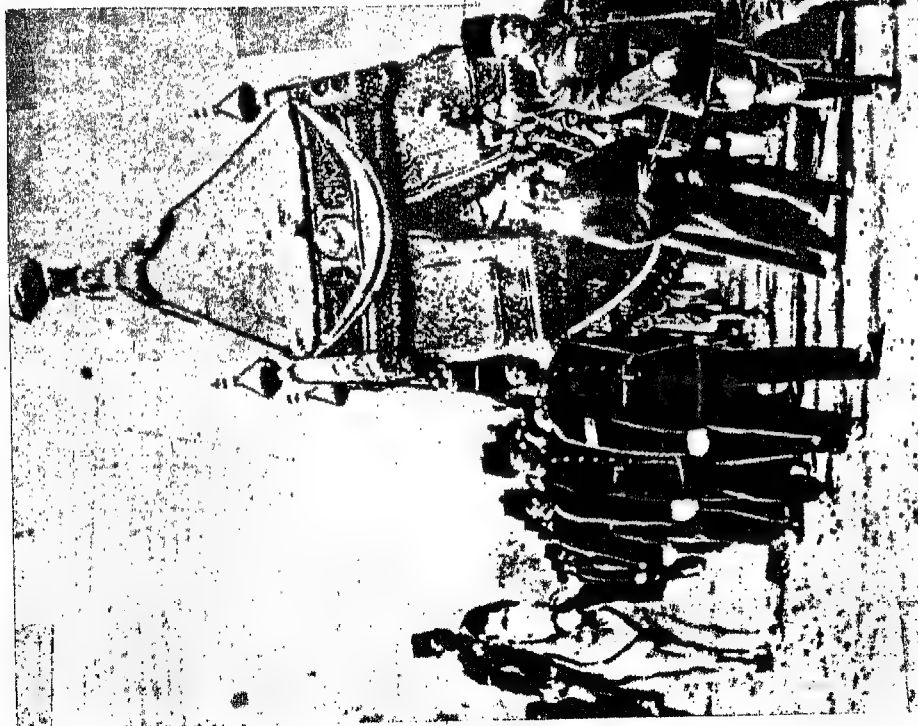
فلق المحمل المصرى كل امثاله من محامل الدول العربية او الاسلامية فاقهم في تجهيزه ، واعداده ، ونظمه ، واحتفالاته ، وعاداته ، وتقاليده ، ومعتقداته ، وفاقهم حتى في اختلافاته ونزاعاته .. !
وبداية ظهور المحمل المصرى في الوجود غير مؤكدة التحديد ، واختلف في امرها العديد من المؤرخين .

فجاء ابن اول من نظم المحمل مع الحج المصرى وارسل الكسوة للكعبة وحماها بـ (شجرة الدر) التي حكمت مصر سنة ٦٤٨ هجرية الموافقة ١٢٥٠ ميلادية بعد انتهاء الدولة الايوبية . (٩٧)

ونذكر (المقرئى) ان اول من ادار المحمل الملك (الظاهر بيبرس البندقدارى) . (٩٨) واذا ملو قفنا عند تاريخ ابن ايس فسنبجده يؤرخ لحواث سنة ٦٦٧ هجرية بقيام السلطان المملوكى (الظاهر بيبرس) بالحج وجعل ابنه الملك (السعيد) اميرا للمحمل . (٩٩)

ونذكر (الجبرتى) في ترجمته للسلطان (الظاهر بيبرس) : « دخل (بيبرس) مصر سلطانا ، وتلقب بالملك الظاهر ، وذلك سنة ٦٥٨ ، وهو السلطان (يكنى الدين ابو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى) احد المماليك

■ موكب المحمل المصرى عام
■ ١٩٤٧ فى عهد الملك فاروق



البحرية ، وعندما استقر بالقلعة ابطل المظالم والمكوس وجميع المنكرات ، وجهر الحج بعد انقطاعه اثنى عشرة سنة بسبب فتنة التتار ، وقتل الخليفة ، ومناقشة امير مكة مع التتار . فلما وصلوا الى مكة منعوهم من دخول المحمل ومن كسوة الكعبة ، فقال امير المحمل لأمير مكة : اما تخاف من الملك الظاهر بيبرس ؟ فقال : دعه ياتنى على الخيل البلق . فلما رجع امير المحمل واخبر السلطان بما قاله امير مكة ، جمع له في السنة الثانية اربعة عشر الف فرس ابلق ، وجهزهم صحبة امير الحاج ، وخرج بعدهم على ثلاث نوق عشاريك ، فوافاهم عند دخولهم مكة . وقد منعهم التتار وامير مكة ، فحاربوهم فنصرهم الله عليهم ، وقتل ملك التتار وامير مكة طعنه السلطان بالرمح ، وقال له : انا الملك الظاهر جئتك على الخيل البلق . فوقع الى الارض وركب السلطان فرسه ، ودخل الى مكة ، وكسا البيت وعاد الى مصر ، (١٠٠)

ورغم درامية تراجيديا هذا الحدث الذى رواه (الجبرتي) في تاريخه إلا أنه يستوقفنا هنا - بعيدا عن الانجراف الى زخرف المواقف البطولية للسلطان المملوكي - امران في غاية الاهمية عند التدقيق والتحقيق في صحة التواريخ المذكورة ، وهما :

الامر الاول هو : تجهيز الحج بعد انقطاعه ١٢ سنة بسبب فتنة التتار ، وقتل الخليفة العباسي في بغداد سنة ٦٥٧ هجرية . وعن طريق الحساب - اذا افترضنا صحة ملءاه به (الجبرتي) من تواريخ - يكون تجهيز الحجاج كان يتم قبل عام ٦٤٥ هجرية ايام سلطنة (الصالح نجم الدين ايوب) .

والامر الثاني هو انقطاع ركب المحمل المصرى قبل ١٢ سنة من حج السلطان (الظاهر بيبرس) في سنة ٦٦٧ هجرية وذلك يرجعنا الى عام ٦٥٥ هجرية ايام سلطنة (المنصور على بن المعز ايوب) بعد وفاة الملكة (شجر الدر) وتوليته السلطنة خلفا لأبيه .

وفي الحالتين لايمكن باى حال من الاحوال ان نخرج بنتيجة مؤكدة لبداية ظهور المحمل المصرى في التاريخ ، لانه ربما يكون وجوده قبل هذين التاريخين المرجحين ، وهما عام ٦٤٥ هجرية او عام ٦٥٥ هجرية .

واذا كان (المقرئى) قد ذكر ان السلطان (الظاهر بيبرس) هو اول من ادار المحمل فلن تعبّر « دوران المحمل » لايغنى بالضرورة البداية الفعلية لاتخاذ المحمل المصرى وسيلة لارسال كسوة الكعبة المشرفة في صحبة قافلة الحجاج ، وانما الدوران المقصود يكون لذلك الطقس الذى كان يؤديه القائمون على المحمل بإدارته سبعة دورات كاملة امام الناس للفرجة .

ويبقى لدينا هذا الظن ما اورده (المقرئى) نفسه في خططه بشأن مجيء الاستاذ (مؤنس الخادم) من بغداد الى مصر ، والذى عاصر هجمة القرامطة على

الكعبة المشرفة سنة ٣١٧ هجرية كما عاصر والى مصر (ابن طلق الأخشيدى)
والذى تولى أمر مصر في الفترة ما بين عامي ٣٢١ حتى ٣٣٤ هجرية .
قال نقلا عن (ابن زولاق) عن (أبى بكر محمد بن علي الملائكى) : انه حج
اثنى عشر حجة متوالية ، انفق في كل حجة مائة الف دينار وخمسين الف
دينار ، انه كان يخرج معه بتسعين ناقه لقيته التي يركبها ، وأربع مائة لجهازته
وميرته ومعه المحامل فيها أحواض النقل وأحواض البقل وأحواض الرياحين
وكلاب الصيد ، وينفق على الإشراف وأولاد الصحابة ولهم عنده ديوان
باسمائهم ، وانه انفق في خمس حجرات أخر ألفى الف دينار ومائتى الف دينار ،
وكانت جاريته تواصل معه الحج ، ومعه لنفسها ثلاثون ناقه لقيتها ومائة
وخمسون عربيا لجهازها - (١٠١)

فإذا كان هذا الحج بدا في مصر في عصر الدولة الأخشيدية إلا يعطينا هذا
تاريخا أقدم من ذلك التاريخ المنسوب إلى السلطان (الظاهر بيبرس) أو الملكة
(شجر الدر) في بداية تسير المحمل المصري^{١٩}
وهل تمر هذه الظاهرة مرور الكرام في عصر الدولة الأخشيدية في مصر وترصد ،
ولا يحتذى بها سوى بعد فترة زمنية تعادل ثلاثة قرون ونصف ؟
لقد ذكر (ابن اليس) في حوادث عام ٣٥٦ هجرية أيام الدولة الأخشيدية أن
أعراب (بنى سلام) قطعوا الطريق على الحجاج ، وأخذوا منهم عشرين ألف
بغير ، محملة قماش وبضائع ومالا ، وأسروا الرجال والنساء (١٠٢)
فهل قافلة يمثل هذا الحجم الكبير من الثراء في موسم الحج ، وبها هذا العدد
الهائل من العير والأبل إلا تعد مقنعة تاريخية أو أرهاصة زمنية لملائمة المحمل
المصري في زمن مبكر سبق عصر سلاطين المماليك ذوي الثقافة الوافدة التي ليس
لها في العير ولا في النفير في تراث البلاد التي يحكمونها ؟^{٢٠}

نظام المحمل المصري :

امتاز المحمل المصري بالنظام الدقيق في تكوينه وفي مسيره ، فكل فرد كان فيه
يعرف حدوده وواجباته المتعلقة عليه ، ووظيفته المحددة له في داخل الركب ، منذ
بدايته حتى نهايته . وكان هذا النظام الدقيق يتبع التقسيم الآتى :

١ - أمير الحجاج :

هو كبير قافلة الحجاج ومسئولها الأول في كل شئونها ورأس الأمر فيها . وفي
الحديث النبوى الشريف أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا خرج
ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم ، وهذا الحديث رواه (أبو داود) من حديث (أبى
سعيد الخدرى) و (أبى هريرة) رضى الله عنهما ، وروى الإمام (أحمد) في
المستند عن (عبد الله بن عمر) رضى الله عنهما أن النبى - صلى الله عليه وسلم -

قال : لايحل ثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا امرؤا عليهم احدثهم . ونظر
لجسامة المسئولية الملقاة على عاتق امير الحاج فقد تحدثت له عشر مهام يقوم بها
على النحو الآتى : (١٠٣)

اولها : ان يجمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لايتفرقوا . فيخاف عليهم من
المفسدين من العربان والسراق ، فانه يجب ان يعلم ان درب الحاج وطريقه متبوع
في ذلك الاوان ، خصوصا في منازل معروفة بالدرب الشريف .
ثانيها : ان يرتب الناس في القافلة في المسير والنزول ، واعطاء كل طائفة منهم
محلا معروفا حتى يعرف كل فريق منهم مكانه ، في الإقامة وفي السير ، لئلا
يتنازعوا ولايضلوا عنه ، من اجل راحة الحاج وتقلد الاصطدام والشورور
والفتن مع بعضهم بعضا .

ثالثها : ان يرفق بالناس في قافلة الحج ، فان كان الوقت حارا او باردا ، خارجا
عن المعتاد صبر بهم عن الرحيل مقدار راحتهم واعتدال الوقت ، وان كان فيهم
ضعفاء سار بسير ضعيفهم ، وان كانت المرحلة المقطوعة من السير بها مضيق او
وعورة وقف امير الحاج عند ذلك لتسهيل طرقهم وصرف الصعاب .
رابعها : ان يسلك امير الحاج بالناس في القافلة اوضح الطرق ولوسعها واخفها
ويراعى احوالهم في ذلك ويسير بهم سيرا معتدلا ، ويوصى الادلاء على ذلك ،
ويريحهم في اوقات القيلولة المفردة الحر ، واولقات الهواء والريح المفردة الشدة
وما اشبه ذلك .

خامسها : ان يرتاد امير الحاج للناس في القافلة المياه والمراعى اذا قلت ، ان
كان الركب معطشوا لمهل بعيدا ، او ليس فيه ماء ، ويقترب منه مورد للعربان
سأل عنه من يثق بصدقه وخبرته وامانته من اصحاب الدرك واملائهم العارفين
بمنازل تلك الطرق ، وجهز معهم السقائين وصحبتهم جماعة من القواسم وبعض
الرماة لاحضار ما يستعينون به للحجاج على ظمئهم من ماء ذلك المورد .

سادسها : ان يقوم امير الحاج بحراسة القافلة اذا نزلت ، ويجوؤها اذا
رحلت ، حتى لايتخطفها متلصص ، ويسال المترددين على الدرب واهل الخبرة عن
المخبرين التي تكون طريقا للمفسدين وقطاع الطرق ، فيجهز اليها بعض
الفرسان ، ملبسة خيولهم - ان اقتضى الحال ذلك - ولا يسلاحهم فقط الى ان يمر
الحجاج ويجوز ذلك المحرس .

سابعها : ان يكف امير الحاج عن القافلة من يصدها عن المسير بقتل - ان
اقتضى الحال ذلك وقد رعى عليه - او ببذل مال - ان اجاب الحجاج اليه - ولا يحل ان
يجبر احدا في بذل الخفارة ان امتنع منها ، لان بذل المال في الخفارة لايجب .
ثامنها : ان يجلس امير الحاج للناس في القافلة في كل دار ومنزلة ليحضر اليه
من يشكو جماله فيبذل شيكواه ، او متنازعا فيصلح بينهما ، او يحيل الامر الى
قاضي المحمل للفصل في المتنازعات التي تحتاج الى رايه .

تاسعها : ان يقوم امير الحاج بتأديب الجاني وفق ما يقرره الشرع .
عاشرها : ان يراعى امير الحاج اتساع الوقت حتى يامن فواته ، ولا يلحقهم
ضيق الوقت في الحث على المسير .

وكان امير الحاج في اواخر عهد السلطان المملوكي (الغوري) يتقاضى احد
عشر الف دينار ، منها عشرة آلاف تصرف على المهام الموكلة اليه ، والـ الف دينار
لثمن مائة جمل ، وزيد هذا الراتب الى ثمانية عشر الف دينار عند الفتح العثماني
لمصر . في حين نجد ان مرتب امير الحاج في سنة ١٣٠٧ هجرية الموافقة ١٩٨٩
ميلادية قد وصل الى ٤٠٠ جنيه ، وزيدت الى ٥٠٠ جنيه في سنة ١٣٠٨ هجرية
الموافقة ١٨٩٠ ميلادية . (١٠٤)

وكان امير الحاج يعامل معاملة خاصة ، هو و غلمانه ومن يقوم على خدمته ، فلا
كان يجوز مساءلتهم حتى ولو اقترف الواحد منهم جريمة قتل .. !! . (١٠٥)
٢ - دودار امير الحاج :

هو كاتب امير الحاج في المهمات التي يتولاها ، وبالإضافة الى ذلك يقوم بتنظيم
سير ركب المحمل ، والطواف على الحجاج ليلا للحراسة او نهارا للمعاونة ،
والقبض على السراق والمفسدين ، بل واقامة حدود الشرع عليهم باذن من امير
الحاج وكان يختار من العسكر الشجعان ، ومن المشهورين بحسن المعرفة والعقل
والمروءة والخبرة .

وكان الدودار يحصل على قفطان مذهب من امير الحاج عندما يقوم بمهامه على
احسن وجه ، وفي حالة السفر كان من المعتاد ان يأخذ من امير مكة المكرمة من النقد
ما يعادل مائة دينار غير الاغنام واما ما كان يأخذ من امير ينبع ثلاثين دينارا ومن
الاغنام عشرة .

٣ - قاضي المحمل :

نظرا لان قافلة الحجيج تضم نوعيات مختلفة من الناس يتعاملون سويا خلال
فترة الذهاب والاياب من الحج ، فكان من جراء احتدام التعامل والاحتكاك فيما
بينهم ان تشتجر الشواجر فيما بين بعضهم البعض ، ولذلك خصصت وظيفة
قاضي المحمل ليتولى اصدار الاحكام الشرعية بين الحجيج ، والفصل في المنازعات
التي قد تنشأ بينهم .

وكانت هذه الوظيفة يتولاها في ايام دولة المماليك الشراكسة قاض من قضاة
المذاهب الاربعة يعينه قاضي القضاة ، ثم صار امير الحج هو الذي يعين من
اختاره لشغل هذا المنصب من اولاد العرب ، وعندما استقر الامر للدولة العثمانية
في مصر اشترأت اعناق قضاة العثمانيين او قضاة الروم لملء هذا المنصب ، فصار
لهم لاينازعهم فيه احد من غيرهم فكان يصدر امرا سلطانيا بتعيينهم لمدة رحلة
واحدة فقط ، ولا يتكرر تولية القاضي مرة اخرى .

وكان قاضى المحمل يتقاضى اجرا قدره اربعمائة نصف قضة ، وله جمل من جملة جمال المحمل ، وله ققطان من الشمطا الأوسط يلبسه يوم خروج المحمل من القاهرة ، وكان له في كل مساء اربعة من الفطير أو الخبز ، وجرايتان من البقسماط كل جراية ستة عشر رطلا ، غير السكر المكرر أو الحلوى التى يتراوح وزنها بين ثلاثة ارطلال سكر أو اربعة ارطلال من الحلوى .

وكان المصطلح عليه امر قضاة المحمل منذ ايام دولة سلاطين المماليك الشراكسة والى آخر ولاية (سليمان باشا) وصدر من ولاية (داود باشا) ان كتلتبت المعاهدات وجميع مايتعلق بامر الحاج وركبه امرها الى قاضى المحمل من غير منازع ولا مشارك له في ذلك غير الشهود ، وكانت العادة ان يجهر النداء بالقاهرة : من اراد السفر مع ركب الحاج ليعاقد جماله إلا بمعرفة قاضى المحمل ، ومن خالف ذلك فذنبه في عنقه ... !

وقد ساء امر هذه الوظيفة ، اذ طمع فيها كل ذى شان صغير فتردى امرها ، وساعت احكام متوليها الذين كان كل غرضهم الحصول على الأموال من تعاقباتهم مع اصحاب الجمال ، حتى قال فيهم (عبدالقادر الانصارى الجزيرى) شعرا :

فحواه : (١٠٦)

قاض له نفس يلوح اذاها	ايست وفود الله من تقواها
ابتاع احكام الحبيج ببلغ	جم واعراض الانام فشاها
احكامه قبحت وسات سيرة	اذ لم نشاهد مخلصا زكاها
فلرشوة تاتى بامر واضح	ولفقدتها تبث يدا دعواها
لم يرض إلا بالكثير ولو يكن	خمسین او ستین لم يرضها
رجعت به الحجاج في كل عام مضى	وتالت لمزيد ماواسها
وتضرعت كل الانام لربها	حتى الجمال شكت الى مولاهها

وقد الغيت وظيفة قاضى المحمل منذ طوالع القرن العشرين ، واسند امر الفصل في المنازعات والخصومات الى امير الحج .

٤ - شهود المحمل :

كان يختار اثنان من اهل الخبرة والعدالة ليكونا في وظيفة شهود المحمل . قال (القلقشندى) « ان شهود السبيل المعبر عنهم بشهود المحمل ، فانما تكتب لهم مبيعات شريفة من ديوان الوزارة » . (١٠٧)

وقد صار امر تعيينهم بعد ذلك من جانب قاضى المحمل ، وطالب الشيخ (محمد ابن عبدالقادر بن ابراهيم الانصارى) بالا تعزل شهود المحمل بعزل القضاة ، والا يتم تغييرهم الا بعد حدوث وفاة ، وتم له ذلك ، فاستمر السيد الشريف (محب الدين الردينى) فترة اعقبه الشيخ (شمس الدين السديسى) المالكى ثم الشيخ (بدر الدين المحلى) الشافعى ، واماما في شهادة المحمل مدة تقارب العشرين سنة ، وكذلك الشيخ العلامة القاضى (ابو الفتح الردينى) الحنفى

مدة سنوات . وكان لشهود المحمل اجرة جمل من جمال المحمل كالقاضي ، تصرف له من ديوان المقلعة ، وكذلك جرايتان ، واما العليق فثلاثة كانت تصرف واخرى تمنع ، وكان للشهود تعلم يصرف لهم صباحا ومساء كغيرهم واربعة من الفطير وراسلن من السكر . وعندما ساءت امور هذه الوظيفة بطلت بعد ان قيل فيها من الشعر : (١٠٨)

يلقضى المحمل والمرضى في حكمه بالسند الكامل
وفك الله لمرضاته مرتفعا عن شاهد جاهل
لا تسند الامر الى فاسق تدم بالحق وبالباطل
٥ - مشرف جمال وخبول المحمل :

وكان من يشغل هذه الوظيفة في العصر المملوكي يسمى (امير خور) او (امير اخور) ، وهو المختص برعاية امر جمال المحمل وخبوله ، وهو كان يلى الدواوير في القرية والاهمية ، وكان له مشعل معين كالنواير يضئ بركبه ليلا اينما سار . وكان يعاونها افراد يسمون (الشقرة) للاشراف على تفرقة العليق للدواب وحرصاتها ومراقبتها اثناء السير في الطريق ، لئلا يقوم احد بركبها او تلجيرها خلسة !

٦ - مشرف التموين للمحمل :

كان مشرف التموين للمحمل يسمى (الكلاجي) او (شاد السنيح) وهو القائم على شئون تموين بعثة الحج وقافلة المحمل ، وكان يختار من امراء الممالك في عصرهم ، بحيث تتوافر فيه شروط الامانة والتدبير وعدم التبذير .

٧ - مشرف المطبخ للمحمل :

وكان القائم على شئون المطبخ للمحمل يسمى (شاد المطبخ) او (اشتدار الصعبة) ، ويقوم باعباء الاشراف على الذبائح ، وتفرقة المخصصات من الطعام على ارباب الرواتب والخلمن بالمحمل . ويعاونه فريق من الطباخين ، وكان يشترك الطباخين في جلود الذبائح والارقاب ، وكان له معهم عوائد من امير مكة وامير ينبع معروفة ومخصوصة .

٨ - مشرف السفنتين :

وكان يقوم بهذه المهمة احد الاتراك في عهد سلاطين المماليك بحيث يكون مسئولا عن علم القرب عند نبلر المياه وتوزيع المياه على حجاج الركب ، ومن اختصاصه التذب والدفاع عن السفنتين عند الازدحام على مناهل المياه .

٩ - منظم سير المحمل :

وهو القائم على تنظيم سير المحمل ، وكان يسمى (شاد المحمل) ، بحيث يحافظ على تمام عدد الركب وما يحمله من اشياء ، وينظم السير عند المضائق ، بحيث يقدم من يشاء من الركب ويؤخر من يرغب في تأخيرته للحفاظ على تنظيم سير المحمل .

١٠ - المقدمون على جمال المحمل :

كانت جمال المحمل في العصر المملوكي يبلغ عددها ثمانية وعشرين جملاً ، واحد منها لحمل هيكل المحمل ، وأربعة لحمل كسوة الكعبة المشرفة ، وستة جمال للسقائين ، وجمال لحمل ثوب المحمل أو كسوته ، وللقاض والشاهدين جمالان ، وجمال لكل من المشرف على المطبخ والحكيم أو المزيّن وحامل الفراش وحامل الاكفان والمراكيب والقمصان ، وستة جمال لفرقة المزمار والكوسسات وأربعة جمال للضوئية وحملة المشاعل .

ونظرا لكبر عدد الجمال فكان يختار لها المقدمون على الجمال لخدمتها والعناية بامرها .

وكان يصرف لهؤلاء المقدمين قفاطين مذهبية عند عرض الجمال والسفر ، ولبعضهم جوخ مخيط من الاتباع ، حتى يستطيعوا الوفاء بتبعات عملهم من حمل الامتاع والانتقال في كل وقت يطلب منهم ذلك . وكان يصرف لهم جراية مخصوصة مثل باقي الركب .

١١ - مقدم الضوئية والغشامة :

وهو عبارة عن رجل كان مقدما لرجال المشاعل ، والغشامة هم الذين كانوا يقولون امر المجاليس بالحديد والاصفاة والسلاسل .

كما كان من وظيفة الضوئية احضار الحطب للمشاعل والمطبخ بالطريق وتكسيروها .

وكان عدد المشاعل اربعة وعشرين مشعلا ، منها خمسة تشعل بالدهن ، اختص منها امير الحج اربعة والخامس للدواب ، اما بقية المشاعل فتشعل بالحطب لسائر افراد خواص الركب . وقد قيل فيهم شعر فحواه :

واذا بددت مشاعلنا الجمر ثم طلوت بالارض في كل مسرى
وطئتها جملنا بخطاهنا كرقاب النعام يلقتن جمر

١٢ - مقدم الهجفة والشقرة :

هو كبير المتسلمين للابل والجمال من الهجفة ورجال الشقرة او ميسمون بالخولة او الخونة ، وكانوا يقومون بوضع الوسم على الجمال وهي العلامات المميزة لها او ماكن يسمى بسم (الداغ) ، حيث ينقش بالسكن للتمييز . وكانوا يحصلون في ايام الملكية على احد عشر الف فضة خفضت الى ستة الاف في عهد الدولة العثمانية .

١٣ - مقدم القواصة :

كان عددهم ايام الدولة العثمانية عشرة ، منهم اربعة باجر من ديوان السلطنة والباقي بغير ذلك ، وهم اتباع لهم في خدمة امرة الحج مقام العرفاء ، بغرض احضارهم لحمل امرة الحاج المجهز برا او بحرا .

وكانت رواتبهم عند السفر : للمقدم ستون نصفاً من الفضة وللاتباع اربعون ، وكانت تصرف لهم عشرة من المخيوط من الجوخ .

١٤ - صبي الباب :

هو نائب امير العائد بالشرقية ، وكان ملازما لباب امير الحج عند طلب عربان الحمل ، معرقا عنهم ، محضرا لهم الى الديوان ، مخبرا عن احوالهم ، وضامنا لهم عند امير الحج . وكان لصبي الباب جوخة مخيطة عند نهاية خدمته في ايام الدولة المملوكية .

١٥ - الميقاتي والمؤذن :

وهما نفران : احدهما ميقاتي للاعلام بالوقت والماضي والباقي واختلاف جهة القبلة في بعض مراحل السفر . والثاني مؤذن للاعلام بدخول الوقت عند كل صلاة . وكان يخصص لهما اربعون دينارا ، ولكل نفر هجين ، بخلاف الطعام وخيمة ينزلون بها ، وكان لهما الانعام والاحسان عند قراءة قصة مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالحرمين الشريفين .

١٦ - طبيب المحمل او الجراحى :

كان يصحب ركب المحمل طبيب او جراحى متمكن من صنعته وكذلك كحال وبصحبته الاشربة والعقاقير والمراهم والادمان والاحكال التى كان يطلبها امير الحج من وقف مستشفى (المنصور قلاوون) . وكان له راتب مقداره مئتان من الغضة .

١٧ - مهتلر الطشت خانة :

واختصاصه احضار الماء للوضوء وغسل الايدي عند الاحتياج وهو له اتباع يسافرون معه ليعلمونوه .

١٨ - مهتلر الشراپ خلعة :

وهو من يتولى امر المشروب ، وكان من ضمن ادواته : اوانى الفضة والصينى والنحاس ، وتم تحديد وتقليل كل ذلك في شخص يقوم بضبط الماء وتبريده في اوقات الحر ، ويحمل اليه السكر من المطبخ عند الاحتياج . وكان يتقاضى عشرين دينارا .

وقد تفرع من هذه الوظيفة وظيفة اخرى في العصر العثمانى ، وهى وظيفة (الاظلم باشا) ، وهو الموظف الذى عليه ان يسير امام ركب المحمل ومعه المرطبات للامير والحجاج ، من قبل الباشا ، وبترشيح من البكوات ، ويصل هذا الموظف الى منطقة اظلم او قلعة الازلم - جنوب العقبة - التى اشتق منها اسمه - قبل وصول المحمل اليها بيومين ، وفيما مضى كان المحمل يصل الى طابية العقبة موظف آخر ومعه مؤن اخرى ، وعندما الغى (على بك) اعتماد هذا الاخير ، وجمع منصبى وراثتى هذين المبعوثين ، لم يعد الحجاج يجدون المرطبات التى حرص السلطان العثمانى على توفيرها لهم إلا في (اظلم باشا) كما يتولى (الاظلم باشا) نقل المأكولات التى يجلبها ، وكان راتبه ٣,٢١٨,٨٢٨ مدينى ،

وكان يحمي موكبه حرس يتكون من ستين مملوكا ، ومن ثلاث قطع من المدفعية ، ويصحب في موكبه فرقة موسيقية يحملها اثنا عشر جملا ، وتشتمل على عدة طبول أو صناديق من احجام مختلفة ، ويوقين اونفيرين ، ودفين ، ومزملين ، وتطلق هذه الفرقة انغاما كثيرة عندما يصل المحمل الى الازلم او الى العقبة . وفي الازمنة الاخيرة من العصر العثماني كان (الاظلم باشا) يحصل على ولاية الشرقية عقب رجوعه من رحلته باعتبار ذلك حقا قانونيا له . (١٠٩)

١٩ - مهتار الفراشخانه والفراشون :

ويختص بتدبير انواع الخيام اللازمة والاشاير المطلوبة من القناديل للاعلام بدخول اوقات الراحة من مشقة الاسفار وورود منازل المياه ، وفي هذه الاشارات او الاشاير قل الشاعر :

لما وصلنا الى الدار التي نزلت وقد سئنا من الترحال في الظلم
واخبرتنا إشارات محققة ان المطايا المتنا على الخيم
نادى البشير عبرت الدار وهو بها وفي الاشارات ما يغنى عن الكلم
٢٠ - الطباخون :

وكان لهم كبير ينعت بلقب (المعلم) ومهمتهم توزيع الطعام عند وقت تناوله بعد اعداده وطبخه . وكان لديهم العديد من اواني الطبخ : مثل الصحون النحاسية والحلل والطناجر والطباي الخشب وغيرها .
٢١ - الزدكاش :

وينعت في اللغة التركية (جيجي باشا) وهو القائم على مهمات السلاح وما يحتاج اليه من ادوات الحرب ولبوس الخيل ، وكان اقل عدد يسافر صحبة المحمل عشرين فردا .

٢٢ - النفطى :

وهو البارودى الذى مهمته حمل الاحراقات من القلاع والصواريخ وغيرها من لزوم الاحتفال والابتهاج عند الوداع والرحيل . وكان في العصر المملوكى تقام اربعة احراقات : اولها ببركة الحجاج لاجتماع المودعين بها ، والثانية بمدينة (ينبع) بالحجاز وقد بطلت ، والثالثة وهى الكبرى بمنى ليلة الرحيل منه الى مكة المكرمة ، والرابعة عند العودة في سيناء عند ايلات .

وقد زيدت هذه الاحراقات في عهد الدولة العثمانية احراقة في عرفات لان الموقف يجمع الناس من كل اقطار الارض ، ورأى امير الحج ان الناس كانوا يوقدون في تلك الليلة من الشموع الكثيرة والاشاير الكبيرة فاضاف الى ذلك احراقة يصحبها اطلاق البنادق من المحمل المصرى والشامى .

٢٣ - مهتار الركاب خانة :

وهو قائد السيلس والمختص باستلام لوازم الخيل من السروج والالجمة والركائب ، وكان السيلس لا يقلون في عددهم عن ثلاثة في ركب المحمل .

٢٤ - الشعراء :

وهما نفران من اتباع مقدم الهجانة ، وكان من المعتاد ان يكونا مع اول الهجن الخاص في البداية للرحلة ، ثم مع امير الركب بقية الأيام ، يسيرون معه اينما سار .

٢٥ - الطبول خانة :

كانت تسمى الطبول المصرية . وكانت تلازم العلم السلطاني ، ومكوناتها : طبلاان وزمران ونقارة هذا في العصر المملوكي . اما في العصر العثماني قضمت الى الركب الطبول الرومية او العثمانية ، وجعلت مع العلم السلطاني ، في حين قدمت الطبول المصرية في اول الركب . وكان يصاحب دقها كوست المحمل منذ عصر سلاطين المماليك .

ويقال ان القصد من وضع الطبول في ركب المحمل هو ارباب المفسدين وقطاع الطريق .

٢٦ - البيطار :

نظرا لما كان يضمه المحمل من عدد كبير من الخيول ، فكان لزاما على الركب اصطحاب طبيب بيطرى للاشراف على وضع حداويها . وكان راتب البيطار يصل الى ثلاثين دينارا .

٢٧ - الخباز :

ومهمته توزيع الخبز بعد عمله على القائمين على شئون المحمل عند المناهل . أما عند غير المناهل فكان يقوم بتوزيع البقسماط .

٢٨ - الكيالون :

كانت مهمة الكيالين تشوين غلال المحمل واحضار اصحاب الدواب لنقلها والمغربلين لغربلتها والجراشين لجرشها ، وعيار الكيالات وتقييدها او خروجها من العهدة عند الاستهلاك ، وسد العجز ان حدث نقص في عهدة الغلال . وكان لكل كيال راتب محدد يبلغ نحو خمسة وعشرين دينارا .

٢٩ - نجار المطبخ :

كان يسافر مع ركب المحمل نجار لترميم ما عساه ينصدع او يتغير من اخشاب تحتاج الى اصلاح . وكان راتبه عشرين دينارا .

٣٠ - نجار الكور :

مثل نجار المطبخ ، ولكنه مخصص لاصلاح ما ينكسر من الأكوار في وقته اولا بأول . وكان راتبه خمسة وعشرين دينارا - وبطلت هذه المهنة في زمن الدولة العثمانية ، واوكلت الى نجار المطبخ تبعاتها .

٣١ - خولى الأغنام :

وهو المختص بحفظ الأغنام وعليقها . وكان راتبه مائة وخمسين نصف فضة ، غير الجراية وتخصيص جمل لركوبه .

٣٢ - الجزار :

كان يسمى (الزفوري) في عهد سلاطين المماليك ، ومهمته ذبح الذبائح يسكن حاد ، ويحسن ويتقن الذبح .

٣٣ - السعاة او الادلاء :

وهم الذين يعرفون مسالك الطريق وتعاريجه واستقاماته . وكان لهم اقتطاع من السلطنة مخصص لهم ، وكانوا يتقاضون في زمن الحملة الفرنسية على مصر مبلغ وقدره (١٢٥٦) مدينا ، اي ٤٤,٢٢٥ فرنكا . (١٠٧)

٣٤ - المبشرون بالدار :

وهم جماعة متعددة من المتصوفة واهل الصلاح . وكان يخصص لهم الركوب والجرابة ولكنهم كانوا بلا مرتبات مخصصة .

٣٥ - المبيت :

هو رجل تابع لمقدم الضوئية ، مهمته الجهر بالنداء للركب عند الاحتياج اليه ، والطواف على القافلة ليلا مع العسس وحده .

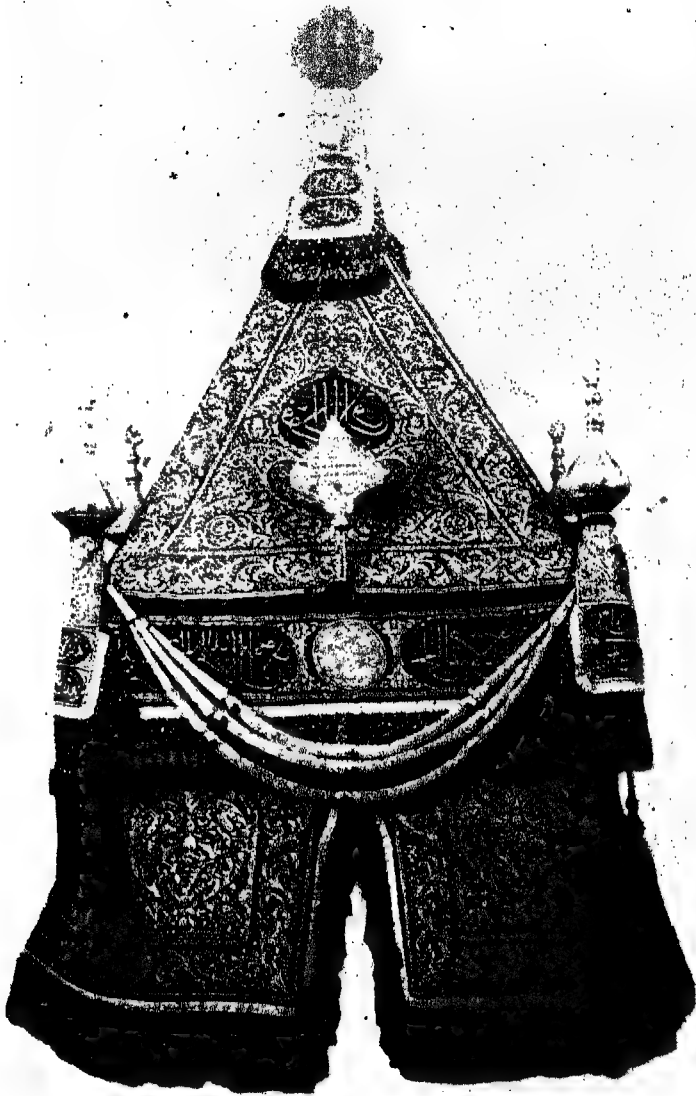
٣٦ - مبشر الحجاج :

كان ينعم بهذه الوظيفة السلطان المملوكي على من اراد ان يشمله بالنعيم والبهات . نظرا لما كان يحصل عليه . وكانت مهمته تنحصر في التبليغ قبل وصول ركب المحمل عن احوال الحجاج وملحده بشانهم من سرقات او قطع طريق او مرض او وفاة ، و احوال الامراء بالاراضي الحجازية . وكان من العوائد القديمة في تجهيز مبشر الحاج انه كان لايتأخر عن يوم منى بل يتوجه اذ ذاك للبشارة .

ولقد وصف (ادوارد وليم لين) مبشر الحج في عصر (محمد علي) فقال عنه : « ويصل (جاويش الحج) قبل القافلة بأربعة ايام او خمسة راكبا هجينا سريعا ويصاحبه عربيان ، وهو يسرع ليعلن نبا قرب الحجاج ، واليوم المنتظر لوصولهم العاصمة ، وليحمل رسائل الحجاج الى اصدقائهم . ويصبح الجاويش وزميله طول الطريق : (الصلاة على النبي) او (صل على النبي) فيردد من يسمعه من المسلمين : (اللهم صل عليه) ، ويتقدمون مباشرة الى القلعة لحمل الاخبار الى الباشا او ثاغبه . ويقسم الجاويش الرسائل الى رزم يبيعها الى نفر يتولون توزيعها فيتنولون الهدايا من المرسل اليهم ، وقد يخسر هؤلاء في هذه الصفقة . اما الرسائل الموجهة الى العظماء والاعنياء فيحتفظ الجاويش بتوزيعها لنفسه ، فيحصل منهم على منحة نقدية او شال ... الخ ، (١١٠)

المحمل المصري شكله وهيكله وكسوته وعلمه أو بيرقة :

وصف الرحالة الانجليزي (ادوارد وليم لين) المحمل المصري سنة ١٢٥٠ هجرية الموافقة ١٨٣٤ ميلادية فقال : « هو اطار مربع من الخشب هرمي القمة ، له ستر من الديباج الاسود ، عليه كتابة وزخارف مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب .



هيكل وكسوة المحمل المصرى عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد

على ارضية من الحرير الأخضر او الأحمر في بعض الأجزاء ، ويحده هدية
حريرية ، وشراريب يعلوها كرات فضية . وزخرفة الستر لاتكون دائما على
النموذج نفسه ، غير اننى لاحظت أن كل ستر رأيته يحمل في قسمه الاعلا من
الصدر منظرا لمسجد مكة (يقصد الكعبة المشرفة) مطرزا بالذهب ، ويعلوه
طغراء السلطان . والمحمل لايحوى شيئا ، غير ان هناك مصحفين صغيرين .
أحدهما قرطاس ملفوف ، والآخر كتاب عاى داخل صندوقين من الفضة المذهبة .
يعلقان خارج المحمل في القمة ، وتكون الكرات الخمس وأهلتها التى تزين المحمل
من الفضة المذهبة . ويحمل المحمل على جمل طويل جميل « (١١١)

وإذا كان هكذا استطاع المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) أن يصف
المحمل المصرى ، وهو في النصف الاول من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق
النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادى ، فكيف اذا يكون وصف المحمل إذا
رأيناه بانفسنا ، ووصفناه نحن المصريون ، ونحن على مشارف القرن الواحد
والعشرين ؟!

في الحقيقة ، انه من خلال المشاهدة والفحص المتمهل للمحمل المصرى الموجود
الآن بالمتحف الأنثوجرافى التابع للجمعية الجغرافية بالقاهرة نستطيع ان نصفه
على النحو الآتى : (١١٢)

هو هيكل خشبى مجوف ، يتشكل عن طريق عوارض افقية ورأسية ومائلة ،
سمك كل منها ١٠ سنتيمترات ، وهذا الهيكل الخشبى يتكون من جزئين رئيسيين :
الجزء الاول وهو السفلى منه منشورى الشكل ، طوله ١,٧٥ مترا ، وعرضه ١,٣٠
مترا وارتفاعه ١,٦٢ مترا . والجزء الأخير العلوى عبارة عن هرم ارتفاعه
١,٩٥ مترا ، وقاعدته مستطيلة الشكل طولها ١,٧٥ مترا ، وعرضها
١,٣٠ مترا .

ويكسو الجزئين المنشورى والهرمى معا ستر من الحرير ضاعت الآن معالم
لونه ، وان كان يبدو أخضر اللون ، وهو مشغول ومزكش بخيوط المخيش
المذهبة والفضية ، والتي تشغل معظم مساحة هذا الستر الحريرى ، حتى تكاد
هذه الزركشة ان تطفى على قماشه جميعه .

بأعلى الجزء الاول وهو المنشورى توجد كتابات قرآنية بالخط الثلث داخل اطار
سمكه مبعة وعشرون سنتيمترا ، وهذه الكتابات القرآنية تحيط بالمحمل من
جوانبه الأربعة على النحو الآتى :

١ - الواجهة الامامية مكتوب فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا اله إلا
هو » ثم دائرة مزركشة بالمخيش الفضى قطرها الخارجى ٢٣,٥٠ سنتيمترا ،
وقطرها الداخلى ١٩ سنتيمترا ، ومكتوب في داخلها عبارة « الله ربى » بالمخيش
الفضى ، ثم يلي ذلك بقية الآية القرآنية الكريمة ، وهى عبارة عن « الحى القيوم
لاتأخذه سنة ولا نوم »

٢ - في الجانب الأيمن مكتوب : له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بآذنه .

٣ - في الواجهة الخلفية مكتوب : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون » ، ثم دائرة مزركشة بالمخيش الفضي بنفس مقسّات الدائرة التي في الواجهة الأمامية ، غير أنها مكتوب في داخلها عبارة « محمد نبى » ثم بقية الآية القرآنية الكريمة ، وهى عبارة بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه .

٤ - وفي الجانب الأيسر مكتوب تكملة الآية : « السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » ،

أما في الواجهة الأمامية الهرمية العلوية فتوجد عبرتان ، الأولى : « عمل هذا الستر للمحمل الشريف مولانا السلطان » وهذه العبارة موضوعة داخل شكل شبه نصف بيضاوى قوسه لأعلى ، والعبارة الثانية بخط ذى حجم أكبر داخل شكل بيضاوى ، وهى عبارة « فؤاد الأول » وتحتها في نفس الشكل البيضاوى مكتوب « ١٣٣٦ » .

وهذا التاريخ الهجرى يوافق عام ١٩١٨ ميلادى ، وهو بالطبع ليس تاريخ صنع المحمل ، وإنما هو تاريخ تجديد الكتابة على ستر المحمل نفسه .

أما تاريخ صنع هذا المحمل فالمرجح أن يكون هو عام ١٢٩٢ هجرية الموافق عام ١٨٧٥ ميلادية في عصر الخديو (اسماعيل) وهو التاريخ المكتوب على القطعة النحاسية والتي تتوسط الجزء العلوى الهرمى من المحمل ، وربما قد يكون تاريخ الصنع قبل هذا التاريخ ، حيث أن هذا التاريخ هو أقدم تاريخ موجود على هيكل المحمل ، وهذه القطعة النحاسية سهلة الرفع والتبديل والتغيير وربما تكون قد استبدلت ضمن التغييرات الكثيرة التى المت به ضمن أعمال صيانة المحمل والتي كانت تتم تباعا .

وفي هذه القطعة النحاسية توجد كتابات في ثمانية أسطر . السطر الأول مكتوب فيه عبارة « يا الله » ، والسطر الثانى عبارة « ماشاء الله » ، والسطر الثالث عبارة « لا إله إلا الله » ، والسطر الرابع عبارة « محمد رسول الله » ، والسطر الخامس عبارة « نصر من الله » ، والسطر السادس عبارة « وفتح قريب وبشر المؤمنين » ، والسطر السابع عبارة « محمد » ، والسطر الثامن والأخير عبارة « سنة ١٢٩٢ » ، وهذه الكتابات أخذت سطورها الشكل الهرمى ، قمته لفظ الجلالة « يا الله » ، وقاعدته عبارة « وفتح قريب وبشر المؤمنين » ،

وفي ركن اللوحة النحاسية الأيسر عبارة « لاشريك له » وهى مكتوبة من أعلى لأسفل في وضع كتابة رأسى ، كما يتوازن معها في الركن الأيمن عبارة « وحده » وهى مكتوبة من أسفل إلى أعلى في وضع كتابة رأسى أيضا ، ولكن على عكس العبارة الأولى .

ويحيط بالمحمل اربعة قوائم خشبية مركب عليها اربعة اشكال مخروطية من مادة النحاس يعتلي كل منها هلال ، يداخله نجمة خماسية نحاسية ومحيط هذا الشكل المخروطي عند اكبر قطر لقاعدته ٢٨ سنتيمترا ، وارتفاع هذا القلثم ٧٨ سنتيمترا . كما يعلو قمة الشكل الهرمي شكل مخروطي اخر ، ولكنه اكبر من حيث الحجم من الاشكال المخروطية الاربعة بارتفاع يبلغ حوالى متر واحد . وقوائم الاركان النحاسية الاربعة يتنيلها اربعة كسوات مزركشة بخيوط المخيش الفضية بارتفاع ٥٥ سنتيمترا وعرض ٢٥ سنتيمترا ، ومكتوب في سطرين منها عبرتا « لا اله الا الله ، وذلك في السطر العلوى اما في السطر السفلى فنجد عبارة « محمد رسول الله ، وينفس هذه النوعية عن الكسوة يكسى الجزء الهرمي من اعلاه عن الامام والخلف بكسوتين تحملان نفس العبارات السابقة في كل منهما .

وتتنيل المحمل شراريب على امتداد محيطه السفلى بارتفاع ٢١ سنتيمترا ، مصنوعة من خيوط القصب الاصفر اللون ، كما تتنيل شريط الكتابات القرآنية كذلك بنفس الارتفاع .

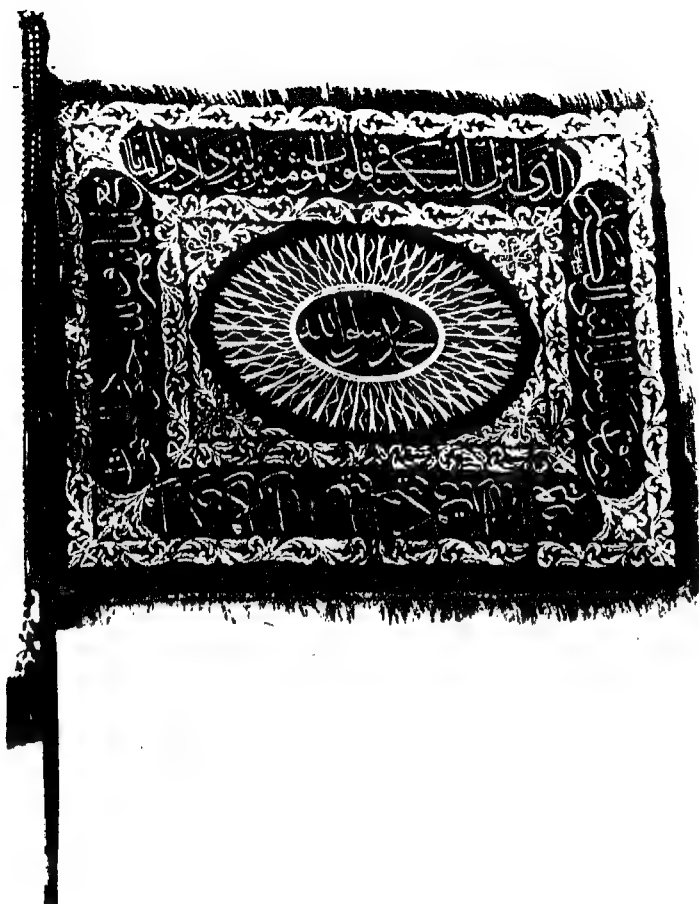
ويوجد كنار اصفر اللون بسمك ٣ سنتيمترات وهو تحت الحزام المكتوب بالمخيش بآية الكرسي . وهذا الكنار يحيط بستر الجزء السفلى من كسوة المحمل بنفس السمك .

وقد لاحظنا ان عقود الجمل مزركش كذلك بخيوط المخيش الفضية بنفس سمات زركشة كسوة المحمل ومن نفس القماش كما لاحظنا ان جميع البطانة الداخلية لكسوة المحمل عن الحرير ذى اللون الاصفر . اما بطانة كسوة القوائم الراسية فهي من الحرير الاحمر اللون .

وقد بحثنا اثناء الفحص للمحمل عن منظر مسجد مكة الذى وصفه الرحالة الانجليزى (انوارد وليم لين) على كل ستر له فلم نجده ، فرجحنا في البداية ان يكون القصد هو تشبيه الكتابة بآية الكرسي على كسوة المحمل بتلك الزركشة التى توجد على لحزمة ستائر كسوة الكعبة المشرفة ، وظننا ان دقة التعبير قد خلفت (انوارد وليم لين) ولكن بالرجوع الى شكل المحمل الذى رسمه (انوارد وليم لين) بنفسه وجدنا شكل الكعبة المشرفة مرسوما على الجزء العلوى الهرمي الامامى من كسوة المحمل ، وبالطبع وضعت ستة التغير والتبديل بصماتها على كسوة المحمل ، وسبحان من لا يتبدل ولا يتغير (انظر الشكل المرسوم ص ٢٠٤) . اما علم المحمل او بيرقه ، فكان يعلب عمل الكسوة عمل بيرق مميز لاقالة الحجاج . وهذا البيرق له شكل خاص يمكن ان نتوقف عنده .

بيرق المحمل :

هذا البيرق مصنوع من القماش المزركش بزركشة نباتية وكتابية وهندسية ويلاحظ على هذا البيرق ان زركشته التى على وجهه على النحو الآتى :



● الوجه الآخر لبيرق المحمل المصرى فى
عهد الملك فؤاد ■

احتفاليات المحمل المصرى :

إذا كانت الأمثال الشعبية رغم بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جديلا لأخصها الشعب حسب ظروف بيئته وبأسلوبه الخاص ، في كلمات موجزة ، وبجرس موسيقى خاص تتميز به في كل لغة^(١١٣) ، فإن بساطة تعبير التجربة المصرية مع المحمل تتلخص في مثلين شعبيين هامين . هذان المثلان الشعبيان يقولان : « كلها يوم وليلة » و « يحل المحمل الرميلا » ، و « ياما الحج مربوط له جمال » .^(١١٤)

فالتجربة المصرية مع المحمل تجربة فريدة في نوعها ، وثرية في فنونها الاحتفالية . والمحمل المصرى مثله مثل أى ظاهرة فولكلورية طرأت عليه بمرور السنين تراكمات عدة ، وما وصلنا من هذه الظاهرة عند منتصف القرن العشرين ليس إلا الورقة الأخيرة في كتاب زمنى تعددت أوراقه وتنوعت فيه السطور .

احتفاليات المحمل المصرى في العصر المملوكى :

يحمل العصر المملوكى طابعا مميزا للمحمل المصرى ، من حيث الذقة والنظام وفنون الاحتفال المختلفة .

من ذلك ما ذكره (ابن بطوطة) أثناء مروره بمصر لاداء فريضة الحج عام ٧٢٤ هجرية الموافق ١٣٢٥ ميلادية . قال تحت عنوان « ذكر يوم المحمل بمصر » ، في وقفة سريعة : « وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود . وكيفية ترتيبهم فيه انه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحاسب ، وقد ذكر جميعهم . ويركب معهم اعلام الفقهاء ، وامناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأملحه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاؤون على جمالهم . ويجتمع لذلك اصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينة القاهرة ومصر ، والحدادة يحدون امامهم . ويكون ذلك في رجب . فعند ذلك تهيج العزيمات ، وتتبعث الأشواق ، وتتحرر البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون في التاهب لذلك والاستعداد » .^(١١٥)

وكان شرفا لأى إنسان ان يسير في ركب المحمل عند الاحتفال به ، ويكفى ان يسير الإنسان في موكب يضم عليه القوم من رجال الدين أو الحكم . وكان عام ٨٣٩ هجرية هو بداية صدور المرسوم السلطانى الذى يحدد للقضاة الشرعيين الأربعة وجوب تصدّر المحمل المصرى ، حيث يسير بهم متوجها إلى مدرسة (شيخوخ) ويرجعون من الصليبية معه إلى تحت قلعة الجبل ، ومنها إلى جامع (الحاكم بأمر الله)^(١١٦) الفاطمى .

وكان قمة التكريم لأحد من الوزراء أن يسير أمام المحمل المصرى فى موكبه الاحتفالى المملوكى . قال (المقرئى) فى حوادث عام ٧٥٢ هجرية : « خلع على الوزير (علم الدين بن زنبور) خلعة الاستمرار ، وركب قدام المحمل بالزنبورى فى موكب عظيم . ولم يركب أحد من الوزراء قدام المحمل سوى (ابن السلحوس) فى أيام (الأشرف خليل) ، و (أمين الملك بن الغنم) فى أيام (الناصر محمد) مرة واحدة .^(١١٧)

والمتتبع لحجم ركب المحمل المصرى فى العصر المملوكى يلحظ أن هذا الحجم صار ينكمش مع مر الأعوام . ففي عام ٧٢١ هجرية وصل ركب المحمل المصرى إلى حد تقسيمه إلى سبعة ركوب . كان أولها فى شهر رجب ، يتبعها فى أول شهر شوال أربعة ركوب ، ثم يلي ذلك ركب . غير أن هذا العدد انكمش إلى ستة ركوب فى عام ٧٢٣ هجرية ، ثم صار ركبا واحداً فى عامى ٧٩٢ هجرية و ٧٩٧ هجرية ، ثم أصبح ركين فى عام ٨٣٣ هجرية .^(١١٨)

وكانت الفرجة على المحمل المصرى فى العصر المملوكى متعة يتمتع بها الناس من مختلف قطاعاتها ، خاصة النساء اللاتى كن يسرقن فى انتظاره على أحر من الجمر ، غير علبت بما يكبدن فى سبيله من امتهان فشلت قبله كل القوايين والاجراءات التى وضعها ولاية الأمر . قال (المقرئى) فى حوادث رجب عام ٨٢٥ هجرية : « وفيه زينت القاهرة ومصر لإدارة محمل الحاج على العادة ، فمنع (صدر الدين أحمد بن العجمى) المحتسب النساء من الجلوس على حوانيت الباعة ، وتشد فى ذلك ، فاستنعن . وكانت العادة أن تجلس النساء صدراً من النهار ، ويبتن بالحوانيت حتى ينظرن المحمل من المغد ، فيختلطن بالرجال فى مدة يومين وليلة ، وتقع أمور غير مرضية ، فعد منعهن من جميل ما صنع ، لكنه لم يتم ، وعدن فيما بعد كما كن لأعمال أمرهن . »^(١١٩)

وكان من ضمن عناصر الفرجة المشوقة الأساسية فى المحمل المصرى فى العصر المملوكى وجود (الرماحة) وما كانوا يفعلونه من أساليب الاستعراض بالرماح فى الركب ، حتى أنه ظهرت الأغنية الشعبية التى تحت على الفرجة على الرماحة فى موكب المحمل المصرى والتى كانت تقول كلماتها :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة

بيع اللحاف ذى المخمل حتى أرى ذى المحمل

وعندما تشب ذات مرة القتال بين جماعات المماليك ، وقتل منهم أعداد كبيرة من هؤلاء الرماحة لم يكن أمام ركب المحمل إلا أن ينتظر ، ويتأجل مواعده إلى حين الانتهاء من تدريب آخرين يحلون محل من قتل منهم .

قال (المقرئى) فى حوادث شهر شعبان عام ٨٢٣ هجرية : « وفى يوم الاثنين ثامنه أدير محمل الحاج على العادة ، ولم نعهده أدير قط فى شعبان ، وإنما يدار دائماً فى نحو النصف من شهر رجب ، غير أن الضرورة بموت المماليك الرماحة

اقتضت تأخير ذلك ، حتى أن معلمى اللعب بالرمح أخذوا في تعليم من بقي من المالِك ما عرفوا منه كيف يمسك الرمح ، فكان الجمع فيه دون العادة . « (١٢٠)

ولم يدخر المالِك جهداً في إخراج احتفال المحمل المصرى بشكل يشد الانتباه ، وبأى وسيلة ممكنة ، فاصطحبوا في الموكب مختلف أنواع الخيول المدربة المطهّمة ، وحتى الأفيال !

قال (ابن إياس) في حوادث شهر شوال عام ٩١٨ هجرية : « وفي يوم الاثنين ثامن عشرة خرج الحاج من القاهرة وصحبته المحمل الشريف ، وكان أمير ركب المحمل (نمر الحسنى) أحد الأمراء المقدمين ، وبالركب الأول (يوسف الناصرى) شاد الشراب خانة الذى كان نائب حماة ، وخرج صحبتها الأمير (قطلوباى) الذى قُرباش المجاورين ، فكان لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم اطلاب حافلة حتى رجّت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل الأفيال الكبار وهى مزينة باللبوس ، وعلى ظهورهم الصناجق ، وقدامهم الطبول والزمرور ، وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة . وخرج قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوماً مشهوداً . « (١٢١)

محمل السلطنة المملوكية :

إذا كان المحمل المصرى في العصر المملوكى يعد قمة التالى بالقياس إلى غيره من العصور ، فمما لا شك فيه أن المحمل الذى كان يحج فيه أحد سلاطين العصر المملوكى أو أحد من أفراد عائلته هودرة السنام من حيث التجهيز والرعاية والاهتمام .

ومع بداية العصر المملوكى يبرز محمل السلطان (الظاهر بيبرس) بما له من سمات البساطة التى تتناسب مع شخصية السلطان المحارب والزاهد في عام ٦٦٧ هجرية . كان في هذا المحمل نحو ثلاثمائة مملوك وأجناد الحلقة ، ولم يصحب السلطان معه غلماناً ولا عكامة إلا الأمراء والخاصكية الذين معه ، وقال لكل هؤلاء : الصغير يخدم الكبير : وكل من يعرف صنعة يفعلها في السفر ، وكان قد توجه إلى مكة المكرمة بعد مضي خمسة وعشرين يوماً أو نحوها من شهر ذى القعدة ، بحيث أنه لم يبق بينه وبين يوم عرفة إلا نحو خمسة عشر يوماً ، وكان قدم في المنازل إقامة ومؤنة وإبلا وخيلاً يركبونها ، فإذا وصلوا إلى المنزل الآخر تركوا ذلك وركبوا الموجود لهم في المنزل التى وصلوا إليها ، فكان سفرهم على حكم البريد ، كلما وصل إلى بريد يركب الجمل الذى فيه . وكان السلطان بطول طريقه يسأل قاضى القضاة (صدر الدين) عن أمور دينه ، فسار إلى مكة المكرمة في سبعة عشر مرحلة . (١٢٢)

كان أمير ركب هذا المحمل السلطانى هو ولد السلطان نفسه الملك (السعيد محمد) ، وبعد أداء مناسك الحج توجه السلطان (الظاهر بيبرس) إلى الشام في حين رجع ابنه بالمحمل المصرى إلى القاهرة . (١٢٣)

وكان محل السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في عام ٧٠٨ هجرية يضم خزانين مال ، وجنائب ، وعصب سلطانية ، وهجن ، وكنابيش زركش ، ومطبخ او سنيح . وقد اعد السلطان كل ذلك إلى القاهرة بعد ان وصل إلى العقبة ، ولم يحج ، واختار التنحي عن الحكم والإقامة بحصن الكرك عندما أحس أنه لا حول له ولا قوة في السلطنة .^(١٢٤)

وعندما عاد إلى الحكم مرة أخرى ، وحج للمرة الأولى عام ٧١٢ هجرية زينت له القاهرة ، ولافته القضاة الأربعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولافته المغاني في الطريق .^(١٢٥) وتكرر ذلك أيضا في حجته الثانية في عام ٧١٨ هجرية .

وعندما حجت زوجته السلطنة (خوند طغاي) في عام ٧٢١ هجرية ، فكانت الحقة التي تركبها مزركشة ، وصحبته الكوسات والعصائب السلطانية ، وعندما عادت خرج إليها السلطان ، واستقبلها في بركة الحجاج ، ودخلت القاهرة في موكب عظيم ، والأمراء مشاة قدام محبتها حتى طلعت إلى القلعة .^(١٢٦)

وحج السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) حجته الثالثة في عام ٧٣٢ هجرية ، بمناسبة عمله بابا جديدا من الخشب السنط الأحمر للكعبة المشرفة صفحة بالفضة عوضا عن الحديد الذي كان عمله الخليفة العباسي (المقتضى بالله) عام ٥٥٢ هجرية ، فكان زنة تلك الصفائح ثلاثون ألف درهم ، فلما قلع الباب العتيق الذي كان بها ، وزنوا ما عليه من الفضة ، فكان زنتها ستون رطلا ، فأنعم السلطان بتلك الفضة على بني شيبية ، سدة البيت الحرام ، فتقاسموه .

فكان عدة من توجه في هذا المحمل السلطاني اثنين وسبعين أميراً ، ما بين مقدمين الوف ، وغيرها من الطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو الفين مملوك ، فخرج السلطان في موكب عظيم فريد من نوعه ، تميز عن محمليه السابقين في الأبهة والفخامة .^(١٢٧)

وعلى خلاف المعتاد من تدهور مستوى المحمل المصري بمرور الزمن في العصر المملوكي كان الأزدهار للمحمل المصري السلطاني إذا ما حج أحد من السلاطين او أفراد عائلتهم .

ووصل محل الأمير (الناصري محمد بن الغوري) وإمه في عام ٩٢٠ هجرية إلى ذروة البذخ وذروة الاحتفال .

قال (ابن إياس) يصف تفاصيل هذا المحمل السلطاني : « وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال فيه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم مشهود ، لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين الماضية ، وذلك قد انسحب فيه أربعة اطلاب حافلة : طلب (جاني بيك قرا) بلش المجاورين ، وكان حافلا ، ثم انسحب طلب شيدى (عمر بن المنصور) أمير الركب الأول ، وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم اشياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقدمون ، ثم انسحب طلب المقر الناصري

ابن السلطان ، فخرج بطُلب حربي ، وقَدَّامه طبلين وزميرين وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتين هجن بالكوار زركش من ذهب ببنادقة ، وبقية الكوار مخمل ملون ، وانسحب في طلبه عدة خيول بكنابيش زركش بغواشي حرير اصفر وعدة خيول ، نحو طولتين ، ملبسة ببركستوانات فولاذ مكفَّة ، وانسحب في طلبه نحو عشرين جملا مزينة بالآلات الشراب خاناه من الألوان الصني ، واللازورد ، والزجاج اللؤلؤي ، وغير ذلك ، وايضا لحمل مزينة بالآلات الطشتخاناه من الابلريق الكُفَّ ، والطسوت الكُفَّ ، والشمعد ، وغير ذلك مما يحتر الابصار ، ومحفة جوخ اصفر مزهر في آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجة السلطان فكانت غاية في الحسن ، منتهى ما يعمل من المحفَّات ، فكانت مخمل احمر كقورى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها ولرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ ، وفيها رصعنا ذهب بمصمص بلخش وغيره ، وحول ثوب المحفة بهرجان ذهب وفضة شقق ، وقدام المحفة لربعة مشاعل بقوط زركش بشراريب مثلث ، وقيل صنعوا لخوند حاتم من نحاس صفيح وداخلها لحواض نحاس . فعَدَّ ذلك من النواذر ، غلايات يصب منها ماء سخنة ، قيل إن مصروف هذه المحفة فوق العشرين الف دينار ، واما الرصافيات اللؤلؤ رَعَمُوا (انهم) رصافيات خوند زوجة (الاشرف قايتباي) ، صنعتهم لما حَجَّت ، فوجدوا في تركتها ، وكان خلف المحفة لربعة جمال غير الذى تحت المحفة ، وعليها كنابيش زركش على مخمل احمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقَدَّام المحفة حلدين ، ونحو عشرين نفرا من الخدَّام حول المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين محبرة مخمل ملون برسم عيال خوند وغيرها من يلود بها ، فلما شَقَّت من الرملة ارتجت لها ، ولاسيما اجتمع بالرملة الجَمُّ الغفير من الامراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصوا لكثرتهم ، ثم طلعت المحفة من الصورة ، ونزلت من على باب الوزير ، وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة في ذلك اليوم رجًا ، ولم يكن من العادة القديمة ان محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .. ثم انسحب سنيح خوند وابن السلطان ، فكان فيه الف جمال ما بين زاد وقرب ماء ، وغير ذلك من البريق الحلال ؛ ثم انسحب طُلب الامير (قطبباي) امير ركب الحمل ، فكان غاية في الحسن ، وهو منتهى ما يعمل في الاطالاب الملوكية ، فانسحب فيه نحو مئتي فرس ما بين خيول ملبسة ببركستوانات فولاذ مكفَّ وغير ذلك من المخمل الملون ، وخيول بكنابيش زركش ، وغير ذلك من المحفَّات والاحمال المزينة ، فارتجت لهذه الاطالاب الرملة ، ثم انسحب للحمل وقَدَّامه ابن السلطان والامراء الحاج والخاصكية المسافرين إلى الحجَّاج ، فخلعوا ، وكان السلطان في ذلك اليوم في شبك القصر ينظر إليهم من القلعة ، فخلع السلطان على ولده مُتَمَرَة وفوقاني حرير اخضر بطرز بلبغوى عريض ، واخلع على امراء الحاج مُمَرَّات ، واخلع على بلش المجاورين بكاملية

صوف بصمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة فالبسه السلطان تشريفاً وطرحاً هو وقاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمرأه الحاج وصحبتهم الأتابكي (سودون العجمي) وبقيّة الأمراء المقّدمين وسائر أغنياء الباشريين ، وكان قاصد ابن عثمان حاضراً لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة في موكب حفل لم يقع مثله في خروج الحجاج فيما تقدم من الموكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره .^(١٢٨)

وعلى الرغم من ذلك البذخ والترف الذي أحاط بقافلة المحمل السلطاني هذا إلا أن الشح والبخل كان السمة الرئيسية فيه ، « فلم ير لهم أحد من الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من كان معهم رُدَّ يشكى من الجوع »^(١٢٩)

المحمل الرجبي وفنون الرّملّة :

كان السلطان المملوكي (الظاهر بيبرس) هو أول من قرّر الحجّ الرجبي كما ذكر (ابن إيس) في سنة ٦٧٥ هجرية . قال : « وفي هذه السنة ، طيف بالمحمل الشريف ، وكسوة الكعبة ، بالقاهرة ، في رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، وهو أول من فعل ذلك من الملوك بمصر ، وأذن للناس في الحجّ رجبي ، فسعى الحجّ الرجبي من يومئذ ، واستمر ذلك في كل سنة ، تارة يبطل وتارة يعمل »^(١٣٠) . وذكر (ابن إيس) في حوادث شهر ربيع الأول عام ٨٠١ هجرية أن السلطان (الظاهر بريقوق) نادى في الناس بالقاهرة بأن يحجوا رجبي ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة ، فرسم بإعلانه على جاري العدة .^(١٣١) وإذا صحت هذه المعلومة : وكان السلطان (الظاهر بريقوق) قد أقام الحجّ الرجبي وأعادته مرة ثانية فقد أخطأ (ابن إيس) في تقرير أن الحجّ الرجبي قد بطل منذ عام ٧٨٣ هجرية ، بدليل ما ذكره في حوادث شهر رجب عام ٧٨٣ هجرية ، حيث قال : « دار المحمل الرجبي على العدة ، وخرجت الحجاج إلى البركة يوم دوران المحمل ، وكان أمير الركب الأمير (باهر الجمالي) المشرف فخرج الحجاج أقواجا »^(١٣٢)

وقد اقترن المحمل الرجبي في العصر المملوكي بفن الرّملّة القتلى أمام جمهرة المشاهدين من الناس ، وكان ممن يقودون هذا الفن الأمير (جاني بك الظريف) والأمير (قايتباي المحمودي) ، والأمير (تمرا الحسنی) المعروف باسم (الزردكاش) . وحينما بطل هذا الفن في أواخر العصر المملوكي بعثه السلطان (قائصوه الغوري) حياً من جديد ليمتع الناس مع قدوم طلعة المحمل الرجبي .^(١٣٣)

قال (ابن إيس) في حوادث شهر جمادى الأولى عام ٩٠٩ هجرية : « وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل في رجب وتلعب الرملّة على العدة القديمة ، وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنين وسبعين وثمانمئة من دولة

(الظاهر خشقدم) ، ونسى هذا الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا الفن ، فعين الأمير (تمرا الحسنى) المعروف بالزردكاش ، بأن يكون معلم الرماحة ، وعين معه الباشات أربعة ، وهم (أبو زيد) أحد الأمراء المقدمين و (جانم الدوادر الثاني) وهو قرابة (قانصوة خمسمائة) و (علان) والى القاهرة ، و (قرقماس المقرى) ، وعين من الخاصكية أربعين مملوكا على جارى العادة القديمة . « (١٣٤) وحينما استقر رأى السلطان (الغورى) على عودة هذا الفن ، وجرى استعراض الرماحة فى المحمل الرجبي ، أخلع السلطان على الأمير (تمر الحسنى) معلم الرماحة اطلسين ، وعلى الباشات الأربعة كوامل بصور . (١٣٥)

عفاريات المحمل المصرى فى العصر المملوكى :

نادراً ما كانت تمر مناسبة دوران المحمل المصرى بما تبعته فى النفوس من بهجة وانتسراح دون أن يكدر صفوها عبث العائنين . هؤلاء العائنون أطلق عليهم اسم (عفاريات المحمل) ، وقد وصفهم المستشرق الفرنسى (جاستون قبيت) بعدما ذكر مراسم الاحتفال بدوران المحمل ، إذ يتكبر الموقف ، « وسرعان ما يحدث هرج ومرج ، فترى جنوداً وقد ارتدوا ملابس تنكرية مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح ، وكان هؤلاء يسمون شياطين المحمل ، إذا كانوا يرتكبون كثيراً من حماقات ، حتى أن الحكومة قررت منع هذه العروض . » (١٣٦)

كان عفاريات المحمل فى الأصل ممثلين يخرجون فى احتفالات المحمل ، كما كانوا يظهرون وهم يؤدون ادوارهم التمثيلية امام الناس ، وكان يسير معهم المصارعون وما يسمى الآن (بالبلياتشو) الذى نعرفه فى (السيرك) ، ومن هؤلاء كان يسير على أرجل خشبية قد ترتفع إلى ثلاثة أمتار تقريبا ، ويسدل عليهم معطف طويل يغطى هذه الأرجل الخشبية ، ويلطخ وجهه بالمساحيق ، فكان منظره يثير ضحك الناس حتى أطلقوا على أمثال هؤلاء اسم « عفاريات المحمل » . (١٣٧)

كان الناس يغدقون على عفاريات المحمل النقود ينثرونها عليهم وهم يسيرون فى مقدمة المحمل ويزعمون أن هذه الأموال المنثورة سترد إلى أصحابها أضعافا مضاعفة ببركة المحمل .. !

ويظهر أن جماعة الممالك فى عصورهم المتأخرة طمعوا فى الحصول على هذه الأموال فأرادوا أن يقوموا هم بدور (عفاريات المحمل) فتنكروا وصبغوا وجوههم وأطلقوا لحاهم ، ولبسوا ثياب أصحاب المسافر ، وركبوا خيولهم بأن جعلوا وجوههم نحو ذيل الحصان وقاموا بحركات بهلوانية على الخيل ، ولكن الجمهور استنكر منهم هذه الحركات ، ولم يغدق عليهم الأموال ، بل جعلوها لعفاريات المحمل دون الممالك ، فغضب الممالك وقاموا بأعمال وحشية ضد الجمهور ،

فسلبوا نقودهم ، واختطفوا ملابسهم ، وانتزعوا الخلى من النساء ، بل هاجموا الدور كما أصاب المسافر الكثير من ضررهم .

وتاريخ العصر المملوكى حافل بمثل هذه الأعمال الوحشية التى قام بها المماليك الأجلاب ، ولم يسلم منها أى احتفال للمحمل المصرى ، بل لم يسلم من ذلك حتى المحمل السلطانى الذى كان يقل حريم السلطان المملوكى (الأشرف شعبان بن قلاوون) عام ٧٧٨ هجرية .^(١٣٨)

ولم نعرف من هم هؤلاء العفاريت للمحمل المصرى الحقيقيون ، وإنما ورد اسم احدهم عرضا عند (ابن إياس) . قال فى حوادث شهر المحرم عام ٩١٨ هجرية أيام سلطنة (الغورى) يوم الاحتفال بعشوراء فى قصر المقياس بالروضة : « .. ثم إن شخصا مضحكا يقال له (علي باى) الذى يعمل عقريتا فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى (كرتباى) فرقصه ، ثم سحب أمير أخور (ثانى أقبابى الطويل) فرقصه ، ثم سحب (بركات بن موسى) المحتسب فرقصه ، ثم سحب (عبدالعظيم الصيرفى) فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى »^(١٣٩)

كسوة المحمل فى العصر المملوكى :

على قدر ما كان اهتمام المؤرخين فى العصر المملوكى يرصدون ظاهرة احتفاليات دوران وسفر وعودة المحمل المصرى لم يهتم أحد بذكر كسوة المحمل سوى مرة واحدة فى عام ٧٨٥ هجرية . ففى هذا العام قال (المقرئى) : « وفى ثامن عشرة رجب دار المحمل بالقاهرة ومصر على العادة فى كل سنة ، واستجد له ثوب حرير أصفر بشمسات زركش ، فيها اسم السلطان ، وعملت له رصافيات فضة مطلية بذهب ، فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك . »^(١٤٠)

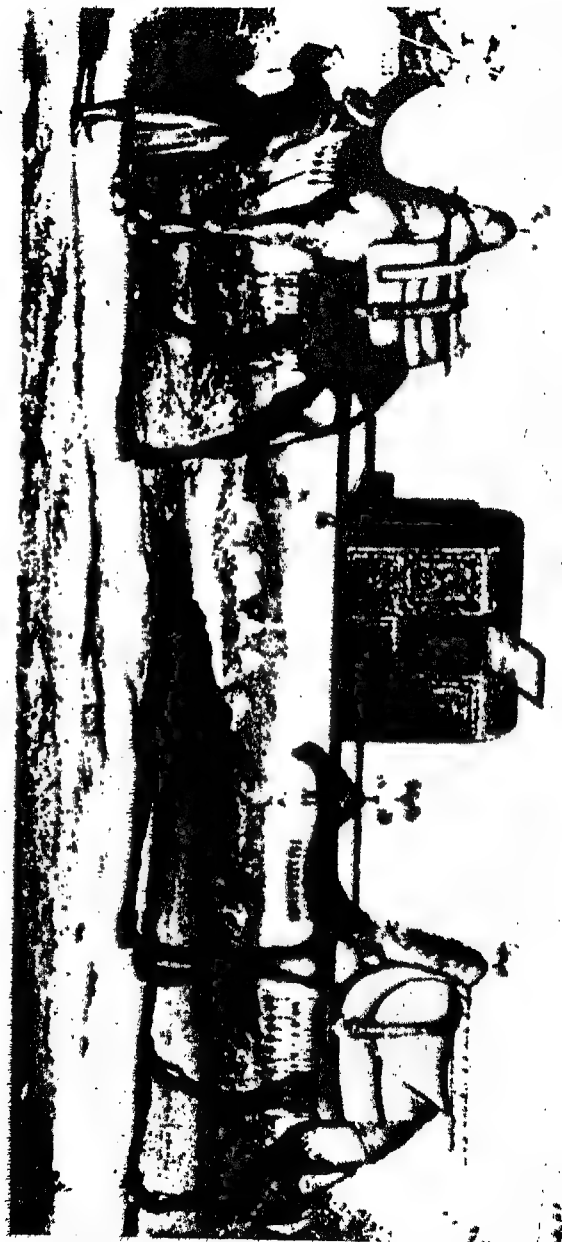
احتفاليات المحمل المصرى بعد العصر المملوكى :

وصف (الجبرتى) احتفال ذهاب المحمل المصرى فى شوال عام ١٢٠٠ هجرية ، فقال : « وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه كان خروج المحمل صحبة أمير الحاج (محمد بك المبدول) بالموكب على العادة ، ماعدا طائفة الينكجارية والعرب ، خوفا من اختلاط العثمانية بهم ، وحضر (حسن باشا القبطان) إلى مدرسة الغورية لأجل الفرجة والمشاهدة ، ولم يزل جالسا حتى مر الموكب والمحمل . ولما مرت عليه طوائف الأشراف ، فكانت تقف الطائفة منهم تحت الشباك ، ويقرأون الفاتحة ، فيرسل لهم ألف نصف فضة فى قرطاس ، ولما انقضى أمر ذلك ركب بجماعة قليلة ، وازدحمت الناس للفرجة عليه ، وكان لابسا على هيئة ملوك العجم ، وعلى رأسه تاج من ذهب مزرد مخروط الشكل ، وعليه عصابة لطيفة من حرير مرصعة بالجواهر ، ولها ذوائب على أذانه وحواجبه ، وعليه عباءة لطخ قصب أصفر . »^(١٤١)

اما الاحتفال بعودة المحمل المصرى فى عام ١٢١٦ هجرية ، فقد رصد على النحو
الآتى : « وفى يوم الاثنين ، وصل (سليمان آغا) إلى بركة الحاج ، وصحبته
المحمل ، ونساء الأمراء القدامى من الشام ، فخرج الناس لملاقاتهم ، واخذوا
معهم حمير مكرية لركوب النساء وهديات ، ونودى فى عصريته بعمل موكب من
الغد ، وطف الاى جاوليش بزيه المعتاد ، وخلفه القلبجية ، وهم ينادون (يارك
الاي) ، فلما أصبح يوم الثلاثاء ثلثى عشرينه عمل الموكب ، وانجر الاى ،
ودخل المحمل من باب النصر ، وشقوا به من الشارع الأعظم ، وصافى ذلك اليوم
يوم مولد الشهيد الحسينى ، والأسواق مزينة وعلى الحوانيت الشقق الحرير ،
والزبدخت ، والتفصيل ، وتعليق القناديل ، وعشى فى الموكب رسوم لوجالقية
والأوده بلشيه وأكثر الأمراء والمشايخ والعلماء ، وتقيب الأشراف ، ونبه على
جميع الأشراف تلك الليلة بالحضور فى صبح ذلك اليوم للعشى فى ذلك الموكب ،
غمشى كل من كان له عمامة خضراء ، يكبرون ويهللون ، فكلوا عدداً كثيراً ، وكل
من وجده بالطريق وعلى راسه خضار جذبه وسحبوه قهراً ، ولمروه بالمشى وإن
أبى ضربوه ، وسبوه ، وبكتوه بقولهم ، ألسنت من المسلمين ، وكذلك تجمع أرباب
الأشهير ، ومشوا على علاتهم يطبولهم ، وزمورهم ، وخياطهم ، وخرقهم ،
وخورهم ، وصيلاحهم ، فلم يزلوا حتى وصلوا إلى قريمدان ، وتسلم المحمل
(محمد بننا أبو عرق) من (سليمان آغا) الذى وصل به ولكنه عوضاً عن سيده
أمير الحاج (صالح بك) ، ثم صعدوا به إلى القلعة ، وأودعوه هناك ، وعملت
وقدة وشنتك تلك الليلة . » (١٢٧)

ويبدو أن مستوى المحمل المصرى تردى إلى مستوى أقل من حيث شغف
الاحتفال به والمشاركة فيه . قال (الجبرتى) فى حواش شهر شوال عام ١٢٢٩
هجرية : « وفى يوم السبت رابع عشرينه ، عملوا موكباً لخروج المحمل ، واستعد
الناس للفرجة على علاتهم ، فكان عبارة عن نحو مائة جمل تحمل روايا الماء ،
والقرب ، وعدة من طائفة الدلاة على رؤسهم طرايطر أسود قلابها ، وأمير الحاج
على شكلهم ، وخلفه أرباب الأشهير ببيارقهم ، وشراميطهم ، وطبولهم ،
وزمورهم ، وجوقاتهم ، وخلفهم المحمل ، فكان مدة مرورهم مع تقطيعهم وعدم
تظلمهم نحو ساعتين ، فلين ما كان يعمل من الموكب بمصر التى يضرب بحسنها ،
وترتيبها ، ونظامها المثل فى الدنيا ، لمسيحان مغرب الأحوال . » (١٢٨)

لقد تغيرت تلك الاحتفالات ، وتطورت كثيراً تلك العروض الشعبية التى كانت
تصاحب رحلة المحمل إلى ومن الأراضى المقدسة . وإذا كانت تلك الاحتفالات
والعروض الشعبية قد شبكتها شوائب العصر المملوكى ، من لهو واستمتاع حسى
أمن عصره المنحدر والذابل ، فإن العروض الشعبية التى واكبت المحمل المصرى
منذ بداية هذا القرن قد أخذت لها مسحة صوفية طاهرة ، بعد أن ولى زمان
اختلطت فيه الأمور .



هذه كانت النساء المسلمات يذهبن الى الحج ، وهي صورة رسمية المستشرق الفرنسي
(بوشون) في رحلته التي قام بها عام ١٨٤٢ ميلادية في عهد محمد علي

وستضرب مثلا بالاحتفال بامير الحج وامين الصرة التي كانت تحوى مال الصدقة قبل سفر المحمل المصرى .

كان هذا الاحتفال الشعبى يسمى باسم (العراضة) ، حيث كان امير الحج يعين يوم الاحتفال بسفر المحمل . وجرت العادة انه بعد تعيين امير الحج وامين الصرة تحتفل طوائف الضوئية ، والعكامة ، والغراشين ، والسقاين ، وتحضر كل طائفة ومعها رئيسها إلى منزل امير الحج ، ثم إلى منزل امين الصرة ، ومن ثم يقام الاحتفال .^(١٤٤)

وطائفة الضوئية : هم الذين يضيئون الطريق اثناء السفر في الليالى المظلمة بإشعالهم الخشب في مشاعل يحملونها امام الركب وعلى جانبيه ، ويسير رئيسهم دائما مرافقا لامير الحج ، ويلقب باسم (ضوى) بنشا ، وعددهم سبعة ، وتقوم طائفة الضوئية بحفلهم بأن يحضر رئيسهم لابسا « بنشا » وخلفه رجال حاملين المشاعل ، مكسوة رؤوسها باغطية ملونة ، ويبتدون بمدائح نبوية ، وعقب ذلك يسقون شرابا حلوا ، ويعطى رئيسهم « شالا » كشميريا يتقلده فورا ، ثم ينصرفون .

والعكامة : وهم افراد طائفة ، وتليفتهم وضع الاحمال على الجمال وقيادتها ، والمحافظة عليها . وانزالها . ويحضرون إلى منزل امير الحج ، ومعهم رئيسهم لابسا « بنشا » ، ومعهم تختروان محمول على جملين بالهيئة التى يكون عليه حال السفر ، وتتقدمهم الطبول والزمر ، ويسقون الشراب الحلو ، ويقلد رئيسهم « شالا » كشميريا وينصرفون .

والغراشون : وهم وتليفتهم نصب الخيام وطبها ، ويتقدمون الركب مع بعض الحرس قبل وصوله إلى اية محطة بوقت كاف ، ويقيمون له الخيام ، والسقاؤون يملئون القرب ويضعونها في الخيام ، حتى إذا وصل الركب وجدت الخيام مقامة والمياه فيها داخل القرب .

ويكون حفل الغراشين بأن يحضروا ومعهم رئيسهم لابسا « بنشا » ، وامامه الطبول والزمر وجمالان محملان خيلما كحلالهم وقت السفر ، فيسقون الشراب الحلو ، ويقلد امير الحج رئيسهم « شالا » كشميريا ، وينصرفون ، ويحتفل السقاؤون عندما يحضر كل واحد منهم ، وهو يحمل قربة متفوخة ، ويرقصون بها على قرع الطبول ونغم المزامر ، ومعهم جمالان محملان قريبا مملوءة بالماء ، وفوق القربة قمع من النحاس يوضع في قم القربة ، ويسكب فيه الماء المثلها ، وجعل ثالث على ظهره سعفان نخل محزومة من اسفلها تمثل نخلة صغيرة . وقاعدة النخلة وظهر الجمل مزينان بالشيلان الكشميرية . والانسجة القطيفة المشغولة بالقصب والترتر .

وإلى الحفل يسقون الشراب الحلو ، ويقلد امير الحج رئيسهم « شالا » ، كشميريا ، ثم ينصرفون .

وهؤلاء الرؤساء الأربعة بليسون « المنشآت » والشيلان الكشميرية المهداة إليهم من أمير الحج في كل حفلة تعمل أثناء تنقلات موكب المحمل المصرى في القاهرة ، والسويس وجدة ومكة ومنى وينبع والمدينة .

إن أدق وصف لموكب المحمل المصرى يعبر عنه في جملة واحدة فقط هو وصف الرحالة الفرنسى (جيراردى نرفال) ، وهو على مشارف القرن الثامن عشر ، قال هذا الرحالة حينما شهد موكب المحمل المصرى عند باب الفتوح بالقاهرة : « كان المشهد يشبه أمة تسير وتأتى لتذوب في شعب كبير »^(١٤٥)

ولقد كانت عبارة الرحالة الفرنسى بالفعل صادقة تمام الصدق ، وإن جاءت رؤيته رؤية سائح مندهش أخذ جلال المشهد منه لبه وعقله ! .

وهناك العديد من الرحالة الذين اهتموا وعنوا بأمر المحمل المصرى ، فوصفوه في كتبهم ومذكراتهم الخاصة وصفا اختلف من عين لأخرى . نذكر منهم مثلا (ادوارد وليم لين) ، و (جيراردى نرفال) ، و (لوسى دف جورديون) ، و (محمد لبيب البتتوني) ، و (إبراهيم رفعت باشا) ، وهذا الأخير استطاع بحس في القولكلور مرهف أن يصف موكب المحمل المصرى وصفا دقيقا وهاما ، ساعده على ذلك أنه كان أمير البعثة للحج المصرى في أعوام (١٣٢٠ - ١٩٠٣) ، و (١٣٢١ - ١٩٠٤) ، و (١٣٢٥ - ١٩٠٨) ، وشغل منصب قومندان حرس المحمل عام ١٣١٨ - ١٩٠١ . قال (إبراهيم رفعت باشا) في وصفه احتفال المحمل المصرى : « في يوم ٢٧ شوال سنة ١٣١٨ هجرية (١٦ فبراير ١٩٠١) احتفل في القاهرة بكسوة الكعبة المشرفة بالطريقة الآتية :

في يوم ٢٦ شوال أتى بالمحمل من مقره بوزارة المالية ، ونقل داخل صناديق على عجلة إلى (وكالة الست) بالجمالية حسب المعتاد من قديم ، ونقل جزء من كسوة الكعبة مع أحزماتها الحريرية المزركشة بالقصب من مصنعها بالخرنفش إلى المصطبة بميدان صلاح الدين المعروف بميدان القلعة أو ميدان محمد علي^(١٤٦) .

وفي عصر هذا اليوم احتفل رسميا بنقل كسوة مقام الخليل إبراهيم - عليه السلام - والجزء الباقي من كسوة الكعبة من مصنعها بالخرنفش إلى ميدان صلاح الدين السابق ، وكان نقل الكسوة على أكتاف الحماليين ، يحيط بها رجال الشرطة ، ويتقدمها قسم من الجيش ما بين راجل وراكب معهم الموسيقا تصدح بالأنغام المطرية ، ويصحبه أرباب المزمار البلدى المعينون للسفر بصحبة المحمل ، وكذلك تقدم الكسوة مدير مصنعها - مأمور الكسوة - ممتطيا جواده مرتديا لباسه الرسمى - بذلة التشريفية الكبرى - وعلى يديه مبسوطتين كيس مفتاح الكعبة . ويتلو كسوة مقام الخليل إبراهيم محمولة على الأكتاف أيضا ، وسار الموكب بهذا النظام من المصنع إلى سبيل (كتخدا) ، حيث التقى به المحمل بكسوته الخضراء المعتادة أتيا من (وكالة الست) بالجمالية على ظهر جمل ، فسار وراء كسوة المقام ، وسار الموكب كله إلى النحاسين ، فالغورية ، فباب زويلة



المحمل الشريف

أكتوبر ١٩٤٦

موكب المحمل المصرى فى اكتوبر ١٩٤٦ ميلادية ايام الملك

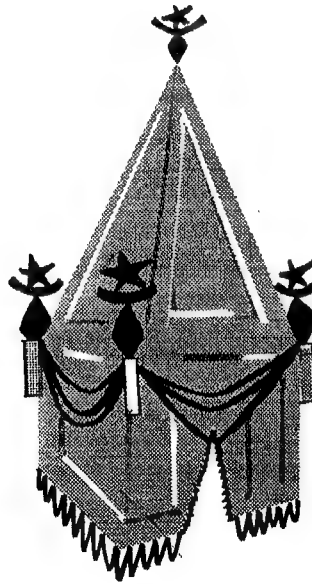
فاروق

١٦٢١

(بوابة المتولى) ، فالدرج الأحمر ، فالتبانة ، فالمحجر ، فميدان صلاح الدين ، حيث أقيم هناك الاحتفال . فوضع المحمل مع الكسوة في المحل المقابل لردهة (صالة) الاستقبال حتى الصباح ، ووضعت كسوة المقام وسط الردهة المذكورة التي زينت جدرانها بقطع من كسوة الكعبة وأحزمتها القصصية وكبس مفتاح الكعبة وستارة بابها وباب التوبة ، ووضع حول كسوة المقام أربع مائلات (شمعدانات) من الفضة أحضرت من جامع القلعة ، ووضع بحجرة المحافظ التي بالجهة الغربية من ردهة الاستقبال أربع قطع يقال لها (كرداشيات) زينت بها جسر الحجرة ، وقد أحييت المحافظة الليلة المعقبة لهذا اليوم بتلاوة أى القرآن الكريم ، وإنشاد المنشدين في مكان شرقي مكان الاحتفال ، ودعت العلماء والكبراء والأعيان لمشاركتها في إحياء الليلة ، ومنهم من دعت لتناول طعام العشاء قبل الغروب ، ومنهم من دعى لإحياء بعد صلاة العشاء فحسب ، كما أنها دعت مشايخ الطرق من الرفاعية ، والسعدية ، والأحمدية ، والابراهيمية ، والبيومية ، والنقادرية ، والشاذلية للسير أمام المحمل والكسوتين ، وللمشاركة في إحياء هذه الليلة التي انفق فيها مائة جنيه مصرى ، واستمرت الحفلة إلى ما بعد نصف الليل ، حيث جمعت قطع الكسوة التي في الردهة وفي حجرة المحافظ مع كسوة المقام ، ووضع كل ذلك مع المحمل في المكان المقابل لردهة الاستقبال . وفي صباح هذه الليلة احتفل بالكسوة والمحمل احتفالاً فخماً في ميدان صلاح الدين حضره سمو الخديو والوزراء والعلماء والأعيان ، واطلق للخديو ساعة حضوره واحد وعشرون مدفعاً ، وصدحت الموسيقى بسلامة ثلاثاً ، أعقبها الضباط والعساكر والحضور في كل مرة بالهتاف لسموه (أفند مزجوق يشا) - يعيش أفندينا طويلاً - وكان الخديو والحضور قليلاً في بهو (صالة) الاستقبال مشاهداً دورات المحمل السبع المعتادة في الفناء الواسع الذي أمام البهو ، وكان يقود جمل المحمل مدير مصنع الكسوة الذي قدم المقود إلى سمو الخديو ، فقبله ، ونأوله قاضى القضية فقبله أيضاً مع بعض الحضور ، ثم أعاده إلى المأمور الذي ينتظر بالمحمل قبالة الجامع المعروف (بالمحمودية) بالميدان ريثما يتم استعراض الكسوة ، ثم عرضت الكسوة يحملها الخفراء على سموه ، وقد وقف خارج الردهة مع الوزراء والحضور ، والخفراء يعمرون بهامن امامهم حتى إذا ما انتهت استعراض الجيش ، ثم اطلق واحد وعشرون مدفعاً إيداناً بانتهاء الحفلة ، وانصرف الخديو والحضور ، ثم سير بالكسوتين والمحمل إلى مسجد الحسين - رضى الله عنه - يصبحها رجال الجيش والشرطة وأرباب الطرق وفي المسجد استقبال الكسوتين أمير الحج وأمين الصرة .. وكنا قد سبقا الناس إلى المسجد ، وهناك ضمت بالخيطة قطع الكسوة بعضها إلى بعض ، ثم نقلت إلى العباسية مع كسوة المقام في صناديقها المعدة لها استعداداً للسفر بهما إلى الحجاز بعد . أما المحمل فسير به من المسجد الحسينى إلى مصنع الكسوة بالخرنقش ، وبقي هناك إلى صبيحة يوم

الاحتفال بخروج المحمل إلى الأقطار الحجازية ، ففي صبيحة هذا اليوم احتفل
بنقله من المصنع إلى ميدان صلاح الدين ، ولكن من طريق سوق السلاح ، وفي
ضحوة ذلك اليوم ١٣ ذى القعدة سنة ١٣١٨ هـ (٤ مارس سنة ١٩٠١) عمل
احتفال بالميدان المذكور كالاحتفال السابق ، وسلم فيه (عبدالله فائق بك) مدير
مصنع الكسوة زمام المحمل إلى سمو الخديو وسموه سلمه لأمير الحج ، حيث قاده
محفوفا برجال الشرطة والجيش وأرباب الطرق إلى العباسية ليسافر من هنالك إلى
السويس فمكة مع الكسوتين والروائح العطرية والخرق الجديدة التي تغسل بها
الكعبة ^(١٤٧) .

□ □ □





العادات والمعتقدات الشعبية

في موكب المحمل المصرى

كأى ظاهرة من ظواهر المأثورات الشعبية العربية ،
التي تمس ناحية العقائد تراكت حول المحمل المصرى
تراكمات عند قدوم كل عام كان يهل فيه موكبه ، فى رحلته
للأراضى الحجازية ، سواء بالذهاب أو بالاياب .
وعلى امتداد تاريخ المحمل المصرى الطويل
لم تتضخم المعتقدات الشعبية وتصبح كالورم
السرطانى الخبيث حوله سوى فى عصور التخلف الأخيرة والتي قاد زمامها صوت
الاستعمار .

ومن أبرز المعتقدات الشعبية المصرية التبرك بالمحمل أينما حل ، باللمس لمن
استطاع الى ذلك سبيلا ، او حتى بمجرد الرؤية بالعين لمن تعذر عليه الملامسة .
يقول اللواء (ابراهيم رفعت باشا) الذى عاصر ذلك مرارا وتكرارا بصفته
قومندان حرس المحمل ثم أميرا للحج مرات عديدة ، واصفا تلك الظاهرة :
« .. وقد كان الأهالى ، ومشايخ الطرق ، وطلبة المدارس بنين وبنات ينتظرون
المحمل فى محطات الوقوف للقطار ومعهم الموسيقى والمزمار ، مثل محطات
القاهرة ، وطوخ ، وبنها ، والزقازيق ، وأبى حماد ، ونفيسة ، والاسماعيلية ،
وقايد ، ومما رأينا من عادات الأهالى احضارهم اولادهم الرضع ، ليروا المحمل ،
ففيبارك لهم فى ذريتهم ، وكانوا إذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم الى خدام
المحمل بعد ان يضعوا فيها شيئا من النقود ، أو يملؤوها باللحوم البيضاء ،
أو الفطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ، ويريدونها الى أربابها بعد إمرارها على
المحمل ، والذى دعا العامة الى ذلك ما يعلمونه من أن المحمل يوضع داخل المسجد
الحرام ، كما يوضع فى المقصورة النحاسية التى حول قبر الرسول - صلوات الله
عليه وسلامه - ما دام بالمدينة ، فيريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن
المقدسة » . (١٤٨)

كانت هذه العادة وهذا المعتقد يسرى سريان النار فى الهشيم فى شرائح عديدة
من المجتمع المصرى ، وكذلك فى أماكن عديدة منه ، وفى أزمنة مختلفة . أيضا .
فإذا كان زمن هذه الحادثة التى ساقها لنا اللواء / ابراهيم رفعت باشا هو عام
١٩٠١ ميلادية وقت أن كان قومندان حرس المحمل ، فإن هناك فى تاريخ المحمل
المصرى العديد من المواقف التاريخية ما يؤكد تاصيل هذه العادة الذميمة وذلك
المعتقد الخاطىء .

لقد رصد لنا هذه الظاهرة في الربع الأول من القرن التاسع عشر في فترة حكم الوالي (محمد علي) رسدا دقيقا المستشرق الانجليزي (ادوارد وليم لين) بل قام هو نفسه بها حين مشاهدته لموكب المحمل المصري العائد بالحجاج من الأراضي الحجازية ، عند باب النصر بالقاهرة . وفي ذلك يقول عنه ، وقد أدركه عند القلعة بعد عناء شديد من كثرة الازدحام : « .. وبعد ان لمستة ثلاثا ، وقبّلت يدي ، أمسكت بالهدية ، وسرت بجانبه ، ورأيت حارس المحمل المقدس ، الذي كان يسير خلفه ، فحملني على النطق بدعاء صالح ، لعله كان المانع من تنحيتي عنه ، ويحتمل ان يكون قد تأثر بمظهرى ، إذ انه كان يسمح للآخرين بالاقتراب من المحمل ولبسه واحدا واحدا ، ثم يدفعهم الى الخلف . وظللت سائرا بجانب المحمل ممسكا بستره الى ما يقرب من مدخل الرملة . وقد اخبرت احد اصدقائي الملمين بما فعلت ، فدهش دهشة كبيرة كبيرة ، وقال انه لم يسمع بأحد قام بذلك من قبل (!) وان الرسول - لا شك - قد حبانى بحبه ، وإلا لما قدر لى ذلك . واضاف الى قوله اننى قد حصلت على بركة لا تقدر . وان من الحكمة الا اخبر احدا من اصدقائي المسلمين الآخرين بهذا الحادث ، لئلا اثير حسدهم وسخطهم . ولا أستطيع ان اعلل تقديس المحمل الى هذا الحد . ويبدى كثيرون شوقا شديدا الى لمسه » .^(١٤٩)

وإذا كان المستشرق الانجليزي (ادوارد وليم لين) لم يستطع ان يجد تعليلا لتقديس العامة من المصريين للمحمل المصري فإن تعليلا ذلك قد ورد في ختام الفقرة السابقة التي ذكرها اللواء (ابراهيم رفعت باشا) ، فالعوام « يريدون التبرك بمحمل يزور الاماكن المقدسة » ففى عرفهم - بصرف النظر عن كون ذلك صحيحا أو غير صحيح - وهو بالتأكيد غير صحيح - ان المحمل المصرى قد مسّ الاراضى الحجازية المقدسة ، لذلك فقد أصبح مباركا ويمكن التبرك به ، وهذا المعتقد مازال راسخا فى الاعماق ، حتى بعد زوال امر المحمل الى الآن ، وذلك فى اشياء عدة كثيرة ، مثل من يعود بهدية لصديق من هناك قائلا له « خذ حاجة من رائحة النبى » .. او ان يعود بقسط ماء من زمزم ويرشها فى جنبات بيته لنيل البركة .. وعلى غرار موكب الدوسة - دوسة حوافر الحصان لأجساد آدمية منبسطة على الأرض - الذى كان يحدث فى ليلة الاحتفال بمولد النبى فى مصر كان البعض يرتدى تحت أخفاف جمل المحمل ، غير هتّاب من الموت ، او تحطيم الضلوع على اقل تقدير ، لنيل البركة من موكب المحمل المصرى . قال الرحالة الفرنسى (جبراردى نرفال) يصف مثل هذا المشهد فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد الرحالة الانجليزي (ادوارد وليم لين) بنحو ربع قرن من الزمان : « كانت كتيبة القواسين تجد صعوبة كبيرة فى ابعاد الزنوج الذين كانوا بدافع من تعصب يفوق غيرهم من المسلمين يتوقون الى ان يرتموا تحت أخفاف الجمال ، ليستشهدوا او يسحقوا ، فكانت ضربات العصي تنهال عليهم تمنحهم على الأقل جزءا من عذاب الاستشهاد الذى ييغونه » .^(١٥٠)

لقد وصل التقديس للمحمل المصرى الى درجة تقبيل خف جمل المحمل نفسه .
وفى ذكر ذلك يقول (محمد لبيب البتونى) : « .. ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر
بالاحتفاء بالمحمل انهم قضوا - اى فرضوا - على جميع حكام البلاد التى كان يمر
عليها فى طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله »^(١٥١)
وهذا الشيء هو من رواسب موروث الانحدار والقهر الاستعماري فى العصر
الملوكى . ولو اننا تصفحنا التاريخ سنجد ما يؤيد ذلك . ففى اخبار الخامس
والعشرين من ذى الحجة عام ٧٨٤ هجرية قال (ابن تغرى بردى) « إن مبشر
الحاج أخبر أن أمير مكة نزل على العادة لملاقاة المحمل ، وقبل الأرض ، ثم قبل خف
جمل المحمل »^(١٥٢)

وهذه الواقعة ذكرها (ابن اياس) فى تاريخه مع بعض الاختلافات البسيطة .
فقد أوردها (ابن اياس) ضمن حوادث عام ٧٨٨ هجرية ، اى ان هناك فرقا
واضحا بين التاريخين بلغ زهاء أربع سنوات ، كما ان (ابن اياس) ذكر ان فعل
التقبيل لم يتم لأن القدر عاجله ، فلقى مصرعه على يد اثنين من الغداويين ، وهما
يقولان له « غريم السلطان » فلم يكن قتله لانهما استنكرا فعل التقبيل الذميم
لخف جمل المحمل ، وانما لأن أمير مكة هذا الذى أدرج فى دمه المسفوح رأياه عدوا
للسلطان .

وسواء كان فعل التقبيل لخف جمل المحمل المصرى كان قد تم او كان فى النية
ان يتم لولا سرعة يد المتون ، فإن العرف السائد وقتها أن يقوم الحكام بهذا
الفعل ، فما البال والرعية ، ماذا عندئذ يكون فعلها ؟
الا يصدق هنا قول الشاعر العربى :

إذا كان رب البيت بالداف ضاربا

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

هذه العادة السيئة التى قال عنها (محمد لبيب البتونى) انها ظلت موجودة
الى ان أعفى السلطان المملوكى (الظاهر جقمق) أمراء مكة من فعلها فى سنة
٨٤٣ هجرية تحتاج منا وقفة تدقيق وفحص .^(١٥٣) (فالمقريزى) قد ذكر ضمن
حوادث هذه السنة : « ان الشريف بركات بن حسن بن عجلان أعفى من تقبيل
خف جمل المحمل ، فشكر هذا من فعل السلطان ».^(١٥٤)

ويبدو ان هذا الفعل من السلطان جقمق لم يكن بغرض القضاء تماما على هذه
العادة القبيحة ، وانما هو أعفى الشريف مكة هذا فى هذه السنة فقط ، أو ربما
أعفى ولاية أمارة مكة فقط ، إذ ان الثابت تاريخيا تكرار تقبيل خف جمل المحمل
فيما بعد .

وعلى سبيل المثال سنذكر واقعة حدثت سنة ٩٥٥ هجرية فى العصر العثمانى
الذى أسقط عصر المماليك ، ولكن استطاع بعضهم أن يتسلق الجدران العثمانية
على طريقة نبات اللباب ، ومن ثم فرض نفوذه من جديد .

كانت العادة وقتها أن يحضر أمير (ينبع) بخيله الملبسة ورجاله وزينته وأعلامه وطلبه في هيئة جميلة الى القرب من جبل (الزينة) ، ويُنزل عن فرسه ، ويصلي ركعتين بعد أن تبسط له سجادة كبيرة يحضرها غلمان الطشت خاناه - وهم المختصون بأمر الوضوء وغسيل الأيدي - بخدمة أمير الحاج للصلاة عليها هو ومن بصحبته ، ويلبس الخلعة السلطانية المجهزة لصحبة أمير الحاج ، ويلبس أمير الحاج من عنده قاضى (ينبع) وولد الشريف وولد أخيه ثم إن الشريف صاحب (ينبع) وأميرها ينقدم الصفوف ، ويقبل خفّ جمل المحمل المصرى لابرز مظاهر الطاعة والولاء...^(١٥٥)

ويبدو من هذه الحادثة أنها تبرز اصل مسألة تقبيل خفّ جمل المحمل ، فربما كانت في البداية لظهور مدى الولاء والطاعة من الأمراء سواء في مصر أو في البلاد الحجازية لمحمل السلطان المملوكي ، والذي يمثله شخصيا ، فكانما تقبيل خفّ الجمل هو بالضرورة تقبيل خفّ السلطان المملوكي أن جان لنا هذا التعبير .. ولقد شمل هذا النوع من التقديس مقود جمل المحمل المصرى نفسه ، كما قال (أحمد أمين) في كتابه « قاموس العادات والتقاليد » وأشار الى ذلك .^(١٥٦) ويؤيد ذلك وصف اللواء (ابراهيم رفعت ياشا) لموكب المحمل المصرى سنة ١٩٠١ ميلادية ، والذي قيل فيه خديو مصر ذلك المقود ، وكذلك قيله قاضى القضاة من بعده مع بعض الحضور .^(١٥٧)

وهناك رأى آخر يقول ان التقبيل لم يكن لمقود الجمل ، بل كان هناك بهذا المقود كيس اسطوانى الشكل وصغير ، وبهذا الكيس كانت توجد به آثار مقدسة - وهى قيما يزعمون بضع شعرات للنبي - صلى الله عليه وسلم - وبذا يظهر أن التقبيل لم يكن لمقود جمل المحمل المصرى في حد ذاته ، بل كان لهذه الآثار .^(١٥٨) أما جمل المحمل نفسه ، فقد حظى بمزية الاعفاء عن العمل بعد ذلك بقية السنة .^(١٥٩)

وقد روى لنا أن اختيار جمل المحمل كان يتم بعناية فائقة ، بحيث يكون ذلك الجمل من النوع الهادىء غير المشاكس . وكان يطلق عليه أحيانا اسم (الشيخ سيد) ، أو اسم (مبروك) أو اسم (نبيل) وكان جمل المحمل من نوع الجمال ذات المزاج الخاص . فقد كان (يشرب دخان المعسل) ، عن طريق أن يشرب راعيه ، ويشد أنفاس الدخان بفمه ، ثم ينفخها في أنف جمل المحمل ، فيستطيع له الحال .^١

وقد روى لنا أحد عمال زركشة كسوة الكعبة المشرفة ان جمل المحمل ذات مرة أرادوا أن يذبحوه بالمذبح في منطقة (زين العابدين) بالقاهرة ، ولكنه فر منهم ، وهرب ، وجرى من هناك الى أن وصل الى دار الكسوة الشريفة بالخرنفتش بمفرده . على الرغم من البعد بين المكانين الذى لا يقل عن عشرة كيلومترات على الأقل...^(١٦٠)

وروى لنا أن آخر جملين للمحمل المصري كانا في عام ١٩٥٣ ، وأن اسمهما (مبروك) و (نبيل) ، وكانا ياكلان طوال العام في عنبر الجمال المخصص لذلك بأسفل دار الكسوة الشريفة ، وكان لجمل المحمل موظف مخصص لاحتضار طعامه من البرسيم وخلافه يوميا . وكان يقوم على خدمة جمل المحمل في مصر جمال يرتدى جلبابا صوفيا وعمامة ، وآخر جمال كان يدعى (محمد الرهيوى) ، وكان له مساعد اسمه (سيد) ، وكل وظيفة هذا الجمال هو الحضور وقت قيام المحمل إلى الموكب ، وكذا الإشراف على نظام اعاشة الجمل ، أما مساعد الجمال فكان يقوم على أمر العناية بالجمال . وكان من عادته أن يقوم بتنشيط الجمل يوميا بالمشي من دار الكسوة بالخرنفس إلى ميدان سيدنا (الحسين) ، ثم العودة . وكان حينما يقف بالجمال أمام مسجد سيدنا (الحسين) تقبل عليه النساء العقيقات ، لتعبر من تحت بطن جمل المحمل ، طمعا في نيل البركة والانجلاء^(١٦٦) ومن أغرب العادات التي التصقت بالمحمل المصري عادة ضرب المدخنين أثناء

مرور موكب المحمل ..!

فقد كان المغاربة من أهل تونس وفاس .. كما قال (الجبرتي) في أحداث سنة ١١١٠ هجرية - من عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة المشرفة ، ويمرون بها في وسط القاهرة للتبرك ، وكلنوا يضربون من راوه يشرب الدخان في طريق مرورهم^(١٦٧)

ذكر لنا هذه الحادثة (الجبرتي) ولم يفسر لنا سبب هذه العادة ويبدو أن شرب الدخان بصفة عامة يكشف عن عدم اكتراث الشارب له بما يدور من حوله ، وهى العادة التي مازالت قائمة إلى الآن في صواوين التعازى في الماتم ، حيث يقوم المدخنون باطفاء سجاثرهم فور أن يبدأ قارئ القرآن في التلاوة لآياته الشريفة . ويذكر (الجبرتي) تفاصيل الواقعة التي حدثت من أهل تونس وفاس ، قائلا : « ..فراوا رجلا من اتباع (مصطفى كتحدا القازدغلى) فكسروا انبوبيته ، وتشاجروا معه وشجوا رأسه ، وكان في مقدمتهم طائفة منهم مسلحون ، وزاد التشاجر ، واتسعت القضية ، وقام عليهم أهل السوق . وحضر (اوده باشا) البوابة ، فقبض على أكثرهم ، ووضعهم في الحديد ، وطلع بهم إلى الباشا ، وأخبروه بالقضية ، فأمر بسجنهم بالعرقانة . فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ، ومات منهم جماعة في السجن ، ثم أفرج عن باقيهم » .

ويعلل صاحبنا كتاب « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » هذه الحادثة ويقسرها بأن « الحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون في العادة بعناصر من المصريين ، أو من أسماهم صاحب « عجائب الآثار » بأولاد البلد ، وإنما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية في خدمة السلطة ، وهى في العادة من العناصر التركية »^(١٦٨)

كما يرجعان هذا التصرف العنيف من الحجاج المغاربة الى كونهم « متشددين بحكم انتمائهم للمذهب المالكي ، وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات اتباع المذاهب الأخرى خروجاً عن الدين أو ما أسموه (بالمنكرات الشرعية) مثل التدخين »^(١٦٤)

وإذا كان أهل المغرب العربي من عاداتهم التفرع بالعصا لمن يدخلون - كما ذكر (الجبرتي) - فإن الرحالة الإنجليزي (ادوارد ولیم لین) قد رصد ظاهرة ضرب أخرى أثناء مرور الحمل المصري في عهد الوالي (محمد علي) ، ولكن بشكل آخر . قال : « وهناك عادة غريبة يسمح بممارستها بمناسبة موكبي الحمل والكسوة ، فيطوف جماعة من الأولاد شوارع القاهرة ، وقد تسلح كل منهم بقطعة قصيرة من رعوس السعف الغليظ ، تُشَقُّ شقين أو ثلاثة من طرفها الأكبر الى نصف طولها ، وتسمى (مقرعة) فإذا دنوا من مسيحي أو يهودي طلبوا منه أن يمنحهم خمس فضة أو ستا قنطين : (هات العادة) فإذا رفض انهالوا عليه بمقارعههم . وفي العام الماضي ضرب بعض الأولاد افرنجيا ، جريا على هذه العادة ، فلجا الى وكالة كبيرة ، غير أن بعض الأولاد تبعوه ، وضربوه مرة ثانية . فاشتكى الى الباشا الذي أمر بتوقيف الجلد على شيخ الوكالة لعدم حمايته إياه »^(١٦٥) وشبهه هذا الموقف بما كان يحدث أثناء احتفالات النيروز في القاهرة ، حيث كان الصغار والكبار يرشون الأغنياء بالماء النجس أن لم يدفعوا لهم العادة ! ومن العادات الغربية العجيبة لموكب الحمل المصري انه كان يُغْنى به رجل يسمى (أبو القطط) وكان هذا الرجل يقوم بغذاء القطط التي كانت تتبع ركب الحمل مدة سفره في البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه اما وظيفته فهي التي غيروها بوظيفة إمام الحمل . ويقال ان وظيفته كانت من عهد حج (شجر الدر)^(١٦٦)

وإذا كان قد لاحظ ذلك (محمد لبيب البتنوني) وهو الذي رافق الخديو (عباس حلمي الثاني) في حجه في العشر الأوائل من مفتح القرن العشرين فإن الرحالة الإنجليزي (ادوارد ولیم لین) قد استلقت انتباهه موضوع القطط هذا في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، غير انه أشار الى أن من يقوم برعايتها أثناء رحلة الحمل المصري سيدة كانت تسمى (أم القطط) ، وهي عجوز تعودت - كما يقول - اقتفاء الحمل ، سفرة ، لا يسترها غير قميص ، إذ كانت تصحب دائما خمسة قطط أو ستة بجانبها على الجمل^(١٦٧) . ولم يذكر لنا أحد علة اصطحاب الحمل المصري للقطط . هل كانت مسألة معتقدات شعبية ؟ أو كانت لغرض والتهام بقايا وفضلات الطعام التي تتبقى من الحبيج ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل عدد هذه القطط كان يكفي لهذا الغرض ؟ في الحقيقة اننا لم نصل لعلة اصطحاب هذه القطط في موكب الحمل المصري ، وإن كان اللواء (ابراهيم رفعت باشا) قد ذكر ضمن « مرتبات ومكافآت موظفي الحمل وخدمته ونفقته » في سنة



● ستارة باب الكعبة المشرفة أو ما يسمى بالبرقع فوق أكتاف رجال بلوكات النظام عام ١٩١٦ ميلادية في عهد السلطان المصري حسين كامل ■

١٣٠٧ هجرية - ١٨٨٩ ميلادية أن مرتب (أبى القطط) قد بلغ ١٥ جنيه في ١٢ شهر عن كل شهر ١٢٥ قرشا ، وزيد المرتب في الشهر الى جنيهين من سنة ١٨٩١ ميلادية ، وان (أبى القطط) هذا كان يحصل على مبلغ جنيهين وربع كبدل تعيين له كنفر واحد للاتفاق على مستلزمات طعامه .^(١٦٨)

وقد ذكر اللواء (ابراهيم رفعت باشا) ان وظيفة أبى القطط أصبحت من وظائف من لا يسافرون الآن (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٨ م) مع المحمل ، ولكنه يتقاضى المرتب الى الوفاة ، فوظيفته من الوظائف الوراثية ، حيث يأخذها الأبناء بعد وفاة الآباء ، وعلى ذلك بقوله : « حتى تبقى بيوتهم مفتوحة ، وقد أيد ذلك الأمر الكريم الصادر المالية في ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٠٤ ، وكذلك أيد أمر صاحب العطوفة ناظر المالية الصادر في ٣٠ صفر سنة ١٣٣٠ هجرية (٢١ سبتمبر ١٨٩٢) بتعيين (محمد محمد عبد النبي) خادما للقطط خلفا لوالده »

وقد كانت من عادة المحمل المصرى أن تكون له كسوتان : كسوته اليومية ، وهى من القماش الأخضر وكسوته المزركشة ، ولا يلبسها إلا في المواكب الرسمية . وفي أيام وجوده بمكة كان يوضع فيما بين باب النبى وباب السلام - بكسوته اليومية . فيكون هناك مزارا للناس ، ولا ينقلونه من هذا المكان إلا في مواكبه الرسمية بالكسوة المزركشة ، وحينما كان يصل الى مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة المنورة ترفع عنه كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ثم يحملون كسوة المحمل ، ويدخلونها في الحجرة النبوية الشريفة من الباب الشامى ، ويتركونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة - رضى الله عنها - ، ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم السفر من المدينة ، فيلبسونها المحمل في طريق عودته الى مصر ، حيث كانت تحفظ كسوة المحمل المزركشة بمخزن في وزارة المالية ، أما كسوته الخضراء ، فكان يكسب بها سنويا بعد العودة ضريح سيدى (يونس السعدى) بجبانة باب النصر ، وقد اختص مقام هذا الولي بالكسوة الخضراء للمحمل نظرا لأنه كان يخدم المحمل المصرى أثناء حياته .^(١٦٩)

ومن المعتقدات الشعبية المصرية أن من يمشى في موكب المحمل خير ممن

يركب ..

قال (عبدالله بن سعد اليافعى) في ذلك نقلا عن (على بن الموفق) انه قال : « حججت سنة من السنين في محمل ، فرأيت رجلا يمشون ، فأحببت المشى معهم ، فنزلت وأركبت واحدا في محمل ومشيت معهم ، فتقدمنا الى البريد ، وعدلنا عن الطريق فنمنا ، فرأيت في منامى جوارى معهن طشوت ذهب وباريق فضة يغسلن أرجل المشاة ، فبقيت أنا ، فقالت احداهن لصواحبها : أليس هذا منهم ؟ قلن هذا له محمل ، فقالت : بلى هو منهم ، لأنه أحب المشى معهم ، فغسلن رجلى فذهب عنى كل تعب كنت أجده »^(١٧٠)

ومن عادات المحمل المصرى التى لم تكن مذمومة ، بل كانت حميدة عادة ابداء الحجاج الراى فى أمير محملهم وهم على مشارف القاهرة وقبل دخولها كنوع من الاستفتاء عليه وذلك فى العصر المملوكى والعثمانى !!
ففى حوادث عام ٨٩٩ هجرية فى شهر المحرم قال (ابن اياس) : « وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا عن (قانصوه خمسمائة) خيرا ، ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة على انه أرمى الناس وأخذ جمالهم ، وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر المالح فيما بعد ، وشالوا له الحجاج رايات سود وهم داخلون البركة »^(١٧١)

وإذا كان الحجاج يرفعون الرايات السود فى وجه أمير محملهم السيىء الطباع فإنهم يرفعون أيضا الرايات البيض فى وجه أمير محملهم الذى يرضون عنه . وهذا تمام ما ذكره كذلك (ابن اياس) فى حادثتين وقعتا فى سنتى ٩٢١ هجرية و٩٢٧ هجرية ، حيث قال فى الحادثة الأولى : « فلما رجعت الحجاج الى القاهرة اثنوا بكل خير على سيدى (عمر) بن الملك المنصور أمير ركب الأول ، وشالوا له الرايات البيض فى وسط الرملة »^(١٧٢) أما فى الحادثة الثانية ، فقد قال عن هؤلاء الحجاج القادمين بعد مشقة : « .. وتعرضت لهم جماعة من العربان فى الطريق فاتقنوا مع الأمير (جانم) وأمير الحاج ، فانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة ، فرجع الحجاج وهم راضيون عن أمير الحاج (جانم) وأثنوا عنه كل جميل ، وشالوا له الرايات البيض فى بركة الحجاج »^(١٧٣)

وحيثما كان ينتقل حجاج المحمل المصرى الى الأراضى الحجازية كانوا ينقلون معهم معتقداتهم الشعبية وموروثهم الشعبى ، خاصة ما يتعلق بتصورهم عن الجان وزيارة قبور الأولياء بقصد التبرك ، وعلى الرغم من ذهابهم الى البيت الذى لا بركة من بعده توجد فى بيت آخر تعدله ، وهو بيت الله الحرام .

كان حجاج المحمل المصرى يعتقدون فى بركة ماء فى مدينة الينبع معتقدات شعبية خرافية ، وفى هذه البركة يقول (على باشا مبارك) فى الخطط : « فى كل سنة فى الغالب يقدر الله تعالى بغرق نفر من الحاج ، أما من المصرى أو من الشامى ، فى الذهاب أو فى الإياب . وقد يتفق الغرق بعد الإيدان بالرحيل ، فيقال ان البركة بها سكان من الجان يحصل منهم ذلك ، ويكونون سببا للغرق ، ويقال غير ذلك والله أعلم بحقيقة ذلك »^(١٧٤) ولا يعرف من أين انتقل هذا المعتقد الخاطىء الى حجاج المحمل المصرى وهم فى طريقهم الى الاغتسال من كل صنوف الخطايا والذنوب عند بيته المحرم ، وكأنما دخلوا - معاذ الله - فى علم علّام الغيوب !!

وفى نفس المنطقة عند واد يسمى (وادى القسطل) بشاطئ البحر كان هناك قبر لشيخ يدعى (مرزوق الكفافي) عليه حظير من الخشب ، وكانت العامة من الحجاج المصريين يقفون عنده ويدفعون لخادمه النذور ، وهذا التصرف فى

حد ذاته يعد عاديا في عرف المصريين . إذ أن كثيرا ما يحدث مثل ذلك عند اعتاب
أضرحة الأولياء في العديد من الأماكن في مصر ، على الرغم من سداجة هذا الموقف ،
فإن مثل هذا الأمر لا يهم كثيرا أن نقف عنده ، ولكن الأهم ما كان يحدث من
الحجاج المصريين عند ضريح هذا الولي في منتصف القرن التاسع عشر والرابع
الأخير منه ، فلماذا كان يحدث هناك ؟

يقول (على باشا مبارك) موضحا ذلك : « كان بعض الحجاج من العامة
يكسرون عند قبره أوانى الزجاج المملوء بماء الورد الممسك ، يحملون ذلك
بصحبتهم من القاهرة لذلك ويعتقدون التبرك بمنته » (١٧٥)

لقد كثرت حول ظاهرة المحمل المصرى على امتداد تواجده الزمنى العديد من
العادات والتقاليد ، كما كثرت حوله أيضا معتقدات شعبية جانبها الكثير من
الصواب ، فبعدت في ضميمها عن جوهر الدين الاسلامى .

ولم يكن علينا بغريب في وقت من الأوقات أن يطالب اصحاب الملل الأخرى في
مصر بإنشاء محمل لهم أيضا .

وما المانع ؟ ألم تكن ظاهرة المحمل المصرى وغيره إلا ظاهرة شعبية وليست
دينية ؟

ولكن لأن البعض كان ينظر اليها بمنظار آخر مختلف فقد وُلِدَت الفكرة وماتت في
مهدا .

يقول (الجبرتي) وهو يتحدث عن حوادث سنة ١١٦٦ هجرية : « ومن
الحوادث أيضا في نحو هذا التاريخ أن نصارى الأقباط قصدوا الحج الى بيت
المقدس ، وكان كبيرهم إذ ذاك (نوروز) كاتب (رضوان كتخدا) ، فكلّم الشيخ
(عبدالله الشبراوى) في ذلك وقدم له هدية ألف دينار ، فكتب له فتوى وجوابا
ملخصه ان اهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم . فلما تم لهم ما أرادوا
شرعوا في قضاء اشغالهم وتشهيل اغراضهم ، وخرجوا في هيئة وابهة واحمال
ومواهي وتختروانات فيها نسلوهم واولادهم ومعهم طبول وزمور ، ونصبوا لهم
عرضا عند قبة العزب ، واحضروا العربان ليسيروا في خفارتهم ، واعطوهم أموالا
وخلعا وكساوى وانعامات . وشاع امر هذه القضية في البلد ، واستنكرها الناس .
فحضر الشيخ (عبدالله الشبراوى) الى بيت الشيخ (البكرى) كعادته ، وكان
(على افندى) أخو (سيدى بكرى) مقمرضا ، فدخل اليه يعوده ، فقال له :
« أى شيء هذا الحال يا شيخ الاسلام ؟ » ، على سبيل التبكيت ، كيف ترضى وتفتى
النصارى وتأنى لهم بهذه الأفعال لكونهم رشوك وهادوك ؟ فقال : « لم يكن ذلك . »
قال : « بل رشوك بالف دينار وهدية ، وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون في العام
القبال بازيد من ذلك ، ويصنعون لهم محملا ، ويقال حجّ النصارى ، وحجّ
المسلمين وتصير سنة عليك ، وزرّها الى يوم القيامة » . فقام الشيخ ، وخرج من
عنده مختافا ، وإذن للعامة في الخروج عليهم ونهب ما معهم ، وخرج كذلك طائفة

من مجاورى الأزهر ، فاجتمعوا عليهم ، ورجمواهم ، وضربوهم بالعصى والمسروق ، ونهبوا ما معهم ، وجرّسواهم ، ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من « دمرdash » وانعكس النصرى في هذه الحادثة عكسة بليغة ، وراح عليهم ، وذهب ما صرفوه وانفقوه في الهباء .^(١٧٦)

بعد ذلك بنحو نصف قرن نخل (الجبترى) يضرب كفا بكف وهو يرى النصرى في موكب كسوة الكعبة المشرفة الذى جرى في شهر شوال سنة ١٢١٣ هجرية .

قال (الجبترى) : « وفي ثامنه يوم الجمعة ، نودى في الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرميدان والتنبيه باجتماع الوجاقات وارباب الاشايير وخلافهم على العادة في عمل الموكب ، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس في الأسواق وطريق المرور ، وجلسوا للفرجة ، فمزّوا بذلك وامامها الوالى والمحاسب ، وعليهم القفاطين والبيئشات وجميع الاشايير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ، ثم (برطلمين كتحدا مستحفظان) وامامه نفر الينكجربة من المسلمين نحو المائتين او اكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع ، وهو لابس فروة عظيمة ، ثم مواكب القلقات ، ثم موكب ناظر الكسوة ، وهو تابع (مصطفى كتحدا الباشا) ، وخلفه النوبة التركية ، فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأمثال ، واجتماع الملل ، وارتفاع السفّل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخلوقات ، واجتماع الأضداد ، ومخالفة الوضع المعتاد »^(١٧٧)

وكان للمحمل المصرى فداء يسمى (فداء المحمل) وهى ظاهرة امتزجت فيها العديد من الخرافات الشعبية وشكلت امورا غريبة وعجيبة .

فقد كان يحدث هذا الفداء عند مقام الشيخ (سيدى سعيد) الموجود بمنطقة السبتية بالقاهرة ، فكان من المعتاد عند قدوم المحمل المصرى من الحج ان ترسل الحكومة جملا فداء عن جمل المحمل ، وكان الناس يدل ان ينتظروا نحره ليوزع عليهم لحمه يقطعونه بالمدى وهو حى ، « وكانوا يبيعون لحمه الى الناس على سبيل البركة مدعين ان لحمه ينفع للصداع وشحمه لللبواسير » .^(١٧٨)

إن المحمل المصرى الذى توقفت مظاهره الاحتفالية الرسمية منذ أوائل منتصف القرن العشرين مازالت بقاياها الاحتفالية بموروثاتها تعيش داخل بعض الجماعات الشعبية المصرية الى الآن . وليس ادل على ذلك سوى الاحتفال السنوى الذى يقام الى الآن في مدينة منفلوط بمحافظة أسيوط صباح يوم الأول من ايام عيد الفطر ، حيث يجوب الأهالى في المدينة هناك أرجاء بلداهم خلف نموذج مصغر من المحمل لازالوا الى الآن يحتفظون به .^(١٧٩)

وش في خلقه شئون .. !!

الهوامش والمراجع

- (١) اللواء / ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » ، ص ٣٠٤ - ٢ .
- (٢) محمد ليبيب البتوني - « الرحلة الحجازية » ، ص ١٤٠ .
- (٣) النويري - « نهاية الأرب » ، ص ١٣٥ ، ٢١٩ ، ٣٣٤ - ٢١ .
- (٤) القزويني - « عجائب المخلوقات » ، ص ٢٦٨ - ٦ - كتاب التحرير رقم ١٣١ - دار التحرير للطبع والنشر :
- (٥) محمد ليبيب البتوني « الرحلة الحجازية » ، ص ١٤٠ .
- (٦) الحريري « مقامات الحريري » - ص ٣٢٤ - المكتبة الشعبية ببيروت - بدون تاريخ .
- (٧) د. ثروت عكاشة - « فن الواسطي من خلال مقامات الحريري » ، ص ٧١ - دار المعارف ١٩٧٤ ، ويلاحظ وعلى وصف الأستاذ الدكتور (ثروت عكاشة) ان وصف اليهودج بأنه (هودج النساء) هو وصف - في رأينا - غير دقيق ، لأن ما يتقدم من ركب المحمل مع قلند القافلة هو هودج المحمل نفسه ، وهو الهيكل الخشبي ذو الكسوة المزركشة ، وهو للاشعار فقط ولا يركبه أحد .
- (٨) عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد المنظمة » ، ص ٢٨٧ .
- (٩) الفاسي - « د شفاء الغرام » ، ص ٢٤٢ - ٢ ، عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد » ، ٢٨٨ .
- (١٠) عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد » ، ص ٢٩٣ .
- (١١) ابن ايلس « بدائع الزهور » ، ص ٦٨٦ - ١ ق ٢ .
- (١٢) رسلان بن يحيى القاري - « الوزراء الذين حكموا دمشق » ، وهو احد جزعين في كتاب دولة دمشق في العهد العثماني ، ص ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ دمشق ١٩٤٩ .
- (١٣) المرجع السابق - ص ٩٣ .
- (١٤) المرجع السابق - ص ٢٤ .
- (١٥) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد » - ص ٣١٣ ، الشيخ احمد الرشيدى - « حسن الصفا والابتهاج » - ص ١٣٧ .
- (١٦) المرجع السابق - ص ٣٤٢ .
- (١٧) الفاسي - « د شفاء الغرام » - ص ٢٥٩ - ٢ .
- (١٨) عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد » - ص ٢٣٤ .
- (١٩) المرجع السابق - ص ٢٩٤ .
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٣٤١ .
- (٢١) (سيد عبد المجيد بكر) - « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » - ص ١٨٢ - ٢١١ سلسلة الكتاب الجامعي رقم ٦ - دار تهامة - جدة ١٩٨١ .

- (٢٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .
- (٢٣) ولاية دمشق ص ١١٠ .
- (٢٤) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٧٨ ح ٢ .
- (٢٥) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد » ص ٤٥٧ .
- (٢٦) النابلسي « الحقيقة والمجاز » ص ٤٣٨ .
- (٢٧) المرجع السابق ص ٤٨٢ .
- (٢٨) المرجع السابق ص ٤٨٣ .
- (٢٩) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٧٨ ح ٢ .
- (٣٠) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٢٠٠ .
- (٣١) رسلان بن يحيى القلاري « الوزراء الذين حكموا دمشق » ص ٧٧ من قطب ولاية دمشق .
- (٣٢) سيد عبدالمجيد بكر « الملاحم الجغرافية لدروب الحجيج » ص ١٨٠ .
- (٣٣) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٨٩ ح ٤ .
- (٣٤) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنتظمة » ص ٣١٠ .
- (٣٥) المرجع السابق ص ٢٩٨ .
- (٣٦) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٢٢ ح ٢ .
- (٣٧) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ١٣٢ .
- (٣٨) المرجع السابق ص ١٦٩ .
- (٣٩) المرجع السابق ص ١٦٩ .
- (٤٠) المرجع السابق ص ١٣٧ .
- (٤١) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنتظمة » ص ٢٥٨ .
- (٤٢) المرجع السابق ص ٣٠٤ .
- (٤٣) المرجع السابق ص ٣٤٣ .
- (٤٤) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
- (٤٥) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
- (٤٦) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٨٨ ح ٣ .
- (٤٧) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٤٥ ح ٢ .
- (٤٨) المقرئزي « كتاب السلوك » ص ١١٦٦ ح ٣ ق ٣ ، ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٧٢٣ ح ١ ق ٢ .
- (٤٩) قطب الدين محمد النهرواني « البرق اليماني في الفتح العثماني » ص ١٢١ إشراف حمد الجاسر . منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . الرياض / المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى ١٩٦٧ .
- (٥٠) اللواء / ابراهيم رفعت ياشا « مراة الحرمين » ص ٣٠٥ ح ٢ .
- (٥١) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنتظمة » ص ٤٤٨ .
- (٥٢) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٥١ ح ٢ .
- (٥٣) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد » ص ٣١٢ .
- (٥٤) المرجع السابق ص ٢٨٨ .
- (٥٥) المرجع السابق ص ٤٦٩ .
- (٥٦) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٣٥ ح ٢ .

- (٥٧) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٥٣٦ ح ١ ق ١ ، ٥٣٧ ح ١ ق ١ : الفاسي « شفاء الغرام » ص ٢٤٧ ح ٢ .
- (٥٨) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٢٣٨ ح ١ ق ٢ .
- (٥٩) المرجع السابق ص ٩٥ ح ٤ .
- (٦٠) العصامي المكتي « صمت النجوم العوالي » ص ١٨٣ ح ٤ .
- (٦١) د . ابراهيم شحاتة حسن ، اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٣٠٨ منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨١ .
- (٦٢) المرجع السابق ص ٣٠٩ .
- (٦٣) الجبرتي « عجائب الآثار » ص ٢٦٩ ح ٢ .
- (٦٤) د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » ص ٦٨ سلسلة تاريخ المصريين (٣٤) . الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ .
- (٦٥) الجبرتي « عجائب الآثار » ص ٥٥١ ح ٢ .
- (٦٦) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٤٧٢ ح ١ ق ١ .
- (٦٧) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٠٦ .
- (٦٨) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٦٢٤ ح ١ ق ٢ .
- (٦٩) المرجع السابق ص ٨٣ ح ٣ .
- (٧٠) الجبرتي « عجائب الآثار » ص ٣٣٥ ح ٣ .
- (٧١) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٣٤١ ح ١ ق ٢ .
- (٧٢) الجبرتي « عجائب الآثار » ص ٥١ ح ١ .
- (٧٣) المرجع السابق ص ٥٥ ح ٢ .
- (٧٤) د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » ص ٥٧ .
- (٧٥) المرجع السابق ص ٢٢٠ .
- (٧٦) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٢١١ ح ٣ ، كلوت بك . ، ملحة عامة الى مصر ، ص ٧٤ ح ٤ : د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » ص ٨٣ .
- (٧٧) المقرئزي « الذهب المسبوك » ص ١١٠ .
- (٧٨) المرجع السابق ص ١١١ .
- (٧٩) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٤٤ ح ٢ .
- (٨٠) المقرئزي « الذهب المسبوك » ص ١١٢ .
- (٨١) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٠٠ .
- (٨٢) الفلقشندي « صبح الاعلى » ص ٢٩٦ ح ٥ : المقرئزي « الذهب المسبوك » هامش ص ١١٣ .
- (٨٣) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٢٠ : ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٢٩ ح ٢ .
- (٨٤) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٣٢ .
- (٨٥) المرجع السابق ص ٣٠٩ ، ص ٣١٣ .
- (٨٦) العصامي المكتي « صمت النجوم العوالي » ص ٥٦٥ ح ٤ .
- (٨٧) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٣٥٣ ح ١ ق ٢ ، ٣٧٤ ح ١ ق ٢ ، ص ٦٣٣ ح ١ ق ٢ .

- (٨٨) المرجع السابق ص ١٦٨ ح ٤ .
- (٨٩) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٠٥ ح ٢ ، وقد ذكر هذه المعلومة كذلك سيد عبدالمجيد بكر في كتابه « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » ص ١٨٠ .
- (٩٠) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٢١٢ ح ٥ .
- (٩١) المرجع السابق ص ٢١٩ ح ٥ .
- (٩٢) السنجاري المكي . ورقة ٥٠ ح ٢ . مخطوطة من مكتبة الحرم المكي .
- (٩٣) د . حسين مجيب المصري « معجم الدولة العثمانية » ص ٣٠٦ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .
- (٩٤) سيد عبدالمجيد بكر « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » ص ١٨٠ .
- (٩٥) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٣٣٨ ح ١ ق ٢ ، صلاح الدين المنجد « دولة دمشق في العصر العثماني » ص ١ ، ص ٥٣ .
- (٩٦) سيد عبدالمجيد بكر « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » ص ١٨٠ .
- (٩٧) نعيم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ص ٢٦٣ . النشر د . بنيوتى . ف . خريستوبولس . اثينا ١٩٨٥ : اللواء ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٠٦ ح ٢ .
- (٩٨) المقرئى « الذهب المسبوك » ص ١١ .
- (٩٩) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٣٣١ ح ١ ق ١ .
- (١٠٠) الجبرتي « عجائب الآثار » ص ٣٠ ح ١ .
- (١٠١) المقرئى « خطط المقرئى » ص ٦٢٢ ح ١ .
- (١٠٢) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ١٧٩ ح ١ ق ١ .
- (١٠٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٨٩ .
- (١٠٤) المرجع السابق ص ١١٢ : اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٣٣ ح ٢ .
- (١٠٥) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد » ص ١١٥ .
- (١٠٦) المرجع السابق ص ١٢٤ .
- (١٠٧) القلقشندي « صبح الأعشى » ص ٤٤٣ ح ١٢ .
- (١٠٨) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ١٢٥ .
- (١٠٩) علماء الحملة الفرنسية « وصف مصر » - ص ٢٤٣ ج ٥ .
- (١١٠) إدوارد وليم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٦٥ .
- (١١١) المرجع السابق ص ٣٦٩ .
- (١١٢) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » بمجلة الفنون الشعبية ص ٩٨ العدد (٢٩) أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٨٩ .
- (١١٣) صفوت كمال « مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي » ص ٢٠٨ . وزارة الاعلام الكويت - الطبعة الثانية ١٩٧٣ .
- (١١٤) احمد تيمور باشا « الأمثال العامية » ص ٤١٢ ، ٥١٤ .
- (١١٥) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٣٨ ح ١ - دار التحرير - كتاب التحرير رقم (١٦٦) .
- (١١٦) الخطيب الجوهري « نزهة النفوس والأبدان » ص ٣٤٦ ح ٣ .
- (١١٧) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٨٥١ ح ٢ ق ٣ .

- (١١٨) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٢١٤ ح ٢ ق ١ ، ص ٢٥٠ ح ٢ ق ٣ ، ص ٦٩٦ ح ٣ ق ٢ ، ص ٨٣٣ ح ٤ ق ٢ .
- (١١٩) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٦٦٤ ح ٤ ق ٢ .
- (١٢٠) المرجع السابق ص ٨٣١ ح ٤ ق ٢ .
- (١٢١) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٢٨٨ ح ٤ .
- (١٢٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر القرائد المنظمة » ص ٢٨١ .
- (١٢٣) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٣٣١ ح ١ ق ١ .
- (١٢٤) المرجع السابق ص ٤٢١ ح ١ ق ١ .
- (١٢٥) المرجع السابق ص ٤٤٣ ح ١ ق ١ .
- (١٢٦) المرجع السابق ص ٤٥٢ ح ١ ق ١ .
- (١٢٧) المرجع السابق ص ٤٦٣ ح ١ ق ١ .
- (١٢٨) المرجع السابق ص ٤٠٩ ح ٤ .
- (١٢٩) المرجع السابق ص ٤٤١ ح ٤ .
- (١٣٠) المرجع السابق ص ٣٣٦ ح ١ ق ١ .
- (١٣١) المرجع السابق ص ٥١٤ ح ١ ق ٢ .
- (١٢٣) المرجع السابق ص ٢٩٠ ح ٢ ق ٢ .
- (١٣٣) المرجع السابق ص ٣١٤ ح ٢ ، ص ٣٢٠ ح ٢ ، ص ٣٩٣ ح ٢ ، ص ٤٠٤ ح ٢ ، ص ٥٩ ح ٤ .
- (١٣٤) المرجع السابق ص ٥٩ ح ٤ .
- (١٣٥) المرجع السابق ص ٦١ ح ٤ .
- (١٣٦) جاسنون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ١٢٦ . ترجمة د . مصطفى العبادى . كتاب اليوم . العدد (٣٠٨) مايو ١٩٩٠ .
- (١٣٧) محمد قنديل البقلى « صور من ادبنا الشعبى » ص ١٤٩ . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ .
- (١٣٨) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ١٩٢ ح ١ ق ٢ .
- (١٣٩) المرجع السابق ص ٢٥٤ ح ٤ .
- (١٤٠) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٤٩٧ ح ٣ ق ٢ .
- (١٤١) الجبرتى « عجائب الاثر » ص ٦٣٨ ح ١ .
- (١٤٢) المرجع السابق ص ٢٩١ ح ٢ .
- (١٤٣) المرجع السابق ص ٤٦٧ ح ٣ .
- (١٤٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ١٥٤ ح ٢ .
- (جبرار دى نرفال « رحلة الى الشرق » ص ٢٢٢ ح ١ . ترجمة د . كوثر عبدالسلام . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .
- (١٤٦) مصطفى المحمل موقعها امام محطة سكك حديد القلعة سابقا ، والمقام مكانها سنترال القلعة ، بالإضافة الى مبان اخرى مجاورة ، مثل مبنى الحزب الوطنى للخليفة ، ومبرة مصطفى كامل ، ومدرسة السيدة عائشة والساحة الشعبية وحتى خزان مياه السيدة عائشة وحديقته .
- (١٤٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، « مرآة الحرمين » ص ٩ ح ١ .
- (١٤٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ١٣ ح ١ .
- (١٤٩) ادوارد وليم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٧١ .
- (١٥٠) جبرار دى نرفال « رحلة الى الشرق » ص ٢٢٤ ح ١ .

- (١٥١) محمد ليبي البنتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .
- (١٥٢) ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » ص ٢٤٥ ح ١١ . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . بدون تاريخ .
- (١٥٣) محمد ليبي البنتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .
- (١٥٤) المقرئى ، كتاب السلوك ، ص ١١٩٣ ح ٤ ق ٣ .
- (١٥٥) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ، سر الفرائد المنظمة ، ص ٥٣٣ .
- (١٥٦) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ، ص ٣٦٠ . مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثانية .
- (١٥٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ١١ ح ١ .
- (١٥٨) هذا رأى للأستاذ (محمد مصطفى نجلى) مدير ادارة الكسوة الشريفة السابق . وقد ادلى لى به فى حديث له معى فى بيته بالمهندسين بالقاهرة فى ١٩٨٨/٨/٥ .
- (١٥٩) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ، ص ٣٦٠ .
- (١٦٠) روى لنا هذه الحادثة الأستاذ (كامل يوسف اصيل) بدار الكسوة الشريفة يوم ١٩٨٨/٨/٣ بالقاهرة .
- (١٦١) روى لنا ذلك الأستاذ (محمد مصطفى نجلى) مدير ادارة الكسوة السابق .
- (١٦٢) الجبريتى ، عجائب الآثار ، ص ٥١ ح ١ .
- (١٦٣) د . يونان لبيب رزق ، ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ » ، ص ٥٧ سلسلة تاريخ المصريين رقم (٣٤) الهيئة المصرية العامة للمكتبات ١٩٩٠ .
- (١٦٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .
- (١٦٥) ادوارد ولیم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٧٢ .
- (١٦٦) محمد ليبي البنتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٥ .
- (١٦٧) ادوارد ولیم لين « المصريون المحدثون » ، ص ٣٧٠ ، ٤٠٧ .
- (١٦٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٣٥ ح ٢ .
- (١٦٩) محمد ليبي البنتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٢ .
- (١٧٠) عبدالله بن اسعد اليافعى « روض الرياضين فى حكايات الصالحين » ، ص ١٣٥ . مؤسسة عماد الدين . قبرص . بدون تاريخ .
- (١٧١) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٢٩٧ ح ٣ .
- (١٧٢) المرجع السابق ص ٤٤١ ح ٤ .
- (١٧٣) المرجع السابق ص ٣٧٩ ح ٥ .
- (١٧٤) على باشا مبارك « الخطط التوفيقية » ص ٣٣ ح ١٤ . الطبعة الأولى . مطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر ١٣٠٥ هجرية .
- (١٧٥) المرجع السابق ص ٣٠ ح ١٤ .
- (١٧٦) الجبريتى ، عجائب الآثار ، ص ٢٧٨ ح ١ .
- (١٧٧) المرجع السابق ص ٢٥٨ ح ٢ .
- (١٧٨) محمد ليبي البنتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٥ ، اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ١٤٣ ح ٢ .
- (١٧٩) وداد حامد . مقالة بمجلة الهلال ص ٦٦ . عدد اغسطس ١٩٨٨ . دار الهلال بالقاهرة .



فنون الأغاني والموسيقى الشعبية في موكب

قوافل الحج

نبعت حاجة الإنسان إلى الموسيقى والكلمة المنعّمة من أجل السمو بالأحاسيس والمشاعر كهدف علم متسع ، وقد ينحصر هذا الهدف في دائرة ضيقة مجالها التسرية والتسلية إذا ما واجه الإنسان بعض المشاق أو الصعاب في رحلته اليومية .

وفي عالم العقائد كان للموسيقى أهمية كبرى ، تتبدى إيجابيا وسلبيا في آن واحد ، فمن العقائد - كما يقول الدكتور (فؤاد زكريا) - ما كانت تستعين بالموسيقى في بث الإيمان بها في نفوس الناس ^(١) . وسواء أكان الهدف من الأغاني والموسيقى هو السمو بالأحاسيس والمشاعر ، أو التسرية والتسلية ، أو بث الإيمان في النفوس ، فإنهما في أي حالة من هذه الحالات كانتا ضرورتين من ضرورات النوازع البشرية في رحلة الاغتنال من الذنوب عند الذهاب إلى بيت الله الحرام أو عند المجيء منه وحط الرجال . ولقد نشأ منذ القدم فن في الغناء العربي استوجبه وحشة الطريق ، عبر رمال مفاوز الصحراء . هذا الفن العربي الغنائي القديم هو فن « الخُداء » ، حيث كان الإنسان العربي في سالف العصور يمتطي جملة ، أو يسير به في رفقة طريق شاق ، ولا يجد أمامه وسيلة لتقليل النصب والمشاق سوى في تغلمات منداحة ، تطوف معه الأفق الممتدة الأطراف حاديا أو شاديا بها للجمال الذي يمتطيه أو يلزمه المسير وكذلك لنفسه .

يقول (الدكتور حسين نصار) عن فن الخُداء : « إذا كنا لانزال نرى راكب الجمال أو الناقة يشغل وقته في رحلته متغنيا ، فنحن على يقين أن هذا الراكب كان يفعل ذلك منذ ركب في التاريخ . فالخُداء - فيما يقال - أقدم أنواع الشعر والغناء التي توصل إليها العربي » ^(٢) .

وقيل إن أول من توصل إلى فن « الخُداء » هو (مضر بن نزار) ، وذلك أنه سقط من بعيره فاندقت يده وتفرقت إبله ، فجعل يقول : « يايداه يايداه » . وكان حلقه حسن الصوت فاجتمعت إبله ، فحدث العرب على هذا المثال ^(٣) . ولقد ورث الاسلام هذا الميراث العربي القديم لفن « الخُداء » ، ولأنه رآه لازما لحياة الإنسان العربي ابن البادية العربية فقد تعهده بالرعاية والاهتمام في كل مناسبة يعن له إبراز تلك الرعاية وذاك الاهتمام .

ومما يذكر في هذا الشأن أن الرسول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - طلب مداحه (حسان بن ثابت) في سفر له لكي يحدو ، فجعل ينشر ويصفي إليه رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - ويستمتع ، فمازال يسمع إليه وهو سائق راحلته حتى
كاد رأس راحلته يمس الورك ، حتى قرغ من تشيده . فقال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم : لهذا أشد عليهم من وقع النبل .⁽⁴⁾

وحقيقة إن الأبل تنسى نفسها مع أغاني ونغمات الحادى ، حتى يكاد أن يقتلها
جهد المسير المضى ، ولذا طلب الرسول الكريم الرحمة للابل ، خوفا من استمرار
سماعها لحدو الحادى لها في الصحراء القفار فينسيها ذلك ألم المسير ذى النصب
والتعب الشديدين عليها .

وقيل إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دخل مكة في العمرة ، التي قام
بها بعد صلح الحديبية بعام ، دخلها و (عبدالله بن رواحة) أخذاً بخطام
ناقته ، وهو يقول :⁽⁵⁾

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله
اعرف حق الله في قبوله

ولم يكن غريبا على الحضارة العربية أن ينبغ فيها المغنون القدماء ، الذين
كانوا يغنون في طرق قوافل الحج الإسلامية ، سواء عن طريق نغمات الحداء
أو عن طريق نغمات شعرية أخرى عرفها الإنسان العربي ابن حضارة البوادي
والمدن .

ولعل أشهر ما اشتهر من هؤلاء المغنين العرب كان (عبيد بن سريج) مولى
بنى نوفل بن عبدمناف ، والذى ولد في خلافة (عمر بن الخطاب) وتوفي في خلافة
(هشام بن عبدالمك) وقت الدولة الأموية ، وكذلك (حنين بن بلوع الحادى) في
أوائل المائة الثانية من العام الهجرى و (سالم الحادى) ، و (أبو المحكم
عوف) و (مخارق بن يحيى الجزار) مولى الرشيد في عصر الدولة العباسية .
كان أولهم (عبيد بن سريج) يصاحب الشاعر (عمر بن أبى ربيعة) ،
ويغنى له وللآخرين بعض أشعاره . وذات مرة قال (عمر بن أبى ربيعة) له :
يا أبا يحيى ، إنى تفكرت في رجوعنا مع العشية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار
وجلبة الحاج فنقل على ، فهل لك أن نروح رواحا طيبا معتزلا ، فنرى فيه من راح
صادرا إلى المدينة من أهلها ونرى أهل العراق وأهل الشام وتتعلل في عشتنا
وليتنا ونستريح ، قال : وأين ذلك يا أبا الخطاب ؟ قال : على كتيب أبى شجرة
المشرف على بطن يابج بين منى وسرف ، فننصر مرور الحاج بنا ونراهم
ولا يرونا . قال (ابن سريج) : طيب والله ياسيدى ، فدعا بعض خدمه فقال :
اذهبوا إلى الدار بمكة ، فاعملوا لنا سفرة واحملوها مع شراب إلى الكتيب ، حتى
إذا أبردنا ورمينا الجمرة صرنا إليكم . قال : والكتيب على خمسة أميال من مكة
مشرف على طريق المدينة وطريق الشام وطريق العراق ، وهو كتيب شامخ مستدق

أعلاه منفرد عن الكثبان - فصارا إليه فأكلا وشربا ، فلما انتشيا أخذ
(ابن سريج) الدف فنقره وجعل يغنى وهم ينتظرون إلى الحاج ، فلما أمسيا رفع
(ابن سريج) صوته يغنى في الشعر الذي قاله عمر ، فسمعه الركبان فجعلوا
يصيحون به : يا صاحب الصوت - أما تتقى الله ! قد حبست الناس عن مناسكهم !
فيسكت قليلا ، حتى إذا مضوا رفع صوته وقد أخذ فيه الشراب فيقف آخرون ، إلى
أن مرت قطعة من الليل ، فوقف عليه في الليل رجل على فرس عتيق عربي مرح
مستن ، فهو كأنه ثمل ، حتى وقف بأصل الكتيب وثنى رجله على قريوس سرجه ،
ثم نادى : يا صاحب الصوت ، أيسهل عليك أن ترد شيئا مما سمعته ؟ قال : نعم
ونعمة عين ، فايها تريد ؟ قال : تعيد علي :

الا يا غراب البين مالك كلما نعتت بفقدان علي تحوم
أبا البين من عفراء أنت مخبري عذمتك من طير فانت مشوم
قال : والغناء لابن سريج - فاعاده ، ثم قال له (ابن سريج) : أزدد إن
شئت ، فقال : عننى :

امسلم إنى يابن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا قمر الأرض
شكرتك إن الشكر جبل من التقى وما كل من أقرضته نعمة يقضى
ونوهت لي بإسمى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض
فغناه ، فقال له : الثالث ولا أستزيدك ، فقال : قل ما شئت ، فقال : تغنيني :
يادار أقوت بالجزع فالكتب بين مسيل العذيب فالرحب
لم تتقنع بفضل مؤثرها دعد ولم تسق دعد في القلب
فغناه ، فقال له (ابن سريج) : أبقيت لك حاجة ؟ قال : نعم ، فنزل إلى
لاخاطبك شفاهما بما أريد ، فقال له (عمر) : أنزل إليه ، فنزل ، فقال له : لولا أنى
أريد وداع الكعبة وقد تقدمنى ثقل وغلمانى لأطلت المقام معك ولنزلت عندكم ،
ولكنى أخاف أن يفضحنى الصبح ، ولو كان ثقلى معى لما رضيت لك بالهوينى ،
ولكن خذ خلتي هذه وخاتمي ولا تخدع عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة
دينار .^(١)

وسمع غناء (ابن سريج) ذات مرة عند جبل بمنى غداة النفر والارتحال وهو
ينشد :^(٢)

جددى الوصل باقريب وجودى لمحب فراقه قد إنا
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزما
قيل : إن كل مضرب وخياء سمع الغناء صار يرسف في الحنين والآنين .. أما
المغنى العربى (حنين بن بلوع الحيرى) فقد عمر طويلا غناؤه بين العرب ،
حيث قد وصل من العمر نحو مائة وسبع سنين عاشها بينهم ومات .
ومما يروى عنه (أبو الفرج الأصفهاني) أن قال : « حج (هشام
بن عبد الملك) وعديله - شخص يوضع في الجنب الآخر للمحمل ليتوازن الحمل

فوق ظهر الجمل - (الأبرش الكلبي) ، فوقف له (حنين) بظهر الكوفة ومعه عوده وزامره ، وعليه قلنسوة طويلة ، فلما مر به (هشام) عرض له ، فقال : من هذا ؟ فقيل : حنين ، فأمر به فحمل في حمل على جمل وعديله زامره ، وسير به أمامه وهو يتغنى :

أمن سلمى بظهر الكو فة الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على جفون الصقل الخلل
فأمر له (هشام) بمائتي دينار ، وللزامر بمائة ، وقيل : إنه غنى هشاما :
صاح هل أبصرت بالخيب تين من أسماء نارا
موهنا شبت لعينيك ولم توقد نهارا
كتلال البرق في المز ن إذا البرق استطارا
أذكرتني الوصل من سعدى وأياما قصارا
فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل من النجف ، فأمر له بمائتي دينار . وقيل ذات مرة لحنين : أنت تغنى منذ نحو خمسين سنة ما تركت بكريم مالا ولا دارا ولا عقارا إلا أتيت عليه ! ، فقال : يا بئى أنتم ، إنما هي أنفاسي أقسمها بين الناس ، أفقوموني أن أغلي بها الثمن !

وخلال موسم الحج ، والناس تشتري وتبيع برز شيخ أبيض الرأس واللحية على بغلة شهباء ، فقال يسأل : أين بيت أبي موسى ؟ فدلوه إليه ، فمضى حتى انتهى إلى الغل من بيت أبي موسى ، ثم راح يغنى

أسعديني بدمعة أسراب من دموع كثيرة التسكاب
إن أهل الحصاب قد تركوني مغرما مولعا بأهل الحصاب
فارقوني وقد علمت يقينا ما لمن ذاق ميتة من إياب
سكنوا الجزع بيت أبي مو سى إلى النخل من صفى الشباب^(٩)
كم بذاك الحجون من حى صدق وكهول أعفة وشباب
أهل بيت تتابعوا للمنايا ما على الموت بعدهم من عتاب
فلى الويل بعدهم وعليهم صرت فردا وملنى أصحابى

ثم صرف الرجل بغلته وذهب ، فقتبعه بعضهم حتى أدركوه ، فسألوه من هو ، فقال : أنا حنين بن بلوع ، وأنا رجل جمال أكرى الإبل ، ثم مضى .^(١٠)

وفي عصر الدولة العباسية ذكر الرواة أن (أبوجعفر المنصور) الخليفة العباسي حدا به في بعض حجاته (سالم الحادى) ، وكان ينشده في طريقه قائلا :
أبلج بين حاجبيه نوره إذا تغدى رلعت ستوره
يزينه حياؤه وخيره ومسكه يشوبه كافوره

فطرب الخليفة العباسي (أبوجعفر المنصور) حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال لأحد رجاله ويدعى (ربيع) : يارببع اعطه نصف درهم ، فقال (سالم) : لا غير يا أمير المؤمنين ؟ والله لقد حدوت بهشام بن عبد الملك بن مروان فأمر لى

بثلاثين ألف درهم ، فقال له (المنصور) : ما كان له ان يعطيك من بيت مال المسلمين ما ذكرت ، ثم التفت الخليفة العباسي إلى (ربيع) وقال له : يا ربيع . وكل به من يستخرج هذا المال منه ! . قال (ربيع) : فما زلت أسفر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به في خروجه وبقوله بغير مؤونة ، وكان (سالم) هذا تورد له الأبل بعد الثمان والتسع والعشر من المسافات المقننة لها للراحة ، فيحدو لها ، فيلهيها حدوه عن ورود الماء .^(١١)

وروى (أبوالمحكم عوف بن الحكم الشيباني) فقال : « كانت لي وفادة على (عبدالله بن طاهر) إلى خراسان ، فصلوقته يريد المسير إلى الحج ، فعادته في العمارة من مرور إلى الري ، فلما قاربنا الري سمع (عبدالله بن طاهر) ورشانا في بعض الأغصان يصيح ، فاشتد (عبدالله) يقول :

ألا يحامم إليك إليك حاضر

وغصنك فياس فقيم تنوح
أفك لا تفتح من غير شيء فإنني
بكيت زمانا والفوائد صحيح
ولوعا فشطت غربة دار زينب

فها أنا أبكي والفؤاد جريح
ثم قال : يا عوف أجز هذا ، فقال (عوف) في الحال :

أفي كل عام غربة ونزوح
أما للسرى من غربة فتريح
لقد طلع البين المشت ركاثي
فهل أرين البين وهو طليح
وارقني بالري نوح حماسة

فشبحت وذو الشجو القديم ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمة
ونحت واسراب الدموع ينفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما
ومن دون أفراخي مهامه فيح
عسى جود عبدالله أن يعكس النوى
فتضحى عصا الأسفار وهي طريح

فإن الفتى يدنى الفتى من صديقه
وعدم الفتى بالمقترين نزوح
قال : فأخرج رأسه من العمارة ، وقال : ياسائق . ألق الزمام . فالتفت
ووقف الحاج ، ثم دعا صاحب بيت ماله ، فقال له : كم يضم ملكنا في هذا الوقت ؟
فقال : ستين ألف دينار . فقال : إدفعها إلى (عوف) . ثم قال : يا عوف ، لقد

القيت عصا منظومك فأرجع من حيث جئت ، قال : فأقبل خاصة (عبدالله) عليه يلومونه ، ويقولون : اتجيز أيها الأمير شاعرا في مثل هذا الموضع بستين ألف دينار ولا تملك سواها ؟ فقال : إليكم عني ، فإني استحييت من الكرم أن يسير جملي و (عوف) يقول « عسى جود عبدالله » وفي ملكي شيء لا ينفرد به . ورجع (عوف) إلى وطنه ، فسئل عن حاله ، فقال ، رجعت من عند عبدالله بالغنى ، والراحة من النوى .^(١٢)

وكان من أشهر المغنين (مخارق بن يحيى الجزار) ، والذي وصفه الشاعر العربي الزاهد (أبو العتاهية) حين سمع الغناء من حنجرته بقوله : « يادواء المجاني . لقد رفقت حتى كدت أحسوك ، فلو كان الغناء طعاما لكان غناؤك أدما . ولو كان شرابا لكان ماء الحياة .. »^(١٣)

قال عنه (هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات) : « أنه خرج ذات مرة إلى باب الكناسة بمدينة السلام ، والناس يرتحلون للخروج إلى مكة ، فنظر إليهم واجتماعهم وأزحامهم ، فقال لأصحابه الذين خرجوا معه : قد جاء في الخبر أن (ابن سريج) كان يتغنى في أيام الحج ، والناس يبنون فيستوقفهم بغنائه ، وساستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهمهم جميعا ، ليتعلموا أنه لم يكن ليفضلني إلا بصنعة دون صوته ، ثم اندفع يؤذن ، فاستوقف أولئك الخلق وأستلهاهم ، حتى جعلت المحامل يغشى بعضهم بعضا ، وهو كالأعمى عنها لما خامر قلبه من الطرب لحسن ما يسمع . »^(١٤)

وقال (هرون بن مخارق) عن أبيه : أن الخليفة العباسي (المأمون) سأله لما قدم مكة عن أحدث صوت صنعه ، فغناه :
أقبلت تحصب الجمار وأقبلت لرمي الجمار من عرفات
ليتني كنت في الجمار أنا المحصب من كف زينب حصيات
قال : فضحك (المأمون) ، ثم قال : لعمرى إن هذا لأحدث ما صنعت ، ولقد قنعت ببسير ، وما أظن (بهار) - زوجته - كانت تبخل عليك بأن تحصبك بحصاة كما تحصب الجمار . واستعاده الصوت مرات .^(١٥)

وقيل أن رجلا حج ذات مرة مع المغنى (مخارق) ، فلما قضى الحج وعادا ، قال له الرجل في بعض طريقه : بحق عليك غننى صوتا ، فغناه :
رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا

ففاضت لروعات الفراق عيون
فرقع الرجل يده إلى السماء وقال : اللهم إني أشهدك أني قد وهبت حجتى له ..^(١٦)

ما من شك كان لأرباب حرفة الغناء والانشاد العربي القديم في وقت قدوم أو رجوع قوافل الحج كل الإجلال والتقدير ، سواء أكان هذا نابعا من ولاة الأمور أو من العامة من الناس ، وسواء أكان أيضا هدف هذا الغناء أو الانشاد هو إثارة

الشجون والمهج على فراق الأحبة أو الأهل والديار ، أو غير ذلك من المقاصد الغنائية الشجية .

ولقد اهتم بإبراز صورة المنشد بعض الأدباء الذين كتبوا في أدب المقامات ، مثل (الحريري) (٤٤٦ - ٥١٦) ، والذي وقف عند المنشد المكذ الجوال (أبي زيد السروجي) كما في المقامة (الرملية) في أسلوب جمع كلمات منتورة إلى جوار شعر منشد ، وهو يقف أمام جمع من الحبيج بالشام ، يتأهب للرحيل إلى مكة ، فيقول في البداية بأسلوب نثرى لهم : « أتخالون أن الحج هو اختيار الرواحل وقطع المراحل واتخاذ المحامل وإيقاد الزوامل ؟ أم تظنون أن النسك هو نضو الأردن وإنضاء الأبدان ومفارقة الولدان والتثنائي عن البلدان؟ » (١٧)

هنا لا يقف (الحريري) مكتوف اليدين أمام صورة يستنكرها من الأعماق ، بل يخط ملامح الصورة الحقيقية التي تتناسب وجوهر رسالة الذهاب إلى بيت الله الحرام ، من خلال إنشاد (أبي زيد السروجي) ، والذي قال عنه : « .. ثم رفع عقيرته بصوت أسمع الصم وكاد يزعزع الجبال الشم وأنشد : (١٨)

ما الحج سيرك تاوييا وإدلاجاً (١٩)
ولا اعتيامك (٢٠) أجمالاً (٢١) واحداً (٢٢)

الحج أن تقصد البيت الحرام على
تجريدك الحج لا تقضى به حاجاً (٢٣)
وتمتطى كاهل الإنصاف متخذاً

ردع الهوى هادياً (٢٤) والحق منهاجاً
وان تواسى ما أوتيت مقدرة
من مد كفا إلى جدواك محتاجاً .
فهذه إن حوتها حجة كملت

وإن خلا الحج منها كان إخراجاً (٢٥)
خشب المرائين غبنا أنهم غرسوا
وماجنوا ولقوا كدأ وإزعاجاً
وانهم حُرِمُوا أجراً ومحمد

والحموا عرضهم من عاب أوهاجى
أخى فابغ بما تبديه من قرب
وجه المهيمن ولأجا وخزأجا
فليس تخفى على الرحمن خافية

إن اخلص العبد في الطاعات أو داجى (٢٦)
وبادر الموت بالحسنى تقدمها

فما ينهنه (٢٧) داعى الموت ان فلجاً (٢٨)

واقن التواضع خلقا لا تزايله
 عنك الليالي ولو البستك التاجا
 ولا تشم كل خال لاح بارقه
 ولو تراءى هتون السكب (٢٩) ثجاجا (٣٠)
 ما كل داع باهل ان يصاخ له
 كم قد اصم بنعى بعض من ناجى
 وما اللبيب سوى من بات مقتنعا
 ببلغة تدرج الايام (٣١) إدراجا
 فكل كثير إلى قل مغبته
 وكل ناز إلى لين (٣٢) وإن هاجا (٣٣)

وينشد (أبو زيد السروجي) في ختام هذه المقامة امام جمع الحجيج الذي سار
 الهويثا امام ناظريه فوق الكتبان الرملية ، على ايقاع دقات كفيه طريا : (٣٤)
 ليس من زار راكبا مثل ساع على القدم
 لا ولا خادم اطا ع كعاص من الخدم
 كيف يقوم يستوى سعى بلان ومن هدم
 سيقم المفرطو ن غدا ماتم الندم
 ويقول الذي تقر ب طوبى لمن خدم
 ويك يانفس قدمى صالحا عند ذى القدم
 وازدرى زخرف الحيا ة فوجدانه عدم
 واذكرى مصرع الحما م إذا خطيه صدم
 واندبى فعلك القبيح وسحى له بدم
 واد بغيه بتوبة قبل ان يحلم الأدم
 فعسى الله ان يقيقك السعير الذى احتدم
 يوم لا عثرة تقا ل ولا ينفع السدم

وفي مصر خلال عصر سلاطين المماليك لعبت الأشعار والأزجال والأغاني
 والموسيقى الشعبية دورا كبيرا في تشكيل وجدان الناس فيها ، خاصة انها حملت
 الأحداث التاريخية معها فيما يتعلق برحلات قوافل الحج التي كانت تروح وتغدو
 قادمة من الأراضى الحجازية .

ومن تلك الأحداث التاريخية الهامة ما حدث في عام ٦٧٧ هجرية أيام سلطنة
 السلطان (السعيد محمد بن الظاهر بيبرس) المملوكي .

ذكر لنا (ابن ايس) في تاريخه عن هذا السلطان المملوكي فقال : « .. ومن
 الحوادث في أيامه أن العرب خرجوا على الحجاج في أثناء الطريق ، ونهبوا جميع
 أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وكان أمير المحمل في تلك السنة ، الأمير

(بورى) ، فلما جرى ذلك هرب ، وفى ذلك يقول المعمر (٣٥)
لقد أخذوا الحجاج فى عام سبعة وسبعين حقا بعد نهب تمكنا
وصار أمير الركاب بورى هاربا ولولا اختفاه صار بورى مكفنا
وهنا يبرز دور الشاعر الهام فى مدى اظهار الروح الفكهة والتهكم على حكامه من
خلال هذا الموقف ، فالمعروف فى مصر أن سمك (البورى) المملح يكفن فى عدة
مناطق ويوضع فى الرمال مع الملح حتى يتم نضجه فيستخرج عندئذ ويؤكل
لحمه ، ولا يغيب عن البال أقران تلك الصورة بصورة أمير المحمل (بورى) إذا
كان قدر له الله أن يموت فى تلك الحادثة التاريخية ويدرج فى كفن الموت . !
وفى حوادث سنة ٧١٣ هجرية ذكر لنا (ابن اياس) أن السلطان المملوكى
(الناصر محمد بن قلاوون) أثناء عودته من حجته الأولى استقبلته المغانى فى
أثناء دخوله القاهرة مع من استقبله فى موكبه من القضاة الشرعيين الأربعة ،
وكبار الحكام وعامة الناس (٣٦)

ولم ينس (ابن اياس) أن يذكر لنا حادثة طريفة فى زجل عامى نظمه أحد
الزجالين فى فيل يدعى (مرزوق) كان يطاف به مع موكب المحمل ، وكان هذا الفيل
لسوء حظه أن أخرجه غلمان السلطان (الناصر فرج بن الظاهر برقوق)
المملوكى ، ليسيروا به ، فتوجهوا به إلى نحو (بولاق) ، من الطريق التى تطل
على قنطرة باب البحر ، فوقع هناك ومات وسط فرجة العامة عليه ، وقيل فى هذا
الزجل الذى حمل طرفه التهكم من تلك الحادثة التى وقعت فى ثانى أيام شهر
شعبان سنة ٨٠٤ هجرية (٣٧)

تعا اسمعوا ياناس الى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة
لما افلسوا غلمان الفيل راموا الحراف
خدوه وراحوا صوب بولاق يجيبوا المطاف
راوا شويخ من اهل الله ما فيه خلاف
جم ياخذوا شىء منه بالزنطرة
دعا على الفيل اتقنطر فى القنطرة
فقلت له يافيل مرزوق يانسود دغوش
اين حرمتك بين العالم وانت نهوش
وكنت يافيل السلطان زين الوحوش
وكنت بالاعجاب تزهو فى المخطرة
وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطرة
والفيل لسان حاله ناطق للناس يقول
كم كنت دور فى الزفات فوقى طبول

وكنـت دور في المحمل ولى قبول
كنـت عروسه حين تجلى في منظره
واليوم كان آخر مشى في القنطرة

لم يترك أبناء الشعب المصرى فرصة لذهاب أو عودة قوافل المحمل المصرى
إلا واستقبلوا أمراء المحمل بما يناسب ظلمهم الذى انقل كاهلهم ، وكان أوضح
مثال لذلك يوم استقبال المحمل العائد من الأراضى الحجازية فى ربيع الأول
سنة ٩٠٩ هجرية ، يومها زفوا أمير المحمل (الأتابكى قيت الرجبي) قائلين :^(٣٨)

حججت البيت لبيتك لا تحج
فظلمك قد غشى فى الناس صج
حججت وكان فوقك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

وبعد نحو شهر أربعة من تلك الحادثة استقبل أبناء الشعب ذهاب محمل
السلطان (الفورى) فى طوافه الرجبي قبل الذهاب لإداء العمرة باغنية تحمل
مضمونا عميقا يكشف عن جوهر هذا الشعب ، هذه الأغنية تقول :^(٣٩)

بيع اللصاف والطراحة
حتى أرى ذى الرماحة
بيع اللصاف ذى المحمل
حتى أرى ذا المحمل

فهذا الشعب الذى يقول ذلك ليس إلا محب منوله فى معبد عقائده الدينية
الشعبية ، حتى ولو أدى به ذلك إلى بيع ما يلتحف به من البرد ولو كان ثميناً
أو عزيزاً ، فمجرد رؤية المحمل وهو خلو الوفاض من أسباب عيشه الضرورية
بركة لا تعد لها بركة !..

كان موكب المحمل فى العصر المملوكى فى مصر يحمل من الموروث الشعبى
العربى القديم جماعة حدادة الأبل والمغنيين أو المنشدين أو ما اصطلاح على
تسميتهم بالمغانى عند مؤرخى هذا العصر .

وظهر ذلك واضحا فى محمل (خوند بركة) أم السلطان (الأشرف شعبان
ابن قلاوون) سنة ٧٧١ هـ ، وفى محمل (خوند فاطمة) زوجة السلطان
(الأشرف قايتباى) سنة ٨٧٩ هـ ، وفى هذا المحمل الأخير ظهر اسم بعض المغنين
والحدادة ، وإن طمست تماما الأغاني التى كانوا يتغنون بها .

يقول عن موكب هذا المحمل (ابن ايلس) واصفا محمل السلطنة : « ومشت
قدام محفتها بالرملة جميع أرباب الدولة ، وهم : كاتب السر ، وناظر الجيش ،
وناظر الخاص ، وغير ذلك من المباشرين ، ومشى الزمام ، ومقدم الممالك ، وأعيان
الخدام بأيديهم العصى ، وقدامها من الحدادة أربعة ، منهم : (ابراهيم بن
الجندى) المغنى ، و (ابوالفوز) الواعظ ، وغير ذلك^(٤٠) »

ومن الآلات الموسيقية التي كانت تصاحب موكب المحمل (الكوسات) . وهي التي ذكرت عند وصف محمل (خوند طغاي) زوجة السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) سنة ٧٢١ هجرية ، ومحمل (خوند بركة) والددة السلطان (الأشرف شعبان) سنة ٧٦٤ هجرية^(٤١)

هذه الكوسات يصفها (القلقشندي) قائلا : « هي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق أحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص ، ويتولى إيقاع ذلك الكوسي^(٤٢) .

وانفرد استقبال عودة محمل (خوند فاطمة) زوجة السلطان (الأشرف قايتباي) سنة ٨٨٠ هجرية باستخدام المغانى للطارات أى الدفوف^(٤٣) .
وأما في العصر العثماني فقد بدأت الزمور الى جوار الطبول تدخل في موكب المحمل المصري ، كما روى لنا (الجبرتي) في أعوام ١٢١٩ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ هجرية ، وفي هذا العام الأخير ظهرت الجوقات في احتفاليات المحمل المصري تؤدي هي الأخرى دورا لها في المناسبة^(٤٤) .

وبسبب هذه الطبول والزمور حدثت أزمة بين الوهابيين في الأراضى الحجازية وحجاج المحمل المصري في سنة ١٢٢٢ هجرية ، والتي قال عنها (الجبرتي) في تاريخه : « .. وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر ، وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وأن (مشكور الوهابي) وصل إلى مكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر (مصطفى جاويش) أمير الركب المصري ، وقال له : ما هذه العويدات والطبول التي معكم يعني بالعويدات المحمل ، فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم ، فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام وإن أتيت به أحرقتك^(٤٥) »
ولم يكن اعتراض الوهابيين على عادات المحمل المصري فقط ، بل شمل ذلك أيضا المحمل الشامي بطبله وزمره^(٤٦) .

وفي عصر (محمد علي) استمرت الموسيقى والانشيد والأغاني تؤدي دورها في موكب المحمل المصري ، للاحتفاء به والابتهاج عند استقبله .
كان الأهالي يخرجون لملاقة المحمل القادم من الحج وفي صحبتهم الآلات الموسيقية بالطبول والزمور عند (بركة الحاج) قبل دخولهم الى القاهرة ، كما قال واصفا ذلك (انوار وليم لين) ، أما (جبرار دى نرفال) ، فقد ذكر مع الآلات الموسيقية ابواقا وإن لم يحدد نوعها^(٤٧) .

وذكر (لين) ضمن ما ذكر في وصفه موكب المحمل أن : « ظهر عدة رجال راكبين الجمال ، يضرب كل منهم زوجا من النقارات مربوطا بمقدم السرج^(٤٨) »
هذان الزوجان من النقارات قال عنهما : « وهما من النحاس الأحمر ، ولا يختلفان في الشكل ، فهما على هيئة ثلثي دائرة تقريبا ، ولكنهما يختلفان في السعة . فالأكبر قطره عند السطح المستوى قدمان تقريبا ، والآخر قدم ونصف .

وهما يحملان على جمل ، ويربطان في مقدم السرج حيث يجلس الضارب والطبل الأكبر يوضع على اليمين»^(٤٩)

ولقد وصف (جيراردى نرفال) حملة الدفوف في موكب المحمل الذى رآه ، قائلا : « كانت الجمال الأولى تحمل قارعى دفوف من الشبان على الأزرع ، وكانوا يرفعون عصاهم المذهبة ، ثم يتركونها تسقط وسط باقة من الرايات المرفرفة المصفوفة حول البردعة»^(٥٠)

وكان غناء العامة وأناشيدهم في موكب المحمل المصرى يشكل عنصرا هاما في الاهتمام بالاحتفال بهذه المناسبة . فمنهم طائفة (الدراويش) ، الذين كانوا « يحركون رعوسهم من جانب إلى آخر ، ويرددون اسم الله . وكان مع هؤلاء عدة حمالين وسقائين وكناسين وغيرهم ، وكلن بعضهم يصيح (عرفات .. يا الله) و (الله الله .. بالسلامة)»^(٥١)

وأضاف (نرفال) وجود العوالم في الموكب الذى وصفه في رحلته إلى مصر ، ووصفهن بأنهن : « مجموعات من العوالم قد انضمت الى القافلة ، وأخذت تشد مع الجميع أناشيدهم الطويلة الصادرة من الحنجرة ، غير خائفات من إبداء وجوههن السافرة ، بما فيها من وشم أزرق واحمر وانوفهن ذات الحلقات الكبيرة»^(٥٢)

وعند مطلع القرن العشرين وقف بعض الحجاج المصريين على نتف من الأغاني والموسيقا المصاحبتين للمحمل المصرى ، وكذلك بعض من موسيقا وأغاني الأعراب في الأراضى الحجازية عند قدوم المحمل المصرى إليهم . ومن هؤلاء الحجاج اللواء (ابراهيم رفعت باشا) و (محمد لبيب البقونى) . ومما لاحظته الأول أن الأعراب في بلدة (الحمرة) في الطريق من (ينبع) إلى (المدينة المنورة) كانوا يحدون بإبل الحجيج ، وهم يتشدون قائلين :^(٥٣)

حفت ولا هزت اطراف الجاعد^(٥٤)

يابعد مسراحك على الى قاعد

نبيع بما باعوا ونشترى بما شروا

ولا غبن إلا في النضا والحلايل^(٥٥)

وكان الحجاج المصريون في طريقهم يقابلهم أطفال بدو الحجاز ، الذين راحوا على الرغم من صغر سنهم يغنون لهم أغانيهم الشعبية التى تقول :^(٥٦)

ياحاج سلامات

يافتدى سلامات

يابويا سلامات

إن شاء الله سلامات

إن شاء الله عرفات

إن شاء الله بركات

في حين غنى أطفال آخرون من بدو الحجاز فقالوا لهم

حج حجج بيت الله
والكعبة ورسول الله

وقال اللواء (ابراهيم رفعت باشا) مبينا حب أهل مكة للموسيقا : « وقد زرت كثيرا من الأشراف والسراة وكنوا يقابلوننا أجمل مقابلة ويردون الزيارة إلينا في المعسكر ، فكانت أكرمهم غلية الأكرام ، وكان ضباط الحرس يعطفون عليهم ، ويتحدثون معهم وكنوا ولعين بسماع الآلات المطرية ، فكانت استحضار لهم الموسيقا والمزمار البلدى ، فيتقنوا الألحان مما يزيد في ابتهاجهم وانتشراح صدورهم ، وكانت الموسيقا تعزف كل يوم بعد صلاة العصر حتى تتوارى الشمس بالحجاب ، وكان الناس يجتمعون على السماع ترويضاً للأفكار وتهذيباً للنفس ، فكان لنا الدين والدنيا جميعا »^(٥٧)

وقال في موضع آخر ، وهو يصف شغف أهل مكة بالموسيقا وقت رحلة المحمل المصرى إلى الأراضى الحجازية سنة ١٣١٨ هجرية الموافقة ١٩٠١ ميلادية : « بينما الموسيقا المصرية والشاهانية يتناوبان الألحان أخذ جماعة من أهل مكة يسمون (أهل النوبة) يضربون على النقارات ومعهم آلات أشبه بالرباب يغنون عليها بالأنشيد العربية الجميلة »^(٥٨)

وعند مرور المحمل المصرى بمدينة جدة كان لأهلها الأذان الصاغية لموسيقاه التي كانت تطربهم . يقول اللواء (ابراهيم رفعت باشا) واصفا ذلك : « وقد كان أهالى جدة صغيرهم وكبيرهم يتواردون علينا عصر كل يوم لمشاهدة المحمل وسماع الموسيقا والمزمار البلدى حتى مغرب الشمس ، ومن بعد العشاء إلى الساعة الثالثة بعد الغروب ، وأيام وجود المحمل بجدة تعتبر عند أهاليها مواسم فرح وسرور ، وانهم ليحبون سماع الألحان حبا جما ، وكان ذلك مركزا في طبيعتهم مفضلة عليه نفوسهم »^(٥٩)

أما (محمد لييب البتنونى) فقد وقف عند فنون الغناء والموسيقا وقت رحلته إلى الحجاز مع الخديو (عباس حلمى - الثانى) عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩٠٩ ميلادية . قال عن فن الحدا للبدو في الأراضى الحجازية : « ولهم أغنية يتغنون بها في طريقهم ، وهى في الغالب على النغمة العراقية والرومية التي أخذوها عن حجاج الأتراك والشوام ، وجمالهم ترناح إليها وتستمتع لها ، فتتسبب لحظة ما هى فيه من التعب والعناء . وهذه الأغنية لا يكاد يعرفها من يسمعا لأنها أقرب إلى الرطلة منها إلى العربية ، على أنها لا تخلو من معان دقيقة لطيفة ، وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبيب أو عاشق ومعشوق ، ومنها ما هو مدح في المطايا وديونك شيئا منها »^(٦٠)

والى جرى لى بعد فرقك
ولا نسبت الحصفة ذاك
فى داير الحفا والشوك
ياريت خدى يتقسم نعلين
كما رمونى بجوف الوقيدة وأنا خى
واقف على العيرات ساجدين مع الربيع
(الجبل المرتفع)

مع مثلن يمسى بواى الربيع
واى النعيم الى عذوقه مهاييع
والذوق (الذوم) بعد القسا
(التعب الشديد)

وكل دايره جيت من دارها

ياحبيبي لو ترى حالى
والله ما غبت عن بالى
ياسيد وإيش غريك
يارهيف يامرود العين
الله يحاسبهم كما حاسبونى
لو أهنى بالحج واوفى جماره

صبح أربع تسمى شعيب الخضارة
مع مثلن كل تهنى بداره
يا الله ياراد كل غريب بلاده

حمت اللمن (اليمن) والشام



لى فى اللمن سيد ولى فى الشام باشا

إن جيت عند الى فى اللمن يبقى السيد يملكنى

وإن جيت عند الى فى الشام يبقى الباشا يحكمنى

وعندما خرج الخديو (عباس حلمى الثانى) قاصدا عرقة كانت فرقة الأعراب
من أمامه تضرب نوبها ، ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق
فيما بين ذلك تعلق بالتلبية وراء التلبية^(١١)

وعند الإفاضة من عرقات قال (البتونى) : « انتظم الموكب فسار فى مقدمة
الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفى وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم ،
والباقيون يتغنون بنغمات تدخل رئاتها فى القلوب فتملؤها سرورا وحبورا ، يتلوها
الجناب العالى ، وحضرة الشريف يتلوها حاشيتهما ، ومن ورائها فرقة الموسيقى
العربية تعزف بنغماتها الشجية . »^(١٢)

وقال يصف التشريفات بمنى وسط عزف الموسيقى : « أثناء مقابلات الخديو
كانت تعزف فى أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى والمحمل المصرى
والشامى وموسيقا القوة العسكرية الموجودة بمكة ، وإلى جانبها المزمار البلدى ،
تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيح بأصوات السرور من كل
جانب »^(١٣)

وكانت هذه الموسيقى المصرية مثلر جذب لحجاج بعض المحامل الأخرى ، مثل
محمل دارفور أو التكرور ، مما أدى إلى الاندماج معها فى حركات إيقاعية منتظمة ،
والتي وصفها (محمد لييب البتونى) قائلا : « لاحظت من الخديو التفاتة فرأى
عسكر (على بن دينار) سلطان (دارفور) مع رئيسهم الذى أتى بمحملهم وراء

صفوف الناس من بعد ، فارسل فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لطفه وحياء بما يليق بكرمه أمره - حفظه الله - بأن يسير بجنده في هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حراهم على نغمة الموسيقى بحماسة كأنهم يتحركون إلى حرب أو طعان ، (٦٤) .

أما في الأزمنة المتأخرة فقد كان توديع كسوة الكعبة المشرفة في القاهرة يقام له مناسبة خاصة وهامة تلعب فيها الأغاني والموسيقى الشعبية دورا كبيرا في هذا الحفل . ولقد وصف (محمد فهمي عبداللطيف) نوعا من الغناء والمدائح والأهازيج التي كان يتغنى بها المنشدون ، وتترنم بها الجماعات من الرجال والسيدات في أيام (طلعة المحمل النبوي) وتوديع كسوة الكعبة المشرفة ، والمسافرين إلى حج بيت الله الحرام .

قال : « كان توديع الكسوة يتم في حفل حافل يتبارى فيه كبار المطربين والمنشدين في انشاد المدائح النبوية ، وكان فارس الميدان في هذا المرحوم الشيخ (يوسف الميلاوى) ، ثم الشيخ (علي محمود) من بعده ، وكذلك يوم طلعة المحمل ، لقد كان يوما مشهودا تتعطل فيه الأعمال في المصالح والدواوين ويحتشد له الناس بجماعات من كل صوب في زحام أشبه بالحشر للتبرك برؤية المحمل الشريف وهو يخترق شوارع القاهرة في موكبه الحافل بالموسيقى والأناشيد وضرب النقاير . وكان للحج أغنية شعبية مشهورة ترددها السيدات في أداء جماعي عذب الترانيم في وداع الحجاج ، وفي استقبالهم ، كما كانت ترددها السيدات المسافرات للحج وهن يقطعن الرحلة على ظهور الجمال من جدة إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة المنورة ، وهى أغنية تتحدث عن الطريق إلى الحج ، وركوب الواوور . والبحر ، وذكر شعائر الحج بالترتيب ، وزيارة النبي والأعتاب ، وكان من العادة أن تبدأ سيدتان الغناء معا بكلمة : (ياهنا الى النوع) ، فتزد الجماعة بصوت محدود : (ياهناه .. ياهناه الى اتوعد) .

وهكذا يجرى التريديد في آخر كل مقطع من مقاطع الأغنية على النحو التالي : (٦٥)

انا امدح محمد والحسن والحسين والقاسم أحمد ..

بلغ العاشقين يارب زيارة محمد .. مديح باشتياق انا ما امدح الا النبي ..

ياهنا الى النوع .. ياهناه ..



يايلة ان برزوا وباتوا لبره وبات قلبى في حنين ..

ويطلب من الله يرجعوا سالمين بنصرة من الله ..

ياهنا الى النوع .. ياهناه ..



وإن جبت حبيبي يا بabor ، وإن جبت حبيبي ..
لأكنسك وأرثك وبالشمع أقيدك ..
مروق بخوخة يابجر يابجر مروق بخوخة ..
لا بمسك عكار ولا ريج بدوخة تحت القلوع أبوشال وجوخة ..
في رابع نوى الاحرام ولبس احترامه [رابع هي نقطة الاحرام لمن حازا مدينة
« أبا » برا وبحرا] ..
يا يوم الهنا يوم خلوه يحل احرامه ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



يافرح قلبي يوم طلوع الجبل .. والخطيب على الجمل .. والمبلغ يرقى ..
يافرح قلبي ساعة النقرة وفرحت عيوننا ونزلنا بفرحة .. وفوتنا من بين
العلمين ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



كان القمر لايح .. يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم ودبحنا الدبايح ..
وافتكرنا العيال .. وبقي الدمع سيال ..
وبعد ثلاث أيام حملنا مكة ..
وظفنا طواف الوداع وبرزنا ..
والجمال حملنا وعلى أبوابراهيم سرنا ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



وصلنا قبة المصطفى والاعتاب زمرد ..
حول مقام النبي قال الطواشي فين ياجماعة ..
زوروا النبي زوروا واطلبوا الشفاعة ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



وهناك اغنية اخرى شعبية كانت تردد اثناء رحلة المحمل المصري ، وهذه
الاغنية الشعبية كلماتها ونغماتها تأخذ طابع حداء الابل في الصحراء ، من حيث
قصر الجملة الغنائية المرددة ، والتي تتناسب وحركة اهتزاز راكب سفينة
الصحراء ، ومن حيث شجن اللحن نفسه ، وهذه الاغنية تقول : (٦١)
بعيدة بعيدة ياطريرج (طريق) النبي ..
بعيدة بعيدة ..
بعيدة بعيدة .. وإن عطاني ربي لأروحك سعيدة ..
ولا مال معايا خاطر أزور النبي ولا مال معايا ..

ولا مال معايا يا كريم ياحنون تحزنن ياربى ..
بعيدة بنفسى يا طريق النبى بعيدة بنفسى ..
بعيدة بنفسى وإن عطانى ربى لأروحك بزفة ..



صلوا على النبى وزيدوا صلاته ..
دا كان يلاغى القمر محمد ويفهم لغاته ..
يانخل مكة ياطويل ياعالى ..
والتمر منك دوا للمبالى ..
يابير زمزم سلبك حريرى [السلب هو الحبل . والمعنى انه لا توجد مشقة فى
نزول وصعود الدلو عند الشرب ..]

والشربة منك دوا للعليلى ..
يابير زمزم سلبك سلامة ..
والشربة منك دوا للمسافة ..
رايحة فىن يا حاجة ياموشال قطيفة ..
رايحة أزور النبى والكعبة الشريفة ..
وادعيلى يا امة من فوق المناير ..
ودعيتلك يابنى تيجى بالسلامة ..
وصلتنى ليلة (ليلى) لحد المخاضة ..
عودى يا ليلة لجيت لى رفاجة ..
صلوا على النبى وزيدوا صلاته ..
داكان يلاغى القمر محمد ويفهم لغاته ..

ان المتامل فى الأغاني الشعبية التى كانت تردد عند الحج وهو ما يسمى باسم
(حنون الحاج) سيلمح تشابها كبيرا بينها ، من حيث الوزن ، والقافية ،
والحس الداخلى . على الرغم من تلك المتغيرات الثقافية فى المجتمع المصرى ، مثلما
حدث فى وسائل الانتقال والسفر واستبدال (الجمل) كتعبير لفظى بتعبير
(الوابور) ، وهو ما يعنى انتقال الحجاج وسفرهم باستخدام المسكك
الحديدية . من ذلك تلك الأغنية : (٦٧) ..

صغير بشوشة .. حج منا جدع .. صغير بشوشة ..
وزعقته فى الجبل .. بتبعد الوحوشة ..
صغير وزينة .. حج منا جدع .. صغير وزينة ..
وزعقته فى الجبل .. ترج المدينة ..



يابو الخف زينة .. ياجمل ياجمل .. يابو الخف زينة ..
ورايح فىن ياجمل .. دانا رايح اودى الحبيب يزور نبينا ..

يابو دراع حديدى .. يا بابور يا بابور . يابو دراع حديدى ..
ورايح هين يابابور .. دانا رايح اودى الحبايب يزوروا الحبيبي

● ● ●

يارب ما اموت ولا انزل ترابى ..
إلا اما ازور النبى وابلى مرادى ..
يارب ما اموت ولا انزل لحدوى ..
إلا اما ازور النبى وابلى مقصودى ..
ياهنه الى انوعد ..

● ● ●

يابشير يابشير يالى تبشر ..
لادى لك لبنى ونقى تعشر ..

● ● ●

يا رايح بلدنا يا بشير يابشير .. يا رايح بلدنا ..
قول لاهلى العزاز .. يزينوا عتبنا ..
ياللى انت رايح يابشير يابشير .. يالى انت رايح .
قول لاهلى العزاز .. يحضروا الدبايح ..
وياهنه الى انوعد ..

● ● ●

ما تستكثروش مالى على الحج والنبى ..
دا نبينا المصطفى على الباب ونده لى ..

● ● ●

ياللى فوق العلالى ، وادعى لى يا أمى .. يالى فوق العلالى ..
دعيت لك ياخوى .. يردك يا غالى ..
يا فوق السطوحى .. وادعى لى يا أمى .. فوق السطوحى ..
يا فوق السطوحى .. ودعيت لك يا أخويا .. يردك يا روحى
ولما انت ناوى يابوى .. ولما انت ناوى ..
ولما انت ناوى .. مين يحيى الضيوف .. ويوزع قهاوى ..
ولما انت رايح .. ياحبيبي يابوى .. ولما انت رايح ..
ولما انت رايح .. مين يحيى الضيوف .. ويشرى دبايح ..

● ● ●

خد الكشك كله .. وإن نويت ع السفر .. خد الكشك كله ..
خد الكشك كله .. عند حزم النبى .. اقعد وبلىه ..

● ● ●

وهدى شويه .. يا وابور السفر .. وهدى شويه
وهدى شويه .. لما ابويا العزيز .. يوصى عليه

● ● ●

لابنى واعلى .. فى طريق النبى .. لابنى واعلى
لابنى واعلى .. وحياة ابوك .. تميل تصلى
لابنى خزانة .. فى طريق النبى .. لابنى خزانة
لابنى خزانة .. وحياة ابوك يا حجاج .. تميل حدانا
وانا قاعده احلل .. فلت عليه البشر .. وانا قاعده احلل
وانا قاعده احلل .. رمى عليه الجواب .. جوابه يظمن
يارايح بلدنا .. يابشير يابشير .. يارايح بلدنا
يارايح بلدنا .. قول لولدى العزيز .. يبيض عتبنا
بيوهيه وزيتى .. نقرش البوابة بيوهيه وزيتى ..
بيوهيه وزيتى .. واكتب حجتى .. على باب بيتى
ورصوا الكراسى .. حوالين قبر النبى .. ورصوا الكراسى

● ● ●

ورصوا الكراسى .. فج ثور النبى .. تلب كل عاصى ..
بنوك جدوى .. يلحرم النبى .. بنوك جدوى
بنوك الجدود .. وسعوا ساحتك .. وعلوا العمود ..
وعاليه فى سماها .. قبلك يانبى .. وعاليه فى سماها ..
وعاليه فى سماها .. دول يتوها الملوك .. وربى نشاها ..

● ● ●

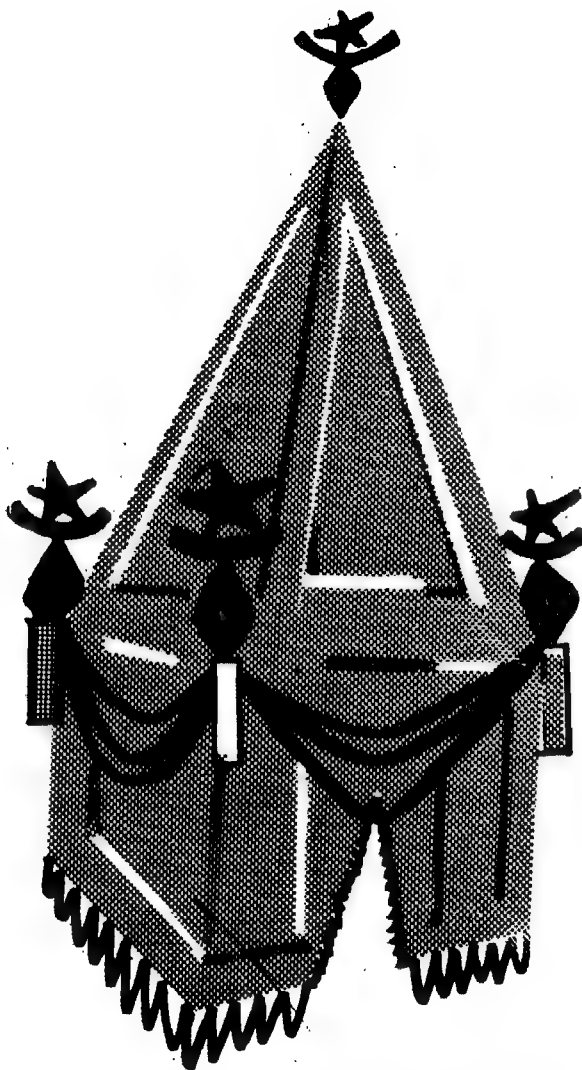
يجيب الاملة .. الملى زار النبى .. يجيب الاملة
يجيب الاملة .. دا الكواكب دهب .. وخضرة السترة

● ● ●

ومن الاغنى الشعبية التى كانت تردد حديثا فى موكب المحمل المصرى اغنية
(ودينى يا دليل ودينى) ، والتى تقول كلماتها : (٦٨)
ودينى يا دليل ودينى .. ع النبى اشوفه يعينى
النبى أهوعدى وفات .. على منى وجبل عرفات
وهذه الاغنية تعد من الاغنى الشعبية التى وصلت لنا متاخرا ، كما ان هناك
سلاما وطنيا يسمى (سلام المحمل) كان يُعرّف خصيصا عند توديع واستقبال
المحمل المصرى فى رحلته إلى الأراضى المقدسة .

ومن الاغنى الشعبية فى موكب المحمل المصرى اغنية : (٦٩)

قعدنا رباعه بق طيل النبى
منين ياجماعه احنا زوار النبى



■ شكل تخطيطي كاريكاتوري شعبي للمحمل المصري ■

أغاني حجاج العجم :

لم ينفرد الحجاج العرب وحدهم بفن الغناء عند الحج ، بل شاركهم الموالي والعجم منذ عهد بعيد . فقد أورد (ابن الجوزي) المتوفى عام ٥٩٧ هجرية ما يؤكد ذلك ، فقال : « إن الغناء يطلق على أشياء منها غناء الحجاج في الطرقات . فإن أقواما من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعارا يصفون فيها زمزم والكعبة والمقام ، وربما طربوا مع الانشاد . فسماع أشعارهم مباح ، وليس في إنشادهم إياها ما يطرِب ويخرج عن الاعتدال . » (٧٠)

ويقول الدكتور (حسين مجيب المصري) معلقا على ذلك بقوله : « إننا لانعرف هؤلاء الأعاجم على التحقيق ولا اللسان الذي كانوا يغنون به ، وإن كنا اميل إلى أرجحية أن يكون غير لسان العرب . وأيا ما كان ، فزيارتهم لبيت الله واختلاطهم بالعرب وغيرهم من المسلمين القادمين من شتى أرجاء الأرض والمجتمعين في صعيد واحد ، مما يخرج أغانيهم عن أعجميتها وعربيتها ، ليكسبها طابعا ساطعا لاسلاميتها ، ويجمع عليها المسلمين كافة ، لأنها الناطقة عن مناسك الحج التي تجمعت أمم الاسلام لها وتوحدت بها . » (٧١) إن أغاني الحج عند الترك في خصائصها ومضامينها ومعانيها تفترق في كثير عن مثيلتها العربية ، لأن الأغاني التركية تميل إلى السرد القصصى ، وهو مانعده في الشعر التركي القديم الذي يرمز إلى مغزى صوفي في معرض قصة ، ومجاهدة النفس والصعب في الدنيا ، مثل قول الشاعر : (٧٢)

عشقا	لك	في	الطريق	مضيت
في	البحر	والصبراء	ترديت	
لكل	عبد	مثل	هذا	ماريت
وكان	لي	فله	الحمد	
تلك	الطرق	ضاقت	للغاية	
ولا تبعدو	لها	بداية	من نهاية	
تفضي	ليال	وأيام	بما لها من آية	
واقول	على	الدوام	للحمد	

وقد جرت عادة العبيد في مدينة كربلاء بالعراق في القرن الماضي على ترديد أغنية تركية عراقية ، كانوا يغنونها عند الطواف بديار من قدموا من حج بيت الله الحرام ، ويعزفون لكلماتها على معازفهم منشدين : (٧٣)

قدر	الدوام	لهذا	يا إلهي
اكتب	السلامة	يا إلهي	
اجعل	البركة	في	عمرهم
قدر	الدوام	لهذا	يا إلهي

وسواء أكان الغناء للحجاج عربيا أو أعجميا فلا فرق في ذلك بينهما لأن

الباعث في كل منهما إنساني ، وفوق الغناء شوق وقصد إلى الغسل من أدران
الذنوب والغفران .



■ المحمل كما رسمه المستشرق ادوارد وليم لين ■

الهوامش والمراجع

- (١) د . فؤاد زكريا - « التعبير الموسيقى » - ص ٨ - مكتبة مصر بالجيزة - الطبعة الثانية - ابريل ١٩٨٠
- (٢) د . حسين نصار - « الشعر الشعبي العربي » - ص ٧٠ - المكتبة الثقافية رقم (٦٠) - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - أول مايو ١٩٦٢ .
- (٣) ابوطالب المفضل بن سلمة - « كتاب الملاحى وأسمائها » - ص ٢٩ - تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .
- (٤) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٥٠٩ المجلد الثاني - هذب ابن واصل الحمودي - كتاب التحرير ١٩٦٣ .
- (٥) د . حسين نصار - « الشعر الشعبي العربي » - ص ٧٢ .
- (٦) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٢٦١ المجلد الأولى - تحقيق : ابراهيم الايبارى - دار الشعب ١٩٦٩ .
- (٧) المرجع السابق - ٢٩٣ .
- (٨) الحصاب : موضع رمى الجمار بمنى .
- (٩) صفى السبب : موضع بمكة به ماء قريب من بيت أبى موسى الأشعري .
- (١٠) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٣٥٥ ح ٢ - اعداد لجنة نشر كتاب الأغاني اشراف : محمد أبو الفضل ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ .
- (١١) عبد القادر الأنصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢١١
- (١٢) المرجع السابق - ص ٢١٢
- (١٣) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٣٤٦ ح ١٨ .
- (١٤) المرجع السابق - ص ٣٤٥ ح ١٨ .
- (١٥) المرجع السابق - ص ٣٧٢ ح ١٨ .
- (١٦) المرجع السابق - ص ٣٧٣ ح ١٨ .
- (١٧) مقامات الحريري - ص ٣٢٦ - المكتبة الشعبية - بيروت بلبنان - بدون تاريخ .
- (١٨) المرجع السابق - ص ٣٢٨
- (١٩) سير النهار وسير الليل .
- (٢٠) أى اختيارك .
- (٢١) بالجيم والحاء المهملة .
- (٢٢) جمع جرح بالكسر ، وهو مركب من مراكب النساء كالمحفلة .
- (٢٣) جمع حاجة .
- (٢٤) أراد من هذه الاستعارة أن يتبع الانصاف والعدل ولايفك عنه أن يجعل هاديه فى سره ردد هواه ومخالفة نفسه وقمعها .
- (٢٥) أى نقصانا ، والمعنى كان الحج ناقصا من أخذت الناقة إذا لت بولدها ناقص الخلق ولو لتمام الوقت ، وخدجت خدجا قبله قبل النتاج ولو قام الخلق .
- (٢٦) من المداجاة ، وهى النفاق هنا .
- (٢٧) أى فما يؤخر ولايمنع من نهضة عن كذا زحزحته ومنعته عنه .
- (٢٨) فلجاءه .

- (٢٩) اى ولو تخيل لك وظننته .
 (٣٠) ثجلا : اى متتابع القطر .
 (٣١) اى تسوقها وتضمينها من درج القوم إذا انقضوا او تطويها كطى الكتاب .
 (٣٢) اى نهاية كل متشدد إلى الارتخاء مستفاد من قولهم نَفَرُو وتَلَيَّن .
 (٣٣) من الهيجان .
 (٣٤) الحريرى - مقاماته - ص ٣٣١ .
 (٣٥) هو ابراهيم بن على المعمار - ارجع إلى (ابن ايس) فى كتابه « بدائع الزهور » ، ص ٣٤٦ > ١ ق ١ .
 (٣٦) ابن ايس - « بدائع الزهور » - ص ٤٤٣ > ١ ق ١ .
 (٣٧) المرجع السابق - ص تجدف > ٢ .
 (٣٨) المرجع السابق - ص ٥٧ > ٤ .
 (٣٩) المرجع السابق - ص ٦١ > ٤ .
 (٤٠) المرجع السابق - ص ١٠٤ > ٣ .
 (٤١) المرجع السابق - ص ٤٥٢ > ١ ق ١ ، ابن تغرى بردى - « النجوم الزاهرة » - ص ٥٥ > ١١ .
 (٤٢) الفلقشندى - « صبح الأعشى » - ص ١٣٢٩ > ٤ .
 (٤٣) ابن ايس - « بدائع الزهور » - ص ١٠٦ > ٣ .
 (٤٤) الجبريتى - « عجائب الآثار » - ص ٢٩ > ٣ ، ص ١٣٢ > ٣ ، ص ١٨٨ > ٣ ، ص ١٨٩ > ٣ ، ص ٢٤٧ > ٣ ، ص ٤٦٧ > ٣ - دار الجبل ببيروت - بدون تاريخ .
 (٤٥) المرجع السابق - ص ١٨٩ > ٣ .
 (٤٦) المرجع السابق - ص ١٨٨ > ٣ .
 (٤٧) ادوارد ولیم لين - « المصريون المحدثون » - ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، جبراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٣ > ١ .
 (٤٨) لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤١٠ .
 (٤٩) المرجع السابق - ص ٣١٦ .
 (٥٠) جبراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٤ > ١ .
 (٥١) لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤١٠ .
 (٥٢) جبراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٥ > ١ .
 (٥٣) ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٠ > ٢ .
 (٥٤) الجاعد : الغروة .
 (٥٥) النضا : البعير المهزول ، والحلائل : الزوجات .
 (٥٦) محمد لبيب البتفونى - « الرحلة الحجازية » - ص ٢١٦ .
 (٥٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٣٨ > ١ .
 (٥٨) المرجع السابق - ص ٥٠ > ١ .
 (٥٩) المرجع السابق - ص ٢٠ > ١ .
 (٦٠) محمد لبيب البتفونى - « الرحلة الحجازية » - ص ٢١٦ .
 (٦١) المرجع السابق - ص ١٩٧ .

- (٦٢) المرجع السابق - ص ١٩٨ .
 (٦٣) المرجع السابق - ص ٢٠٣ .
 (٦٤) المرجع السابق - ص ٢٠٣ .
 (٦٥) محمد فهمى عبد اللطيف - د الفن الإلهي ، - ص ٧٤ - المكتبة النظمية رقم (٢٢٣)
 - دار الكتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٩ .
 (٦٦) الأغنية للقليلة (فاطمة عيد) ، وهى على شريط كاسيت يحمل اسم (حشيك
 للقاضى) - انتاج شركة عالم الفن بالقاهرة .
 (٦٧) د . احمد مرسى - د الأغنية الشعبية مدخل إلى دراستها ، - ص ٢٦٥ - دار
 المعارف ١٩٨٣ .
 (٦٨) روى لنا ذلك الحاج (امين هندى) - ٨٠ سنة - وهو صاحب فرقة الطبل البلدى التى
 كانت تقوم بركة المحمل المصرى منذ الثلاثينات - منذ عام ١٩٣٣ ميلادية على وجه
 التحديد - اما قبل ذلك فكانت فرقة الحاج (على الدخلى) هى التى تقوم بركة المحمل
 المصرى بالطبل البلدى والمزمل . وقد استقيننا هذه المعلومات من الحاج (امين هندى)
 بمنزله بالسكاكيتى بالقاهرة يوم ٢٥ / ٧ / ١٩٨٨ .
 (٦٩) د . حسين مجيب المصرى - د فى الأدب الشعبى الاسلامى المقارن ، - ص ٢٣٧ مكتبة
 الأنجلو المصرية - الطبعة الاولى ١٩٨٠ ..
 (٧٠) ابن الجوزى - د تلبيس إبليس ، - ص ٢١٥ - مطبعة فيصل عيسى البابى الحلبي -
 بدون تاريخ .
 (٧١) د . حسين مجيب المصرى - د فى الأدب الشعبى الاسلامى المقارن ، - ص ٢٣٦ .
 (٧٢) المرجع السابق - ص ٢٣٩ .
 (٧٣) المرجع السابق - ص ٢٤٠ .

□ □ □

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٣٤٧٣ / ٩١

الترقيم الدولى 3 — 0114 — 08 — 977 ISBN

عدد يوليو

كتاب اليوم



سنة أولى سجن



الكاتب الكبير
مصطفى أمين

□□ سنة أولى سجن تروى لأبناء مصر
المأساة في حقبة من أحلك حقب
تاريخها .. حيث أهدرت فيها كرامة
المواطن والاعتداء على حريته ..
وهتك الأعراض .. واختفاء الرجال
خلف الأسوار ..
.. صارت مصر كلها خلف الأسوار ..

• ترقب صدوره •



عقود وفيرة
على الرهون
المروية
بواسطة زكاة
النتاج

شركة الإسكندرية للتأمين والصوابون

هذا الكتاب

كسوة الكعبة المشرفة ، رمز غال وعزيز على الأمة الإسلامية . لم يشرف شعب في الدنيا قدر الشعب المصرى بكساء بيت الله الحرام ، وحول هذا الشرف المقدس التفت الأمة الإسلامية تشاركه في بعض المراحل ابتغاء مرضاة الله رب العالمين .

وتاريخ الكسوة . بعناصره الفنية وجوانبه العديدة قطعة حية - من تاريخ العالم الإسلامى . امتزج فيه الشعور الدينى العميق بفنون من صاغوا ونسجوا وطرزوا هذا الرمز الجليل .

إبراهيم حلمى الباحث فى التراث يقدم فى هذا الكتاب دراسة تاريخية فنية . تسجل تاريخ صناعة الكسوة . والمحمل النبوى الشريف بالكلمة والصور النادرة . انه مرجع نفيس . يعد الاول من نوعه فى الكتب العربية . كتاب لا غنى لمسلم عنه .

كتاب اليوم

٢٠٠ قرشاً

Bibliotheca Alexandrina



0248211



مطابع الاختيار